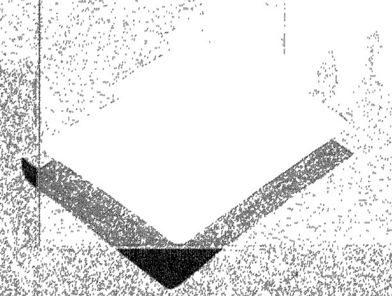
النورسي
متكلم العصر الحديث

بقلم الدكتور محسن عبد الحميد



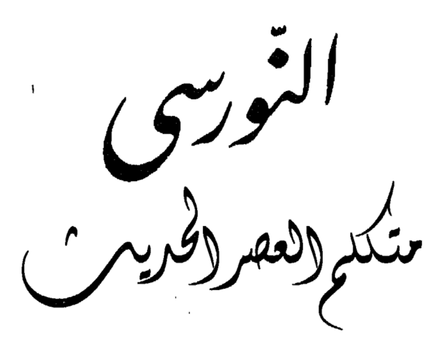
اهداءات ٢٠٠٢
شركة سوزلر للنشر
القاهرة

النورسي

متكلم العصر الحديث



١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر - القاهرة - هاتف : ٢٦٣٦٦٨٤



بقلم الدكتور محسن عبد الحميد
استاذ التفسير والفكــر الاســلامي
في جامعة بغداد



المقدمة

الحمدلله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، وعلى أهل بيته الطاهرين،وصحابته المجاهدين، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين.

اما بعد فمعرفتي بالاستاذ النورسي تعود الى بداية الخمسينيات، عندما زارنا في مدينة كركوك – شمالي العراق– أخ في الله من تركيا، قيل لنا إنه من جماعة النور التي أسسها العلامة الداعية بديع الزمان سعيد النورسي. فكانت فرصة ايمانية مفيدة، كي نسأله عن استاذه والرسائل التي كتبها، وجماعته التي وجهها وربّاها، وأوضاع المسلمين في تركيا.

وقدّر لي الله تعالى ان انتقل الى بغداد عام ١٩٥٥م لاكمال دراستي العالية، فبحثت عن ذلك الاخ النوري فوجدته يسكن غرفة في جامع المرجان في منطقة الشورجة من شارع الرشيد، وكنت اتردد عليه بين الحين والحين، فيحدثني عن الاستاذ النورسي وجماعته وجهاده في سبيل الاسلام احاديث متنوعة، اعطتني فكرة واضحة عن دعوة الاستاذ وما لقيه في سبيل الله تعالى من اضطهاد وعنت. غير ان عدم ترجمة رسائل الاستاذ حال بيني وبين الفهم الواعي لفكر الاستاذ وحركة النور، ثم توسع فهمي اكثر عندما طُبعت رسائل صغيرة للاستاذ، وظللت على هذه المعلومات القليلة غير المشبعة سنوات ليست بالقليلة. حتى قدر لي في احدى زياراتي لأخي في الله الاستاذ احسان قاسم الصالحي أن اسمع عن الاستاذ

النورسي أموراً اوسع واعمق، لم يكن لي عهد بها، إذ ان رسائل النور بدأت تصل اليه تباعا، فكان يقرأوها ويلتذ بها، ويكتشف اموراً جديدة لم يكن يعرفها عنه وعن جماعته، فكان يُطلع كل من حوله عليها، فيطلبون منه المزيد. وكنت كلما زرته في كركوك او زارني في بغداد، قرأ علي مقاطع من تلك الرسائل، فكنت اعجب بها غاية الاعجاب، مما دفعني الى ان اشجعه علىٰ نشر بعض تلك الترجمات في مجلة التربية الاسلامية ثم نشر مجموعات منها في كتب ورسائل متتابعة، فاحدثت تلك المنشورات النورية هزة فكرية كبيرة فينا، لاسيما وقد وجدنا انفسنا اخيرا وجها لوجه مع الإمام النورسي ورسائله وكتبه.

ولقد تبين لنا ان معلوماتنا السابقة عن الاستاذ النورسي على اهميته كانت ضحلة، الامر الذي دفعني كما دفع غيري الى الالحاح علىٰ الاستاذ « ابي سعد » ان يترجم رسائل النور كاملة الىٰ اللغة العربية، كي يطلع عليها قراء العربية، لاسيما دعاة الحركة الاسلامية، باعتبار ان حركة الاستاذ النورسى هي جزء لا يتجزأ من الحركة الاسلامية الشاملة، وان دعاة الاسلام في كل بلد، لا بد ان يطلعوا علىٰ ما قدمه اخوانهم في البلاد الاخرى من فكر وجهد وحركة وتجديد، كي يستوعبوا فكر العصر الاسلامي الحديث برمته استيعابا دقيقا.

ثم انني رأيت في بداية الثمانينات انه من الضروري كتابة بحث مختصر عن الاستاذ النورسي وتراثه واسس فكره، فكان ان نشرت ذلك البحث في مجلة « الامة » القطرية، ثم اعدت نشره منقحا ومفصلا في مجلة « دعوة الحق » المغربية، ثم نشر ضمن كتابي « من ائمة التجديد »

الذي ظهر في المغرب عام ١٩٨٦م، ثم اعيد نشره عام ١٩٨٧م في العراق بعنوان «النورسي الرائد الاسلامي الكبير» وباشراف مباشر من الاستاذ احسان جزاه الله خيرا.

وكنت اشعر، أنا واخي المترجم ان النورسي بحاجة الى دراسة اوسع واشمل واعمق باللغة العربية. وكان لطلب بعض تلامذة الاستاذ من النوريين الذين مرّوا عليّ في بغداد في اواخر الثمانينات في مواسم الحج، الأثر البليغ الذي دفعني الى توسيع دراستي السابقة عن النورسي. غير انني كنت انتظر ان ينتهي الاستاذ المترجم من ترجمة الرسائل كاملة، حتى استطيع ان اقرأ رسائل النورسي قراءة موحدة.

وقد منّ الله تعالى عليّ بتلك القراءة الكاملة بعد ان ارسل اليّ الاستاذ احسان مجلدات رسائل النور من اسطنبول جزاه الله خيرا، فظهرت حينئذ امامي خريطة افكار النورسي جلية مفصلة، فتوكلت على الله تعالى واعدت صياغة ما كتبته عن النورسي صياغة مفصلة جديدة في هذا الكتاب الذي سميته بـ «النورسي متكلم العصر الحديث» الذي ركزت فيه علىٰ اخراجه علم الكلام القديم من أزمته المعرفية المستعصية الى علم كلام جديد، يقود الصراع الفكري في المرحلة الحاضرة بكل اسلحة الصيانة والفلاح والانتصار، في مواجهة الحضارة المادية ومؤامراتها الاستعمارية، ومخططاتها المعادية للامة الاسلامية، وافتراءاتها الخالية من الانصاف والحقائق العلمية، علىٰ الاسلام والمسلمين.

علىٰ انني ما زلت اشعر ان رسائل النورسي وتراثه العلمي والفكري تحتاج الى دراسات متنوعة اكثر خصوبة في جوانب تجديدها الاسلامي

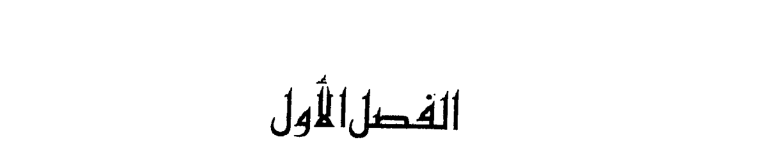
وعمقها الفكري واسلوبها التربوي، ارجو الله تعالى ان يوفق الباحثين الى القيام بذلك، حتى نستطيع جميعا ان نقدم هذا الامام الرباني الجليل بامانة واخلاص الى العالم الاسلامي خاصة، والعالم البشري عامة. فاعماله وافكاره فيها خير كثير ونعمة سابغة لهداية الانسانية الشاردة الضائعة. انه هو السميع المجيب.

د. محسن عبدالحميد

الخضراء- الكفاءات - بغداد/ جمهورية العراق

في ٤/شوال/١٤١٤هـ ١٦/٣/١٩٩٤م

* * *



الفصل الأول

حياة النورسي

في قرية «نورس» من قرى ولاية «بتليس» في شرقي الأناضول وفي اسرة كردية صالحة تقية، ولد سعيد النورسي سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م.

كانت اسرته تشتغل بالفلاحة، فتوجه هو الى التعليم في الكتاتيب والمدارس الدينية. وكان يأخذ دروسه علىٰ أخيه «الملا عبدالله» وغيره من العلماء. واقتصرت دراسته في هذه الفترة على الصرف والنحو، ثم بدأ ينتقل في القرى والمدن بين الاساتذة والمدارس ليتلقى العلوم الاسلامية، من كتبها المعتبرة بشغف عظيم. وكان يساعده في ذلك ذكاء خارق، اعترف به اساتذته جميعهم بعد اختبارات صعبة، كان يجريها له كل منهم. واجتمع له مع الذكاء قوة الحافظة، بحيث إنه درس وحفظ كتاب «جمع الجوامع» في أصول الفقه – وهو كتاب معروف بصعوبته – في اسبوع، وشهد له استاذه كتابة علىٰ ظهر نسخته(١).

ولم تلبث شهرة هذا الشاب أن انتشرت بعد ان افحم في مناقشاته علماء منطقته جميعا فسموه بـ «سعيد المشهور». ثم ذهب الى «بتليس» ومنها الى مدينة «تيلو» حيث اعتكف مدة في أحد اماكن العبادة وحفظ هناك قاموس المحيط للفيروز آبادى الى باب السين(٢).

---

(١) Tarihçe-i Hayat, 36(سيرة ذاتية).

(٢) نفسه ص ٣٨ – ٣٩

وفي ١٨٩٢م ذهب «الملا سعيد» الى مدينة «ماردين» حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب على اسئلة الناس، ثم وشي به الى الوالى فاصدر امرا باخراجه، وسيق الى «بتليس» فلما عرف واليها حقيقة هذا الشاب العالم الحّ عليه ان يقيم معه. فاقام معه، وهناك وجد الفرصة سانحة لمطالعة الكتب العلمية الاسلامية، لاسيما في الفلسفة وعلم الكلام والمنطق وكتب التفسير والحديث والفقه والنحو، حتى بلغ محفوظه من متون هذه العلوم «ثمانين متنا». وفي هذه المدينة اخذ آخر دروسه الدينية من العالم الجليل الشيخ محمد الكفروي(٣).

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب الى مدينة «وان» وانكب فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافية، حتى تعمق فيها الى درجة إفحام الاساتذة المختصين، فسمّي لأول مرة بـ «بديع الزمان» اعترافا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير(٤).

وفي هذه الأثناء قرأ بديع الزمان في الجرائد المحلية ان وزير المستعمرات البريطاني «غلادستون» صرح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم قائلاً: «مادام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نستطيع ان نحكمهم. لذلك فلا مناص لنا من ان نزيله من الوجود او نقطع صلة المسلمين به».

زلزل هذه الخبر كيانه وأقضّ مضجعه، وادرك بذكائه وبمعرفته الواسعة وحسه الاسلامي، ان المسألة خطيرة جداً، وان الغرب بزعامة بريطانيا،

(٣) نفسه ص ٤٢ – ٤٤

(٤) نفسه ص٤٥

مقدم علىٰ هجوم واسع بمخطط شامل على الاسلام والمسلمين. ومن هنا فقد قرر شدّ الرحال الى اسطنبول عام ١٨٩٦م ليقدم مشروعا لانشاء جامعة اسلامية حديثة في شرقي الاناضول تقوم بمهمة نشر حقائق الاسلام وعلومه ودعوة المسلمين الى التقدم العلمي والاهتمام بترقية حياتهم المادية والمعنوية. إلا أنه لم يلق العون من المسؤولين، فرجع خائبا الى الشرق(٥).

وفي سنة ١٩٠٧م ذهب مرة اخرى الى اسطنبول، وكانت شهرته العلمية هذه المرة سبقته اليها، فتجمع حوله الطلبة والعلماء يسألونه وهو يجيب في كل فن بغزارة نادرة، فاعترف له الجميع بالامامة، بأنهم لم يشاهدوا في علمه وفضله احدا قط.

يسرد العالم التركي السيد « حسن فهمي باش اوغلو » ذكرياته حول لقائه بالنورسي فيقول:

عندما جاء شاب يدعى « بديع الزمان » الى اسطنبول كنت ادرس في مدرسة « الفاتح » وسمعت انه علق لوحة علىٰ باب غرفته يقول ما معناه:

« هنا يحل كل أمر معقد ويجاب عن كل سؤال، ولكنه لا يسأل احداً ».

وقد تبادر الى ذهني بان صاحب مثل هذا الادعاء لا بد ان يكون مجنونا. ولكن توالى الثناء على بديع الزمان من لدن الجميع، من الطلاب والعلماء الذين قاموا بزيارته أثار في نفسي الرغبة لزيارته. وقد قررت ان اختار اعقد الاسئلة وأدقها لأسأله. وكنت آنذاك أعتبر من المتقدمين المتفوقين في المدرسة. واخيرا وفي احدى الامسيات اخترت من الكتب

---

(٥) نفسه ص ٤٧ – ٤٨

التي تبحث عن الالهيات بعض الموضوعات المعقدة التي لا يمكن الاجابة عليها إلا بمجلدات من الكتب.

وفي اليوم التالي ذهبت لزيارته ووجهت اليه الاسئلة، وقد كانت اجوبته عجيبة وخارقة ومدهشة، إذ اجابني وكأنه كان معي بالأمس ينظر الى تلك الكتب، فاصبحت موقنا ومطمئنا أن علمه ليس كسبيا كعلمنا، وانما هو علم لدني »(٦).

وكذلك ينقل السيد « علي همت بركي » وهو من رؤوساء محكمة التمييز السابقين ذكرياته حول وصول « بديع الزمان » الى اسطنبول فيقول:

« كنت انذاك طالبا في مدرسة القضاء، أى كلية الحقوق، عندما انتشرت اشاعة تقول: إن شخصا اسمه « بديع الزمان » ذا قيافة غريبة جاء من شرقي البلاد، وانه يجيب عن اي سؤال كان يوجه اليه، فشعرنا بفضول كبير وذهبنا لرؤيته. كان جالسا يتناول بالتفنيد والدحض الفلسفة السوفسطائية بادلة عقلية ومنطقية، كان جديراً فعلا بلقب « بديع الزمان »، إذ لم يكن هناك حد لمعلوماته في الفلسفة الاسلامية، اي في علم الكلام وعلم اللغة(٧).

وفي اسطنبول قدم الى السلطان عبدالحميد طلبا بفتح المدارس التي تعلم العلوم الكونية الحديثة بجانب العلوم الاسلامية، حيث كان يؤمن بضروة الدراسة المندمجة وعدم الفصل بينهما، جريا على المنهج الاسلامي الصحيح، في الوحدة بين العلوم الكونية والدينية.

---

(٦) Bilinmeyen taraflariyle B. S. Nursi (بديع الزمان سعيد النورسى وجوانب مجهولة من حياته) نجم الدين شاهين أر ص ٨٠ - ٨٢

(٧) سعيد النورسى - رجل القدر في حياة امة - مخطوط بقلم المهندس اورخان محمد على عن المصدر السابق ص٣ ٨ - ٨٤

وجاء في طلبه:

« إن مقام الخلافة لا ينحصر في اقامة صلاة الجمعة، فكما ان للخلافة قدزة وقوة معنوية، فيجب ان تكون لها القدرة المادية التي تكفل مصالح الامة المحمدية في اقطار الارض جميعا».

ومنها:

« لا استبداد في الاسلام، فما يصدر حول فرد من الافراد من قرار يجب ان يصدر بعد استكمال جميع مراحل المحاكم التي يجب ان تكون علنية وضمن العدالة الشرعية، وليس من الجائز صدور القرار من قبل اشخاص غير معروفين ونتيجة دسائس معينة واعتمادا على تقارير سرية».

يقول الشيخ جمال الدين افندي، شيخ الاسلام للدولة العثمانية:

« انني لم أر حتى ذلك اليوم من استطاع ان يشرح رأيه بهذه الشجاعة في حضرة السلطان»(٨).

ولاجل هذه الصراحة والشجاعة، ظن حاشية السلطان بان النورسي مجنون فاحالوه الى طبيب الامراض العقلية للتأكد من سلامة عقله، فكتب الطبيب المختص تقريره علىٰ الوجه الآتي:

« لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان، فمعنى ذلك انه لا يوجد علىٰ وجه الأرض كلها عاقل واحد».

وعلىٰ أثر ذلك ارسل بديع الزمان الى لجنة التفتيش العسكري، حيث جرت المحاورة الآتية بينه وبين رئيس اللجنة « شفيق باشا»:

---

(٨) نفسه ص ٣٠ عن المصدر السابق ص٨٨

شفيق باشا: إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتّب بمبلغ الف قرش، وعندما تعود الى بلدك يجعل مرتبك ثلاثين ليرة كما أرسل لك هدية ثمانين ليرة.

بديع الزمان: لم اكن أبداً متسول مرتّب، ولن اقبله ولو كان الف ليرة، لانني لم آت لغرض شخصي وانما لمصلحة البلد، فما تعرضون عليّ ليس سوى رشوة السكوت.

شفيق باشا: انك بهذا ترد الارادة السلطانية والارادة لا ترد.

بديع الزمان: إننى اردّ لكي يستاء السلطان ويستدعيني، عند ذلك استطيع ان اقول له قولة الحق.

شفيق باشا: إن العاقبة تكون غير سارة.

بديع الزمان: تعددت الاسباب والموت واحد، فلئن أعدم فسوف ارقد في قلب الامة، علما انني عندما جئت الى اسطنبول كنت واضعا روحي على كفي، اعملوا ما شئتم فانني اعني ما اقول: اني اريد ان اوقظ ابناء الامة. واقوم بهذا العمل لاني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتبا، لان خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا باسداء النصائح. وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلا بترك المصالح الشخصية، فاني معذور اذن عندما ارفض المرتب.

شفيق باشا: إن ما ترمي اليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليا.

بديع الزمان: إذن فلمَ يتأخر نشر المعارف ويستعجل في أمر المرتب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة للأمة؟(٩).

---

(٩) Bilinmeyen taraflariyle B. S. Nursi (بديع الزمان سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته) نجم الدين شاهين أر ص٩٥ – ٩٦

وفي هذه الفترة ظهرت آراؤه بوضوح في الاصلاح والدعوة الى الشورى الاسلامي والعودة الى الشريعة، سواء في مقالاته في الصحف اوفى مقابلاته مع المسؤولين أو تجواله بين الناس(١٠).

ولآرائه تلك حاولت جمعية الاتحاد والترقي الاتصال به وكسبه الى صفها، إلا انه فوت عليهم الفرصة ووصفهم بانهم المعتدون علىٰ الدين، والدائرون ظهورهم الى الشريعة.

وعندما اعلنت المشروطية الثانية، القى النورسي خطبة شهيرة في ميدان الحرية في «سلانيك» شرح فيها المفهوم الصحيح للحرية، وانها هي الحرية الشرعية، اي الحرية التي يرسم الشرع حدودها، وليست الحرية الفوضوية التي لا ضابط لها، مؤكدا ضرورة اقتباس العلوم التي تغذي التقدم دون أخذ الجوانب السلبية في الحياة الاجتماعية للغرب. واشار الى ان فئات ثلاثة يتحملون قسطا كبيرا في مسؤولية تأخر الدولة العثمانية؛ فئة العلماء، وفئة المتعلمين الذين لم يفهموا الغرب حق الفهم، وفئة اصحاب التكايا، فكل فئة منغلقة على نفسها، وتتهم الآخرين بالكفر والجهالة(١١).

وفي سلانيك طلب اليهودي المشهور «عمانوئيل قره صو» رئيس المحفل الماسوني وعضو مجلس المبعوثان «النواب» العثماني مقابلته طمعا في التأثير عليه، وجرّه الى صفه باعتبار شخصيته المشهورة، وقد قبل مقابلته، ولكن ما لبث ان خرج هذا اليهودي من عنده قائلا: «لقد كاد هذا الرجل العجيب ان يزجّني بحديثه في الاسلام»(١٢).

---

(١٠) Tarihçe-i Hayat (سيرة ذاتية) ص ٧٤ – ٧٦

(١١) Bilinmeyen taraflariyle B. S. Nursi (بديع الزمان سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته) نجم الدين شاهين أر

(١٢) نفسه ص٩٩

ومن المعلوم في التأريخ العثماني الحديث ان «قره صو» هذا هو اول صهيوني ماسوني عمل على قلب الخلافة وخلع السلطان عبدالحميد، وكان من ضمن الداخلين عليه يوم خلعه رحمه الله تعالى، وتألم السلطان جدا عندما رآه!!.

وبعد قيام حركة الاتحاد والترقي وثبوت تبعية بعضهم الى الجمعية الماسونية اليهودية في سلانيك ومحاولتهم تخريب الدولة العثمانية واسقاطها، وتوزيع املاكها بين الدول الاستعمارية حتى تأتي الفرصة السانحة لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين الذي كان عبدالحميد معارضا له(١٣). بدأ بديع الزمان يهاجم الاتحاديين من خلال صحافة جمعية «الاتحاد المحمدي» فالقي عليه القبض وقدم الى محكمة عسكرية بدعوى مطالبته بعودة الشريعة.

وعندما اقتيد النورسي الى المحكمة كان هنالك ما يزيد على عشر جثث من المشنوقين تتدلىٰ علىٰ اعواد المشانق المنصوبة في باحة المحكمة العسكرية.

ودخل بديع الزمان، قاعة المحكمة بخطى ثابتة ليواجه هيئة المحكمة العسكرية برئاسة الفريق «خورشيد باشا» الرجل القاسي، الذي ابتدره بلهجة امتزج فيها التهديد بالسخرية:

— وانت ايضا كنت تدعو الى الشريعة وتطالب بها؟! انظر إن من يطالب بها يشنق هكذا، واشار بيده الى جثث المشنوقين الظاهرة من خلال نافذة المحكمة.

---

(١٣) دور اليهود والماسونيين في الانقلاب العثماني مجلة آفاق عربية - بغداد عدد ١٩ لسنة ١٩٧٨ وهو تقرير السفير الانجليزى في اسطنبول عام الانقلاب وبعده.

قام بديع الزمان، والقى دفاعا صريحا جريئا بليغا أثّر حتى في رئيس واعضاء تلك المحكمة الطاغوتية الظالمة، ننقل منه الفقرات الآتية:

«إننى طالب علم، لذا فأننى أزن كل شئ بميزان الشريعة، والاسلام وحده هو ملتى، لذا فاني اقوّم كل شئ من وجهة النظر الاسلامية.

«اننى اذ اقف في عالم البرزخ الذي تدعونه السجن منتظر اقطار الآخرة، في محطة «اعواد المشانق» «ومنتقدا الاحوال الغادرة للمجتمع الانسانى، فاننى هنا لا اخاطبكم وحدكم، بل لعلى اخاطب بنى الانسان باجمعهم.

«اننى متهيأ وبكل شوق للرحيل الى الآخرة، ومستعد لأن أرحل مع هؤلاء المشنوقين.. فمثلي هو مثل البدوى الذى سمع عن اسطنبول ومباهجها، ولكنه لم يتيسر له رؤيتها، فهو في شوق شديد اليها، كذلك فانا في شوق لرؤية الآخرة وعالمها العجيب، فارسالى اليها لا يعتبر بالنسبة لي عقابا وتعذيبا.

«إن هذه الحكومة في عهد الاستبداد كانت تعادي العقل. اما الآن (اى في عهد الاتحاد والترقى) فانها تعادى الحياة باكملها، فاذا كان هذا هو شكل الحكومة ومنطقها، فليعش الجنون.. وليعش الموت.. ولتعش جهنم للظالمين والطاغين.

تقولون: لقد دعوت انت ايضا الي الشريعة. وانا اقول: لو كان لي الف روح، لكنت مستعدا للفداء به في سبيل حقيقة شرعية واحدة.. ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة، وهي العدالة المحضة، وهى الفضيلة والشريعة الحقة.

«تقولون: هل انضممت الى «الاتحاد المحمدى» وأقول: نعم.. وبكل فخر.. فانا اصغر فرد في هذا الاتحاد، ولكن بالصيغة التى اعرفها.. ومن الذى يرضي ان يبقى خارج هذا الاتحاد سوى الملحدين.. اروني من؟؟

ثم توجه الى المحكمة مشيرا الى الاتجاه الاستبدادى لجمعية الاتحاد والترقى التى بدأت بالصاق تهمة «الرجعية» بكل من يخالفها، مع إنها كانت تدعو الى المشروطية «اى الشورى» وعدم الاستبداد بالرأى فقال:

«إن كانت المشروطية تعني مخالفة الشريعة واستبداد جماعة معينة، فليشهد الثقلان اني رجعى، ذلك لان الاتحاد القائم على الكذب كذب ايضاً. والمشروطية القائمة على أسس فاسدة ومفسدة، مشروطية فاسدة».

وبعد كلام طويل في الكشف عن اسباب ما وقع من حوادث في اسطنبول، عاد ينتقد الاوضاع التى انشأها «الاتحاد والترقى» باسم المدنية التى كانوا يزعمون انهم انصارها، فقال:

«إذا كانت المدنية هي هذه التصرفات التي تمس الكرامة الانسانية وتعتدى عليها، وهي هذه الافتراءت التي تؤدى الي النفاق، وهي هذه الافكار التي تغذى الحقد والانتقام، وهي هذه المغالطات الشيطانية والتحلل من الآداب الدينية، إذا كانت هذه هي المدنية، فليشهد الجميع باني ارجح وافضل قمم الجبال الشاهقة في الشرق في بلدى، وافضل حياة البداوة في تلك الجبال – حيث الحرية المطلقة – على موطن النفاق الذي تسمونه انتم قصر المدنية»(١٤).

---

(١٤) رجل القدر ص٥١ – ٥٥

« وتكلم بديع الزمان وكأن موج هادر او سيل جارف وانقلب الوضع فاصبح هو الذي يحاكم، وهو الذي يتهم، وهو الذي ينتقد. واصبحت هيئة المحكمة وكأنها هي المتهمة. فلم يعتذر ولم يستعطف ولم يسترحم .. لم يتلجلج ولم يتلعثم ولم يتردد. وفغر اعضاء المحكمة افواههم دهشة.. كانوا تجاه نموذج فريد لم يجربوه بعد.. لم يكن كالمتهمين السابقين الذين وقفوا امامهم، والذعر يلفهم لا يستطيعون رفع انظارهم الوجلة الى وجوههم.. كان شيئا آخر، نموذجا فريداً ومهيبا، واحسوا انهم يدينون له بالاعتذار، ففي جلسة واحدة فقط، صدر قرار الحكم ببراءة « بديع الزمان » من تلك المحكمة التي ارسلت العديد الى حبال المشانق »(١٥).

وبعد براءته من المحكمة رجع الى « وان » حيث بدأ بالقاء دروسه ومواعظه بين العشائر مؤلفا كتابا سماه بـ « المناظرات ».

وفي عام ١٩١١ زار بلاد الشام والقى محاضرة علمية بليغة في الجامع الاموي، دعا فيها المسلم الى الأمل واليقظة والنهوض والتمسك بالاسلام العظيم. وقد طبعت هذه الرسالة باسم « الخطبة الشامية ».

ومن دمشق ذهب الى بيروت فاسطنبول، وقابل السلطان محمد رشاد، فعرض عليه مشروعه القديم بتأسيس جامعة اسلامية في الشرق، فوعده السلطان والحكومة العثمانية وعدا قاطعا بذلك غير ان الحرب العالمية الأولى حالت دون تنفيذ المشروع.

وفي سنة ١٩١٢م وقبيل نشوب حرب البلقان، عين بديع الزمان قائدا للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرقي الاناضول.

---

(١٥) النورسي رجل القدر ص ٥٤ ـ ٥٥

وعلى الرغم من معارضة النورسي لدخول الدولة العثمانية في الحرب، فانه لما أعلنت اشترك هو وتلاميذه الثلاثمائة في مدرسته المدرّبين عسكريا في الحرب ضد روسيا التي هاجمت من جهة القفقاس. وعندما دخل الجيش الروسي مدينة «بتليس» دافع هو وتلامذته عن المدينة دفاعا مستميتا، حتى جرح جرحا بليغا وأسره الروس، وأخذ الى شرقي روسيا، وفي الأسر وقعت له حادثة كادت أن تؤدي به الى الاعدام. وتفصيلها علىٰ ما يأتي:

«ففي يوم من الايام عندما يزور نيقولا نيقولافيج المعسكر المذكور للتفتيش - يقوم له الاسرى احتراماً - وعندما يمر من امام بديع الزمان لا يحرك ساكناً ولا يهتم به، مما يلفت نظر القائد العام، فيرجع ويمر من امامه بحجة اخرى، فلا يكترث به ايضاً. وفي المرة الثالثة يقف امامه، وتجري بينهما المحاورة الآتية بوساطة مترجم:

- أما عرفني؟

- نعم لقد عرفته انه نيقولا نيقولافيج، خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس.

- فلِمَ اذن قَصَد الاهانة؟

- كلا! معذرة. انني لم استهن به. وانما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وماذا تأمر العقيدة؟

- انني عالم مسلم احمل في قلبي الايمان، فالذي يحمل الايمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله. فلو انني قد قمت له احتراماً لكنت اذن قليل الاحترام لعقيدتي. ولهذا لم اقم له.

– اذن فهو باطلاقه صفة عدم الايمان عليّ يكون قد أهانني وأهان جيشي وأهان امتي والقيصر فليشكّل حالاً محكمة عسكرية للنظر في استجوابه.

وتتشكل محكمة عسكرية بناء على هذا الأمر، ويأتي الضباط الاتراك والالمان والنمساويون للالحاح على بديع الزمان بالاعتذار من القائد الروسي وطلب العفو منه إلاّ انه أجابهم بالآتي: «انني راغب في الرحيل الى دار الآخرة والمثول بين يدي الرسول الكريم ﷺ . فانا بحاجة الى جواز سفر فحسب للآخرة. ولا استطيع ان اعمل بما يخالف ايماني...»

وتجاه هذا الكلام يؤثر الجميع الصمت منتظرين النتيجة.

وتنهي المحكمة اعمالها باصدار قرار الاعدام بموجب مادة إهانة القيصر والجيش الروسي. وتحضر مفرزة يقودها ضابط روسي لأخذه الى ساحة الاعدام. ويقوم بديع الزمان الى الضابط الروسي قائلاً له بابتهاج: اسمحوا لي خمس عشرة دقيقة فقط لاؤدي واجبي.

فيقوم الى الوضوء واثناء ادائه الصلاة، يحضر نيقولا نيقولافيج ويخاطبه:

– ارجو منك المعذرة. كنت اظن انكم قمتم بعملكم هذا قصد إهانتي، فاتخذت الاجراءات القانونية بحقكم، ولكن الآن ادركت انكم تستلهمون هذا العمل من ايمانكم، وتنفذون ما تأمركم به عقيدتكم. لذا ابطلت قرار الحكم بحقكم. انكم تستحقون كل تقدير واعجاب لصلاحكم وتقواكم. ارجو المعذرة فقد ازعجتكم. واكرر رجائي مراراً: ارجو المعذرة»(١٦).

(١٦) الشعاعات – سعيد النورسي – ترجمة احسان قاسم ص ٥٧١ – ٥٧٢

وبعد ان مكث النورسي في الاسر حوالى سنتين ونصف، عانى من الوحدة والوحشة والغربة الكثير، هرب منه باعجوبة، إثر حدوث الثورة علىٰ القيصرية، فوصل الى المانيا ماراً بوارشو وفينا، ثم عاد الى اسطنبول فعين عضوا في دار الحكمة الاسلامية سنة ١٩١٨م(١٧). وكانت عضوية الدار يومئذ لا توجه إلا الى كبار العلماء وكان أحد اسباب ترشيح النورسي اطلاعه الواسع علىٰ علم الحديث النبوي (١٨).

وقد خصصت له الحكومة راتبا كبيرا كان يأخذ منه قدر حاجته والباقي يطبع منه كتبه ورسائله الاسلامية فيوزعها مجانا علىٰ الناس.

وبعد دخول الجيوش الاستعمارية الى اسطنبول، أحس النورسي، ان طعنة كبيرة وجهت الى العالم الاسلامي، ولذلك فقد شمر عن ساعد الجد، فبدأ بتأليف كتاب سماه بـ «الخطوات الست» وأخذ بنشره بمساعدة اتباعه واصدقائه وطلابه سراً بين الناس. وقد هاجم فيه الانجليز والمستعمرين بشدة ودعا الى الجهاد ضدهم وحارب اليأس الذي استولى على كثير من الناس(١٩).

وعندما قامت حركة المقاومة ضد المحتلين في الاناضول اصدر مع مائة واثنى عشر مفتيا وعالما فتوى بتأييد الحركة، ولشهرته وجهاده ضد اعداء الاسلام دعته حكومة انقرة عدة مرات، فتوجه اليها سنة ١٩٢٢م حيث

---

(١٧) اللمعات – سعيد النورسى – ترجمة احسان قاسم ص٣٦١

(١٨) يروي المؤرخ التركى «اسماعيل حقى» انه استفسر من استاذه «الشيخ مصطفى صبرى» شيخ الاسلام للدولة العثمانية عن السبب الذى دعاهم الى ضم سعيد النورسى ضمن عضوية «دار الحكمة الأسلامية» فأجابه: «أنه ضليع من علم الحديث النبوى». (انظر Aydinlar Konuşuyor لنجم الدين شاهين أر. ص ٣٠٣).

(١٩) Tarihçe-i Hayat (سيرة ذاتية) ص ١٢٣

استقبل في محطة القطار استقبالا حافلا، ولكن سرعان ما خاب ظنه في رجالات هذه الحكومة، إذ وجد ان معظمهم لا يصلون ولا يؤدون الفرائض الاسلامية الاخرى، ولا يهمهم من امر الاسلام شئ، بل يريدون ابعاد تركيا عن الاسلام نهائيا، فوجه الى المجلس خطابا بليغا جامعا في مجلس الامة بتاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٢٣ ونصه ما يزال محفوظا في سجلات المجلس، وكان من تأثير هذا الخطاب ان عددا يتراوح بين ٥٠ ــ ٦٠ من النواب بدأوا باداء الصلاة، حتى ان مسجد بناية المجلس لم يعد يسع للمصلين فتم تخصيص غرفة كبيرة[٢٠].

ولكن هذا كله أزعج مصطفى كمال، فحصلت بينه وبين النورسي مشادة كلامية عنيفة، وكان مما قال له:

– لا ريب اننا بحاجة الى استاذ قدير مثلك، لقد دعوناك الى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس.

فاجابه بديع الزمان مشيرا اليه باصبعه في حدة:

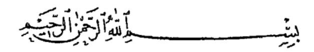
«يا باشا.. يا باشا.. إن اعظم حقيقة تتجلى بعد الايمان هي الصلاة وان الذي لا يصلي خائن والخائن حكمه مردود».

وقرر الباشا علىٰ أثره ابعاده الى شرقي الاناضول، عن طريق تعيينه واعظا عاما هناك وبراتب كبير، او ارجاعه الى اسطنبول عضوا في دار الحكمة الاسلامية، ولكن النورسي رفض ذلك الاغراء رفضا قاطعا، ولم يذهب لا الى الشرق يومئذ ولا الى اسطنبول، بل ظل في انقرة يؤلف

(٢٠) النورسي رجل القدر عن Tarihçe-i Hayat 127 (سيرة ذاتية)

الرسائل في اثبات وجود الله وترسيخ العقيدة الاسلامية، والرد على الانحراف الجديد الذي بدأ يدخل المجتمع، نتيجة لتأثر بعض من المسؤولين والموجهين بالمذاهب المادية التي جاءتهم من الغرب(٢١).

وأرى من المفيد هنا ان انقل فقرات من هذا الخطاب، لأنه يمثل ادراك النورسي العميق لبداية الانحراف الذي سرى في رجالات الأمة سريان النار في الهشيم:



﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾

ايها المبعوثون! انكم مبعوثون ليوم عظيم.

ارجو ان تعيروا سمعا الى مسألة يسديها اليكم هذا الفقير الى الله في بضع نصائح:

إن النعمة الالهية العظمى في انتصاركم هذا(٢٢)، تستوجب الشكر، لتستمر وتزيد، إذ ان لم تستقبل النعمة بالشكر تزول وتنقطع. فما دمتم قد انقذتم القرآن الكريم من اغارة العدو بفضل الله تعالى فعليكم إذن الامتثال بأمره الصريح وهو الصلاة المكتوبة، كي يظل عليكم فيضه، وتدوم انواره بمثل هذه الصورة الخارقة.

– لقد ابهجتم العالم الاسلامي بهذا الانتصار، وكسبتم ودّهم واقبالهم عليكم، ولكن هذا الود والتوجه نحوكم انما تدومان بالتزام الشعائر الاسلامية .

---

(٢١) Tarihçe-i Hayat (سيرة ذاتية) ١٢٧ – ١٢٨ ومقدمة رسالة الطبيعة (اللمعة الثالثة والعشرين).

(٢٢) انتصارهم على اليونان في حرب الاستقلال

إذ يحبكم المسلمون ويودّونكم لاجل الاسلام.

- لقد توليتم قيادة مجاهدين وشهداء في هذا العالم، وهم بمثابة اولياء صالحين، فمن شأن امثالكم من الغيارى السعي والجدّ لامتثال اوامر القرآن الكريم لنيل صحبة اولئك النورانيين، والتشرف برفاقتهم في ذلك العالم.

- ان هذه الأمة الاسلامية، مع أن قسما منهم لا يؤدون الصلاة، إلا انهم يتطلعون ان يكون رؤساؤهم صالحين اتقياء حتى لو كانوا فسقة.

-إن خصومكم واعداء الاسلام الأفرنج - ولاسيما الانجليز - قد استغلوا ولا يزالون يستغلون اهمالكم لأمور الدين، حتى استطيع ان اقول:

إن الذين يستغلون تهاونكم هذا يضرون بالاسلام بمثل ما يضرّ به اعداؤكم اليونان، فينبغي لكم باسم مصلحة الاسلام وسلامة الامة تحويل هذا الاهمال الى اعمال.

- على الرغم من تمكن عالم الكفر في الاغارة على العالم الاسلامي، منذ مدة مديدة، فانه لم يتغلب عليه دينيا مع جميع امكاناته وقدراته ووسائله الحضارية وفلسفته وعلمه ومبشريه، فبقيت الفرق الضالة جميعها - في الداخل - اقلية محكومة. لذا في الوقت الذي حافظ الاسلام على صلابته ومتانته باهل السنة والجماعة، لن يتمكن تيار بدعي مترشح من الجانب الخبيث للحضارة الاوربية ان يجد سبيلا الى صدر العالم الاسلامي. اي إن القيام بحركة انقلابية جوهرية لا يمكن ان تحدث إلا بالانقياد لدساتير الاسلام، وإلا فلا. علما انه لم يحدث مثل هذه الحركة في السابق، ولو كانت قد حدثت فلقد تلاشت سريعا وافلت.

- ليس بالامكان القيام بعمل ايجابي بنّاء، مع التهاون في الدين، حيث اقتربت الحضارة القرآنية من الظهور واوشكت الحضارة الاوربية الضالة

المسؤلة عن ضعف الدين على التمزق والانهيار. اما القيام بعمل سلبي، فليس الاسلام بحاجة اليه. كفاه ما تعرض له من جروح ومصائب.

– انتم اعلم بان اعداءكم الدائمين وخصومكم يحاولون تدمير شعائر الاسلام. مما يستوجب عليكم احياء هذه الشعائر والمحافظة عليها، وإلا فستعينون بغير شعور منكم، العدو المتحفز للانقضاض عليكم. إن التهاون في تطبيق الشعائر الدينية، يفضي الى ضعف الامة، والضعف يغرى العدو فيكم ويشجعه عليكم ولا يوقفه عند حده[٢٣].

* * *

وبعد ثمانية اشهر قضاها النورسي في انقرة، عاملا في سبيل الإسلام وداعيا الى الله، قرر الرجوع الى «وان» وتوجه الى محطة القطار وحوله طلابه واصدقاؤه يودعونه، وبينما هم في الانتظار، إذا بـ «مصطفى كمال» يفاجئ الجميع بالحضور للاشتراك في توديع النورسي، إذ كان يسكن يومذاك في بيت من بيوت المحطة، وهنا جرى نقاش حاد بينهما، بسبب بدء نصب تماثيل مصطفى كمال، فمما قال له بديع الزمان:

«ان هجوم آيات قرآننا العظيم انما ينصبّ على التماثيل، اما النُصُب التي يجب على المسلمين اقامتها، فهي المستشفيات والمدارس وملاجئ الأيتام والاقسام الداخلية للطلبة ودور العبادة وشق الطرق..»[٢٤].

وهكذا ودع النورسي مدينة انقرة، ليبدأ مرحلة جديدة في حياته، مرحلة التأمل والتفكير والاعتكاف والعبادة، بعد ان ذرف دموعا ساخنة

(٢٣) المثنوى العربى النورى ص ٢٠٠ – ٢٠٤

(٢٤) النورسى رجل القدر ص١١٠ عن Tarihçe-i Hayat 250 (سيرة ذاتية)

بل ملتهبة، علىٰ خرائب «وان» وشهدائها، من تلامذته واصدقائه واقاربه، حيث دمرت الروس والارمن بيوت المسلمين في المدينة كليا ولم تبق إلا محلة الأرمن.

يقول النورسي: «وحزنت حزنا شديدا ما لو كان لي الف عين، لكانت تسكب الدموع مدراراً»(٢٥).

بدأ النورسي يقضي ايامه في خرائب قديمة مهجورة علىٰ جبل «أرك» متعبدا متأملا. يسرد أحد تلاميذه المخلصين وهو الملا «حميد» ذكرياته عن استاذه النورسي، في هذه الفترة فيقول:

«كنت انشرح كثيرا عندما اصلى مقتديا بالاستاذ، كان قيامه للصلاة يزيد الانسان رهبة وخشوعا، وكان يرشدنا الى ان التسبيحات والاذكار عقب الصلاة انما هي بحكم نوى للصلاة وبذورها، وكان يسبّح ويذكر الله بصوت رخيم حزين، فعندما يقول: سبحان الله.. سبحان الله، كنا نسمعه يصدر على مهل من اعماق قلبه.

انني شخصيا لم ار مثل الاستاذ قط من يصلي ثم يسبّح بهذا الخشوع والحزن، مع انني رأيت كثيرا من الشيوخ والعلماء.

وعندما كان يقول: «لا إله الاّ الله» ويبدأ بالتسبيحات ويستمر بها يصبح صوته كفرقعة المدافع في قوته وشدته»(٢٦).

وبينما كان النورسي مشغولا بتصفية نفسه وتربية روحه، تمهيدا لتفكر جدى في طريق الخلاص، إذ دعاه الشيخ «سعيد پيران» للاشتراك في

---

(٢٥) اللمعات ص٣٧٩

(٢٦) ذكريات عن سعيد النورسي – ترجمة اسيد احسان قاسم ص١٠

ثورته المسلحة ضد حكومة «آنقرة» تعبيرا عن السخط والنقمة التي بدأت تسري بين اوساط الشعب للاتجاه الحكومي المعادي للدين، فرفض النورسي رفضا قاطعا وأجاب الشيخ «پيران» برسالة جاء فيها:

«... نحن مسلمون. والاتراك اخواننا، فلا تجعلوا الاخ يقاتل اخاه. فهذا لا يجوز شرعا، إن السيف لا يشهر إلا بوجه الاعداء الخارجيين، ولا يستعمل السيف في الداخل. إن السبيل الوحيد امامنا للخلاص في هذا الزمان، هو القيام بارشاد الناس الى حقائق القرآن والى حقائق الايمان، والقيام بمكافحة الجهل الذي هو اكبر اعدائنا. لذا ارى ان تصرفوا النظر عن محاولتكم هذه لانها محكومة بالاخفاق، إذ سيهلك الآلاف من الرجال والنساء بسبب حفنة من القتلة والمجرمين»(٢٧).

وبعد اخفاق ثورة «الشيخ سعيد» والقضاء عليها بقسوة عسكرية متناهية، القت الحكومة التركية القبض على كثير من رؤوساء العشائر الكردية والمشايخ، حتى الذين لم تكن لهم أية علاقة بتلك الثورة. من هؤلاء الاستاذ النورسي الذي لم تكن الحكومة لتطمئن الى وجوده طليقا فارسلت ثلة من الجند اعتقلته ونقلته مع المنفيين في حالة مأساوية في برد الشتاء القارس الى اسطنبول، ومنها الى «بوردور» ومنها الى اسپارطة، ومنها الى قرية نائية تسمى «بارلا» فوق سلسلة من جبال على امتداد طوروس، وقد اعتقد الحكام يومئذ انهم بنفيهم الأستاذ قد قضوا عليه وعلى طاقاته في قيادة حركة مقاومة الالحاد والاستبداد ومحاربة الاسلام، لكنهم كانوا مخطئين، إذ غدت هذه المنطقة النائية مصدر اشعاع كبير

(٢٧) سعيد النورسى رجل القدر ص ١١ عن Bilinmeyen taraflariyle B. 253 -255 S. Nursi (بديع الزمان سعيد النورسى وجوانب مجهولة من حياته) نجم الدين شاهين أر

للاسلام، ففيها كتب الاستاذ النورسي رسائله العظيمة في بيان حقائق الاسلام، ومحاربة التيارات الملحدة والمشككة، ودعوة المسلمين الى المحافظة على عقيدتهم واسلامهم.

ولقد تسربت هذه الرسائل التي سماها بـ «رسائل النور» بطرق مدهشة عبر قنوات كثيرة، علىٰ الرغم من مراقبة السلطات الشديدة المستمرة، واستنسخت منها باليد مئات الالوف من النسخ. اشترك في كتابتها الرجال والنساء وانتشرت من اقصى تركيا الى اقصاها، فنبهت الناس الى حقيقة الايمان وقضية الاسلام وانقذت الكثيرين من المخطط الفكري الالحادي الرهيب لفصل المسلمين عن عقيدتهم وحضارتهم والذي شن علىٰ الاسلام وأهله بذكاء وتخطيط اشترك فيها أجهزة الاعلام اللادينية كلها(٢٨).

وفي سنة ١٩٣٢م صدرت الاوامر بمنع الأذان باللغة العربية، ولم ينفذ الاستاذ وجمع من تلامذته معه هذا القرار، فكانوا يؤذنون في داخل المسجد باللغة العربية، فاكتشفت السلطات هذا، فنقلت النورسي على أثره الى «اسپارطة» (١٩٣٤) حيث ظل هنالك اشهراً يؤلف رسائل النور.

وفي ٢٥نيسان١٩٣٥م شنت اعتقالات واسعة بين طلبته شملت النورسي نفسه، ووضعت القيود الحديدية في معصمه وفي معاصم تلاميذه ثم حشروا في «لوريات» لنقلهم الى سجن «اسكي شهر».

كانت التهمة خطيرة، لا جزاء لها إلاّ الاعدام لو ثبتت صحتها، فقد كانت الحكومة تتهم «النورسي» بانه يقوم بتأليف جمعية سرية، وان هذه الجمعية تعمل علىٰ هدم أسس الدولة والثورة الكمالية، واحيلت القضية الى محكمة الجنايات لمدينة «اسكي شهر»، ووجهت اليه التهم الآتية:

---

(٢٨) سعيد النورسي رجل القدر ص ١٣٤ وما بعدها

– القيام بتأليف جمعية سرية.

– السعي لهدم اسس الثورة الكمالية.

– تشكيل طريقة صوفية.

– نشر رسالة «الحجاب» التي تدعو الى حشمة النساء وتسترهن(٢٩).

وقد القى الاستاذ دفاعا مشهورا امام المحكمة، نقتطف منه ما يأتي:

«لقد جئ بي الى هنا بتهمة انني شخص رجعي، اتخذ الدين سبيلا الى الاخلال بالامن العام. وانني اقول لكم: إن امكانية عمل شئ لا يستدعى وقوعه ولا المعاتبة عليه. فعود الكبريت يمكنه احراق بيت ولكن هذا الامكان لا يعنى ارتكاب اي جريمة».

«وان ولاة الامور انما ينظرون الى اليد لا الى القلب. وهناك في كل قطر وفي كل مكان معارضون شديدون للحكومة لا يتدخلون في شؤون الادارة والأمن. حتى انه في عهد سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يمسّ النصارى بشئ مع انهم كانوا ينكرون الاسلام وقوانين الشريعة».

«وعلى هذا واستناداً الى مبدأ حرية الفكر والوجدان، اذا كان بعض طلاب النور يرفضون نظمكم ومبادءكم، وينتقدونها على اساس علمي نقداً بناءاً، او إن صدرت منهم اعمال وتصرفات لا تتفق وتلك المبادئ، بما في ذلك اضمار العداء لأولى الأمر، فليس من حق القانون ان يحاسبهم على ذلك بشرط واحد وهو: ان لايتدخلوا في الشؤون الادارية، والاّ يخلّو بالأمن والنظام».

(٢٩) بديع الزمان سعيد النورسى حياته واثاره احسان قاسم الصالحي ص ٨٠ – ٨١

« لقد تساءلتم، هل انا ممن يشتغل بالطرق الصوفية؟ وانني اقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر انقاذ الايمان، لا حفظ الطريقة »..

« إن كثيرين يدخلون الجنة بغير الانتماء الى طريقة صوفية، ولكن احدا لا يدخل الجنة بغير ايمان ».

« وتقولون: من اين تأتي بالمال لجمع الناس من حولك في جمعية، وانني اسأل هؤلاء؟ ومن اين لهم الوثائق التي اثبتوا بها انني اشتغلت بجميعة او قمت باي نشاط يحتاج الى المال؟ »

« وتسألون من اين تعيش؟

أقول: إن معارفي المقربين من اهالي « بارلا » الذي بقيت فيها ما يقارب التسع سنوات يعلمون ان مصاريفي اليومية لم تكن تتجاوز المائة پارة « فلس » وفي احيان اخرى كانت اقل من ذلك، وذلك بفضل الاقتصاد الشديد، وببركة الالتزام بكنز القناعة التامة، حتى إن مصاريفى في اللبس والحذاء طوال سبع سنوات لم تتجاوز السبع ليرات. ثم ان كتاب سيرة حياتي الموجود لديكم يشهد بانني استنكفت من قبول اية هدية او صدقة من الناس، بل كنت ارد ولا اقبل حتى هدايا اخلص اصدقائي وإن ادى ذلك الى كسر خاطرهم وتألمهم.

وان اضطررت الى قبول هدية فانني اعطي مقابلها لا محالة، ومعارفى يعلمون ذلك. ولقد قمت بصرف معظم الذي كنت قد قبضته في اثناء خدمتي في « دار الحكمة الاسلامية » في طبع الكتب التي الفتها انذاك والجزء القليل منه ادخرته للحج. وهذا الجزء القليل من المال كفاني ببركة الاقتصاد والقناعة، طوال عشر سنين، ولم يدفعني الى اراقة ماء الوجه، ولا تزال هناك من ذلك المال المبارك بقية ».

«وتعترضون قائلين: انني لست موظفا فيما اعمل فيه، وللتدريس مديرية خاصة، ينبغي ان اتلقى منها الإذن اولا!! ولكن اقول لكم، لو ان ابواب القبور كلها اغلقت واعدم الموت من الوجود لجاز ان ينحصر الاذن في دائرتكم. اما وان ثلاثين الف جنازة تنادى كل يوم نداء الموت وتوقع على حكمه، فان هذا يعنى ان ثمة وظائف وواجبات اخرى اهم كثيرا مما انحصر في دائرتكم واحكامكم»(٣٠).

وبعد ان قضى بديع الزمان هذه المدة في سجن «اسكي شهر» نفي الى مدينة «قسطموني» سنة ١٩٣٦م دون أي مستند قانوني، فبقي فيها تحت الاقامة الاجبارية في بيت، مقابل مركز للشرطة سبع سنوات، مستمرا في كتابة رسائل النور التي انتشرت بسرعة فائقة في كل مدينة وقرية في انحاء تركيا. ولقد كان انتشار هذه الرسائل مصدر أزعاج كبير للدولة، ولذلك فان «النورسي» قد قضى معظم حياته ينتقل من محكمة الى محكمة ومن سجن الى سجن وكان يلقي في كل مرة أمام المحاكم دفاعا بليغا منطقيا مسندا بالأدلة الدامغة، عارضا مأساة الاسلام والمسلمين بكل قوة وشجاعة.

وفيما يلي مقاطع لدفاع مشهور له أمام محكمة «دنيزلي» التي أتهم أمامها بتأليف جمعية دينية سرية وتحريض الشعب على الحكومة اللادينية وقلب نظام الحكم!.

«اجل نحن جمعية، تلك الجمعية التي لها ثلاثمائة وخمسون مليوناً من الاعضاء في كل عصر. وهم يؤكدون كمال احترامهم وصادق ارتباطهم وتعلقهم بمبادئ تلك الجمعية المقدسة — باقامة الصلاة — خمس مرات

(٣٠) Tarihçe-i Hayat (سيرة ذاتية)، والفكر والقلب للدكتور البوطى ص ٣٢٢ – ٣٢٣

يومياً، ويتسابقون في مدّ يد العون والمساعدة بعضهم الى بعض، سواء بدعواتهم الشخصية عن ظهر الغيب، ام بمكاسبهم المعنوية الوفيرة وفق الدستور الإلهي: ﴿ إنّما المؤمنون أخوةٌ ﴾(الحجرات:١٠).

وهكذا فنحن اعضاء في تلك الجمعية المقدسة العظمى اذاً، اما وظيفتنا ضمن نطاق هذه الجمعية فهي: تبليغ الحقائق الايمانية التى يتضمنها القرآن الكريم الى طلاب الحق والايمان على اصح وانزه وجه، انقاذاً لأنفسنا واياهم من الاعدام الابدي وبرزخ السجن الانفرادي السرمدي.

اما الجمعيات الدنيوية المؤسسة على الدسائس والاحابيل السياسية فلا علاقة لنا بها من قريب او بعيد بل نترفع عنها»(٣١).

ويقول في مكان آخر من ذلك الدفاع التاريخي المجيد:

«لقد قرأ عشرون ألف فرد عشرين الف نسخة من رسائل النور في ظرف عشرين سنة، ورضوا بها وتقبلوها. ومع ذلك لم تقع حادثة واحدة مخلة بالأمن من قبل طلاب رسائل النور. ولم تسجل المراجع الرسمية اية حادثة من هذا القبيل، كما لم تستطع المحكمة السابقة ولا المحكمة الحالية العثور على مثل هذه الحادثة، علماً بان نتائج مثل هذه الدعاية القوية والمنتشرة بكثرة كان لابد لها من الظهور في ظرف عشرين يوماً بشكل حوادث ووقائع.

اذن فان القانون رقم (١٦٣) ليس إلاّ غطاء كاذباً وزائفاً يشهر ضد حرية الضمير وحرية الوجدان والعقيدة، وقانوناً مطاطاً يراد منه ان يشمل كل المتدينين وكل الناصحين والدعاة، ولا يريد اهل الالحاد والزندقة الاّ القيام باستغفال بعض المسؤولين الحكوميين لضربنا وتحطيمنا.

(٣١) الشعاعات ص ٣٦٨

وما دامت هذه هي الحقيقة فاننا نصرخ بكل قوتنا:

ايها البائسون الذين سقطوا في درك الكفر المطلق.. يامن بعتم دينكم بدنياكم!.. اعملوا كل ما تستطيعون عمله، ولتكن دنياكم وبالاً عليكم.. وستكون.. اما نحن فقد وضعنا رؤوسنا فداءً للحقيقة القدسية التي تفتديها مئات الملايين من الابطال برؤوسهم.. فنحن متهيأون وجاهزون لاستقبال كل انواع عقوباتكم .. بل حتى اعدامكم.

ان وضعنا وحالنا خارج السجن – تحت هذه الظروف – أسوأ مائة مرة من حالنا داخله، ولايبقى بعد هذا الاستبداد المطلق الموجه الينا اي نوع من انواع الحرية.. لا الحرية العلمية ولا الحرية الوجدانية ولا الحرية الدينية.. اي لايبقى امام اهل الشهامة واهل الديانة وامام مناصري الحرية ومحبيها من سبيل الا الموت او الدخول الى السجن.

اما نحن فلا يسعنا الا ان نقول: ﴿ **إنا لله وانا اليه راجعون** ﴾ ونعتصم بربنا ونلوذ به»[٣٢].

«أما اذا خلتم الالحاد ضرباً من متطلبات السياسة وزعمتم كما يزعم البعض: انك برسائلك هذه تفسد علينا مدنيتنا وتحول دون تمتعنا بمباهج الحياة وملذاتها.

فأنا اقول: انه لا يمكن لأي شعب أن يعيش بلا دين وهذا دستور عام، معترف به في الدنيا كلها. ولا سيما ان كان هناك كفراً مطلقاً فانه يسبب لصاحبه عذاباً اشد ايلاماً من عذاب جهنم في الدنيا نفسها. كما اثبت ذلك بادلة وبراهين لا تقبل المناقشة في رسالة «مرشد الشباب»، تلك

(٣٢) الشعاعات ص ٣٣١.

الرسالة المطبوعة رسمياً، اذ لو ارتد مسلم – والعياذ بالله – فانه يقع في الكفر المطلق، ولن يبق في الكفر المشكوك الذي يمهل الحياة لصاحبه الى حد ما. ولا يكون كملاحدة الاجانب ايضاً. بل من حيث التمتع بملذات الحياة التي قد يتصورها، لا يكون حظه من ذلك سوى الهبوط الى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوانات بمائة مرة التي لامعنى للماضي والمستقبل لديها. وذلك لأن موت الموجودات السابقة واللاحقة وفراقها الابدي، يترك في نفسه آلاماً مستمرة متعاقبة بسبب ضلاله.

أما اذا جاء الايمان ولامس بشاشة القلب وتمكّن فيه، فان اولئك الاصدقاء الذين لا يحصيهم العد سيحيون فجأةً ويقولون بلسان حالهم: نحن لم نمت.. ولم نفنَ..! وحينئذٍ تنقلب تلك الحالة الجهنمية الى لذائذ فيحاء وروضة غناء.

فما دامت الحقيقية هي هذه، فانني اذكّركم بالآتي:

لا تبارزوا مع رسائل النور المستند الى القرآن الكريم فانها لا تُغلب. وإلاّ سيكون امر هذه البلاد مؤسفاً اذا ما حاول احد طمس نورها وسوف تذهب الى مكان آخر، وتنور ايضاً.

ألا فلتعلموا جيدا، بانه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفصل في كل يوم واحد عن جسدي، فلن احني هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن اتخلى بحال من الاحوال عن هذه الخدمة الايمانية النورية، ولا يسعنى التخلى عنها»(٣٣).

وبعد هذا الدفاع الشجاع المجيد اصدرت المحكمة قرارها بتبرئة الاستاذ النورسي وجميع طلابه، مع مصادقة محكمة التمييز، غير ان السلطات

(٣٣) الشعاعات ص ٤٠٩.

الحاكمة لم تطلق سراحه، بل اتت التعليمات من انقرة بنفيه الى بلدة «اميرداغ» في ولاية «أفيون»، سنة ١٩٤٤م. وبدأت كالعادة مضايقات السلطات الحكومية له، بصورة لم يسبق لها مثيل، حتى حاولوا تسميمه، فقضى الاستاذ النورسي اياماً على فراش المرض يعاني من آلام شديدة، وكان قد تجاوز السبعين من عمره، وفوق كل ذلك فقد منعوه من أداء الصلاة في المسجد القريب حتى لا يختلط بالناس(٣٤).

ولما رأت السلطات ان رسائل النور بدأت بالانتشار في تركيا من اقصاها الى اقصاها، وبين افراد طبقات الشعب المسلم كلها، بدأت بتلفيق التهم السابقة ذاتها، فوجهت الى الاستاذ وطلابه تهمة تأليف جمعية سياسية ونشر افكار معادية لأفكار النظام القائم والجرى وراء غاية سياسية محددة، واطلاق صفة الدجال على «مصطفى كمال» فصدرت الاوامر تبعا لذلك بالقاء القبض عليه وعلى جمع من تلامذته الاقربين في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٨م. فيتعرضون مرة اخرى الى معاملة السجانين القاسية، ولاسيما الاستاذ حيث يوضع في زنزانة عارية، دون تدفئة في ظروف الشتاء القارس لمدة عشرين شهرا، منفردا، ويدس له السم مرة اخرى في طعامه فيتعرض الى آلام شديدة. ومع ذلك، فلا يكف عن تأليف رسائل النور وتهريبها من السجن الى تلامذته ثم الى خارج السجن.

وفي هذا السجن – كما في السجون السابقة – تاب كثير من المجرمين كان بينهم بعض من حكم عليهم بالاعدام لارتكابهم جرائم القتل، مثل السجين طاهر الملقب بـ «القصاب» الذي كان يخشاه المسجونون، فقد

(٣٤) سعيد النورسي رجل القدر ص ٢٢٣.

كان ضخم الجثة قوى الجسم متهورا، وبعد زيارة واحدة للاستاذ في غرفته تبدل تماما وبشكل اثار دهشة الجميع من مسجونين وحراس ومسؤولي السجن، فقد غدا شخصا وديعا، لا يؤذي احدا، يؤدي الصلاة في اوقاتها، قليل الكلام، محبا لطلاب النور(٣٥).

وفي يوم المحكمة القى الاستاذ النورسي – كعادته – دفاعا مجيدا شجاعا. كدفاعاته السابقة، نورد هنا بعض الفقرات منه:

قال وهو يرد تهمة قيامه بتأليف جمعية سرية لتقويض نظام الحكم:

« ان هناك ثلاث مواد توهم بوجود جمعية سياسية لا علاقة لنا بها اصلاً، هى التى خدعت هؤلاء الظلمة.

اولاها: العلاقة الوطيدة التى تربط طلابى منذ السابق، قد اوحت لهم وجود جمعية.

الثانية: ان بعضاً من طلاب رسائل النور يعملون باسلوب جماعى كما هو لدى الجماعات الاسلامية الموجودة فى كل مكان والتى تسمح بها قوانين الجمهورية ولاتتعرض لها؛ لذا ظن البعض فيهم انهم جمعية، والحال ان نية اولئك الافراد القليلين ليس تشكيل جمعية او ماشابهها، بل هى اخوة خالصة وترابط وثيق اخروي بحت.

الثالثة: ان اولئك الظلمة يعرفون انفسهم انهم قد غرقوا فى عبادة الدنيا وضلوا ضلالاً بعيداً ووجدوا بعض قوانين الحكومة منسجمة معهم، لذا يقولون مايدور فى ذهنهم: ان سعيداً ورفقاءه معارضون لنا ولقوانين الحكومة التي تساير اهواءنا، فهم اذن جمعية سياسية »(٣٦).

---

(٣٥) نفسه ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

(٣٦) الشعاعات ص ٤٣٥.

ويرد على الاتهام الموجه اليه من انه يشبه « مصطفى كمال » بالدجال فيقول: « إن المدعي العام يطبق مسألة او مسألتين من « الشعاع الخامس » علىٰ زعيم قد مات وانتهى أمره، ليتخذ من ذلك ذريعة لمهاجمتنا واظهارنا في مظهر المذنب، وجوابنا على ذلك:

ليس لأى قانون ان يطبق نقدا ذا طابع كلي، علىٰ شخص قد مات وانقطعت بذلك علاقته عن الحكم. فلا معنى إذن لافتعال اسباب واهية لعد ذلك النقد ذنبا يستدعي اللوم او جريرة تستدعي العقاب.

وكما قام ذلك المدعي العام البعيد عن الانصاف باتهامي لكوني لا احبَ ذلك الشخص ذا العيوب الكثيرة، الى درجة انه وضعني موضع الخائن للوطن، فانني اتهمه ايضاً بعدم حبه للجيش، ذلك لانه عندما يعطي الى صديقه ذاك كل الشرف وكل المغانم المعنوية فانه يكون بذلك قد جرد الجيش من الشرف، بينما الحقيقة هي وجوب توزيع الامور الايجابية والحسنات والافضال على الجماعة وعلى الجيش، اما الامور السلبية والتقصيرات والتخريبات فيجب توجيهها الى القيادة والى الرأس المدبر والى الممسك بزمام الامور. ذلك لان وجود اي شئ لايتحقق الا بتحقق جميع شرائط واركان الوجود، والقائد هنا شرط واحد فقط من هذه الشروط. اما انتفاء اي شئ وفساده فيكفي له عدم وجود شرط واحد او فساد ركن واحد فقط. لذا يمكن عزو ذلك الفساد الى الرأس المدبر والى الرئيس لان الحسنات والامور الجيدة تكون عادة ايجابية ووجودية. فلايمكن حصرها على من هم في رأس الدولة. بينما السيئات والتقصيرات عدمية وتخريبية ويكون الرؤساء هم المسؤولون عنها. ومادام هذا هو الحق وهو الحقيقة فكيف يمكن ان يقال لرئيس عشيرة قامت بفتوحات:

«احسنت ياحسن آغا»؟ واذا غُلبت تلك العشيرة وجهت الى افرادها الاهانة والتحقير؟.. ان مثل هذا التصرف يكون مجانباً للحق تماماً ومعاكساً له.

وهكذا فان ذلك المدعي العام الذي قام باتهامي قد جانب الحق والحقيقة وجانب الصواب، ومع ذلك فهو بزعمه قد حكم باسم العدالة»(٣٧).

« وياترى اي ذنب واي جريرة في ان تنتقد او تضمر عدم المحبة لرجل حوّل جامع اياصوفيا الذي هو مبعث الشرف الابدى لأمة بطلة، والدرة الساطعة لخدماتها وجهادها في سبيل القرآن، وهدية تذكارية نفيسة من هدايا سيوف اجدادها البسلاء.. حوّله الى دار للاصنام وبيت للاوثان وجعل مقر المشيخة العامة ثانوية للبنات؟»(٣٨).

«والواقع انه بالرغم من حياة الاسر والتشرد التي عشتها خلال هذه السنوات العشرين ، والتي ذقت فيها الواناً من العذاب، وتعرضت لأقسى وأشنع اساليب الظلم والاستبداد، ومع ان هناك مئات الالوف من اخواني النوريين الاوفياء، فاننا لم نتدخل في الامور السياسية ولم تُسجّل حادثة واحدة تدل على تعرضنا للأمن او اخلالنا بالنظام.

ان ما اتعرض له في اخريات ايامي هذه، من الاهانات المتكررة والمعاملات الظالمة التي اقابل بها، وحياة الاغتراب والتشرد التي اعيشها والتى لم أر مثلها من قبل جعلني املّ الحياة.. انني سئمت الحرية المقيدة، تلك الحرية التي يحدها التحكم ويعقلها الجور والاستبداد. لقد رفعت

(٣٧) الشعاعات ص ٤٢١.
(٣٨) الشعاعات ص ٤٨٨.

اليكم طلباً لا لإطلاق سراحي وتخفيف عقابي وإبراء ساحتي، كما هو المألوف، بل لإنزال أشد العقاب بي واقساه، نعم أشده وأقساه لا أخفه وأهونه، ذلك لانه لا سبيل للتخلص من مثل هذه المعاملة العجيبة المنكرة سوى احد امرين: السجن او القبر. إن الطريق الى القبرمسدود امامي لا استطيع الحصول عليه لأن الإنتحار محظور شرعاً، ثم ان الاجل سر خفي ، لا يدرك الانسان كنهه بلْهَ عن ان تطوله يداه، لذا فقد رضيت بالسجن الذي انا رهين اعتقاله وتجريده منذ حوالى ستة اشهر».(٣٩)

ثم يرد على تهمة الانتماء الى الجمعيات فيقول:

«ان رسائل النور البالغ عددها مائة وثلاثين رسالة، موجودة كلها في متناول اليد وامام الانظار، وقد اقتنعت محكمة «اسكي شهر» بانه لايوجد في رسائل النور اي هدف آخر واية غاية دنيوية عدا حقائق الايمان، لذا لم تتعرض إلا لرسالة واحدة او لرسالتين. اما محكمة «دنيزلي» فلم تتعرض لاية رسالة، كما ان جهاز الامن الضخم في «قسطموني» بالرغم من قيامه بالترصد والمراقبة الدائمة طوال ثمانية اعوام لم تجد من تتهمه سوى شخصين كانا يعاونانني في شؤوني وثلاثة اشخاص آخرين باسباب واهية، وهذا حجة قاطعة بان طلاب النور لايشكلون باي حال من الاحوال جمعية سياسية. اما ان كان مفهوم الجمعية عند الادعاء العام هو جماعة ايمانية تعمل لآخرتها. فاننا نقول جواباً له: لو قمتم باطلاق تسمية الجمعية على طلاب دار الفنون – الجامعة – وعلى اصحاب كل مهنة من المهن عند ذاك يمكن اطلاق اسم الجمعية – بهذا المفهوم – علينا. اما ان كان المقصود هو جماعة تقوم بالاخلال

(٣٩) الشعاعات ص ٤٦٨.

بالامن الداخلي ببواعث دينية فاننا نرد على ذلك بان عدم تورط طلاب النور طوال عشرين سنة باية حادثة مخلة بالامن الداخلي في اي مكان، وعدم تسنجيل اي شئ ضدهم في هذا الخصوص لامن قبل الحكومة ولامن قبل المحاكم، لدليل ساطع على بطلان هذه التهمة. اما ان كنتم تتوهمون ان تقوية المشاعر الدينية ستؤدي في المستقبل الى الاخلال بالامن الداخلي وان هذا هو ما تقصدونه من توجيه تهمة الجمعية الينا فاننا نقول:

اولاً : ان جميع الوعاظ (وعلى رأسهم رئاسة الشؤون الدينية) يؤدون الخدمات نفسها.

ثانياً: ان طلبة النور ليسوا بعيدين فقط عن الاضرار بالامن والاخلال بالاستقرار بل انهم يعملون بكل قواهم وبكل قناعاتهم لحفظ الامة من الفوضى والفتن ويحاولون بكل جهدهم تأمين الاستقرار والامن، والدليل على هذا هو ما جاء في الاساس الاول اعلاه.

اجل! نحن جماعة هدفنا وبرنامجنا انقاذ انفسنا اولاً ثم انقاذ امتنا من الاعدام الابدي ومن السجن البرزخي الانفرادي المؤبد ووقاية مواطنينا من حياة الفوضى والسفاهة ومحافظة انفسنا (بالحقائق القوية الفولاذية الواردة في رسائل النور) من الالحاد الذي يروم القضاء على حياتنا في الدنيا وفي الآخرة»(٤٠).

«انى اعلن لكم بصراحة تامة ان محاولة إلصاق تهمة الانتماء الى التكتلات والتجمعات والتدخل في الشؤون الداخلية، الى طلبة النور الذين لاعلاقة لهم بايّ وجه بالتحزب والتجمع والتكتلات والتيارات

(٤٠) الشعاعات ص ٤٢٧.

السياسية المختلفة، ماهي الاّ من وحي منظمة الزندقة المتسترة التي تعمل منذ اربعين سنة على هدم الاسلام ومحو الايمان، خادمة بذلك لنوع من البلشفية والتى سبّبت - هذه المنظمة - في تغذية روح التطرف والفوضى في هذه البلاد، سواء بعلم او بغير علم، واتخذت موقفاً مضاداً تجاهنا.

بيد ان ثلاث محاكم مختلفة قد اتفقت على تبرئة ساحة رسائل النور وطلبتها من تهمة الانتماء الى التكتلات، سوى محكمة واحدة، وهي محكمة «اسكى شهر» حيث حكمت عليّ بالسجن لمدة عام واحد، ولمدة ستة اشهر على خمسة عشرة من اخواني من مجموع مائة وعشرين شخصا. ولعل الذي دفع محكمة «اسكي شهر» الى اتخاذ ذلك القرار يعود الى ورود فقرة كُتبت قديماً جاءت ضمن رسالة صغيرة تتعلق بمسألة واحدة وهي «الحجاب» وكان نص تلك الفقرة كما يأتي :

«لقد طرق سمعنا: ان صباغ أحذية قد تعرض لزوجة رجل ذي منصب دنيوي كبير، كانت مكشوفة المفاتن، وراودها نهاراً جهاراً في قلب العاصمة «انقرة»! أليس هذا الفعل الشنيع صفعة قوية على وجوه اولئك الذين لا يعرفون معنى الحياء من اعداء العفة والحجاب؟»

واذاً فان اصطناع الاسباب الواهية والاتهامات الباطلة ضد طلبة رسائل النور الآن، إن هو الاّ بمثابة الحكم ضد تلك المحاكم الثلاث، ومحاولة لإلصاق التهمة بها ووصمها بوصمة الخيانة والعار»(٤١).

«لا يمكن المبارزة مع رسائل النور.. فقد اتفقت كلمة علماء الاسلام الذين اطلعوا عليها انها تفسير قيم صادق للقرآن الكريم، اي انها تنطوى

---

(٤١) الشعاعات ص ٤٦٩.

على براهين دامغة لحقائقه الناصعة وهي معجزة معنوية من معجزات القرآن في هذا العصر، وسد منيع امام الاخطار والمهالك التي تتربص بهذه البلاد وبهذه الامة من الشمال.

فالواجب يقتضي من حيث الحقوق العامة ان تعمل محكمتكم الموقرة على الترغيب في هذه الرسائل بدلاً من تخويف طلابها وترغيبهم عنها، هذا ما نعلمه، بل ننتظره منكم.

ومن المعلوم ان عدم التعرض لكتب الملاحدة وبعض الساسة المتزندقين ومجلاتهم وجرائدهم – مع ضررها الفادح للأمة والبلاد والأمن العام – تحت ستار الحرية العلمية، يدفعنا حتماً الى القول والتساؤل: ما الجانب المحظور من التحاق شاب برئ يحتاج الى العون والمساعدة الى صفوف طلبة النور، كي ينقذ ايمانه وينجو من التردى في هاوية الاخلاق الذميمة؟ أفليس من الحكمة والعدل والواجب ان تحتضن الحكومة ووزارة المعارف (التربية) هذا العمل وتشجعه وتقدره حق قدره بدلاً من ان تعمل على مكافحته وعلى ملاحقتنا دون سبب؟

كلمتي الاخيرة: نسأل الله ان يوفق الحكام الى احقاق الحق واقرار العدل.. آمين»[٤٢].

أما حول العلمانية فنقتطف ما يلي:

«اما ان كان سؤالكم حول الجمهورية العلمانية فان ما اعلمه هو ان معنى العلمانية هو البقاء على الحياد، فكما لاتتعرض مثل هذه الحكومة للملحدين ولاهل السفاهة بحجة حرية الضمير فيجب الا تتعرض لاهل

(٤٢) الشعاعات ص ٤٧٠.

الدين ولاهل التقوى . وانني الآن لا اعلم الاوضاع السياسية والاحوال التي تعيش فيها الحكومة الجمهورية لانني قد اعتزلت الحياة الاجتماعية منذ خمس وعشرين سنة، فان كانت قد دخلت في مرحلة مرعبة ومذهلة من العمل لحساب الملاحدة وبدأت بسن القوانين التي تدين من يعمل لآخرته ولايمانه والعياذ بالله فاني اقول لكم دون خوف او خشية انه لو كان لي الف نفس لما ترددت في التضحية بها في سبيل ايماني وفي سبيل آخرتي واعملوا انتم مابدا لكم، وسيكون آخر كلامي ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾.

ولو قمتم باعدامي ظلماً او بسجني مع الاشغال الشاقة فانني سارد عليكم بقولي:

انني وبفضل ما كشفته رسائل النور بصورة قاطعة لن اعدم، بل اسّرح واذهب الى عالم النور والسعادة. اما انتم يا اعداءنا المتسترين والمتخفين الذين تسحقوننا لأجل الضلالة فاقول لكم بانني متهيئ لكي اسلم الروح باطمئنان وبراحة قلب. لانني اعلم وارى انه سيحكم عليكم بالاعدام الابدي وبالحبس الانفرادي المؤبد، لذا فان انتقامي منكم سيكون تاماً وكاملاً.

ثم انني موقن كل اليقين ولايخالجني ادنى شك في ان الموت بالنسبة لنا تسريح وتأشيرة دخول الى عالم الطمأنينة والسعادة. ولنا آلاف البراهين من رسائل النور على ذلك، وحتى ان كان الموت اعدماً ظاهرياً لنا فان مشقة ساعة من الزمان تتحول بالنسبة لنا الى سعادة ومفتاح للرحمة وفرصة عظيمة للانتقال الى عالم البقاء والخلود.

اما انتم يا اعداءنا المتسترين ويا اولئك الذين يضللون العدالة في سبيل ارضاء الزندقة ويتسببون في خلق الاوهام الزائفة في اذهان المسؤولين في الدولة لينشغلوا بنا دون داع او سبب.. اعلموا قطعاً، ولترتعد فرائصكم، انكم تحكمون على انفسكم بالاعدام الابدى وبالسجن الانفرادى الدائم. وان انتقامنا يؤخذ منكم اضعافاً مضاعفة، فها نحن اولاء نرى ذلك ونشفق عليكم. ولاشك ان حقيقة الموت التى ظلت تفرغ هذه المدنية مائة مرة الى المقابر، لابد ان تكون لها غاية ومطلب فوق غاية العيش والحياة. وان محاولة الخلاص من براثن ذلك الاعدام الابدى هى قضية فى مقدمة القضايا الانسانية ، بل هى من اهم الضروريات البشرية واشدها إلحاحاً»(٤٣).

وهكذا يستمر الاستاذ النورسي في عرض قضية التدين والالحاد، وتأثيرهما الايجابي والسلبي على الامة والحضارة، ولم ينس ان يدعو الحكام الى عدم الوقوف امام رسائل النور، لانها من فيض القرآن الكريم. ثم بين – ردا على اتهامات المحكمة – انه لم يرد في يوم من الايام مصلحة ذاتية. ولو اراد المناصب لاتته صاغرة، ولكنه توجه في حياته الى انقاذ ايمان شعب منكوب بسيطرة وتوجيه الزنادقة. ثم اعلن في نهاية دفاعه انه يستغفر لجميع اعدائه ويدعو لهم بالهداية، وان حكموا عليه بالاعدام.

ولقد استمرت المحكمة بعقد جلساتها مدة طويلة واصدرت اخيرا قرارها في ٦ كانون الاول سنة ١٩٤٨م على الاستاذ النورسي بالحبس لمدة عشرين شهرا، وعلى عشرين من طلبة النور بالحبس لمدة ستة اشهر وعلى تبرئة الباقين.

---

(٤٣) الشعاعات ص ٤٢٦.

ومع خروج الاستاذ من سجن «أفيون» إثر إعلان العفو في عشرين ايلول من سنة ١٩٤٩ بدأت مرحلة جديدة من حياته، سماها بمرحلة «سعيد الثالث».

وتتميز هذه المرحلة بانها جاءت استجابة للحياة السياسية الجديدة، التي جاءت الى الحكم بالحزب الديمقراطي المعارض لحزب «مصطفى كمال». والذي بدأ يخفف الحملة الوحشية التي شنت علىٰ الاسلام وأهله ربع قرن كامل، حيث سمح لاول مرة لرسائل النور بالطبع والانتشار وللنورسي بالتدريس الجماعي والحركة المقيدة المحددة بين المدن التركية.

ولقد بدأ تغير آخر يدخل حياة النورسي في هذه الفترة، وهو ارسال الرسائل الى السياسيين والى رجال الحكم ينصحهم فيها باتباع الشرع والاسترشاد بالاسلام الذي فيه الحل الصحيح لمشاكل الامة كلها. وعلى الرغم من انه لم يدخل دائرة النشاط السياسي، إلا انه ظل يرقبها من بعيد، ويوجه تلامذته الى الاخلاص في بناء الامة، ويلمح لهم ما يمكن ان يقوموا به في المستقبل عندما ينتشر الوعي الاسلامي الصحيح بين ابناء الامة، في ظل قاعدة التدرج، والأخذ بنظام الاولويات، الذي تسلم كل حلقة فيه الى الحلقة الاخرى، فتنتهي سلسلة الحلقات هذه الى اقامة النظام الاسلامي في المجتمع دون حاجة الى استعمال العنف ابتداء(٤٤).

وفي هذه الفترة سنة ١٩٥١م طبع طلبة النور رسالة «مرشد الشباب» بالكتابة التركية اللاتينية الجديدة، فجنّ جنون الجهات المعادية للاسلام، إذ وجدوا ان النورسي بدأ يغزو عقول الجيل الجديد الذي ظنوه قد خرج من الاسلام، لذا سرعان ما اقام اللادينيون دعوى ضد النورسي، متهمين اياه

(٤٤) سعيد النورسي رجل القدر ص ٢٥٢ وما بعدها.

بالاخلال بالمادة رقم (١٦٣) من الدستور التركي، وهي المادة التي تعاقب كل من يدعو الى اقامة الدولة علىٰ أسس دينية.

لذا فلقد شد الاستاذ، وهو في الثمانين من عمره، وفي الشتاء القارس الرحال الى اسطنبول، ليمثل امام المحكمة المختصة. وعقدت المحكمة جلستها الاولى، فالقى الاستاذ دفاعا بليغا، ذكر ان مهمته طول حياته كانت انقاذ الايمان وخدمة المسلمين، وقال إنه كان من الأجدر اظهار مشاعر الفرح والغبطة لقيام طلبة النور بطبع رسالة «مرشد الشباب» التي توجه الشباب الى الوقوف امام التيارات الهدامة التي تهز كيان المجتمع، لاسيما وباء الالحاد.

وفي الجلسة الثانية، وصل النورسي يحيط به تلامذته الى قاعة المحكمة بصعوبة بالغة، لان الالوف من الناس حضروا، وهم يملأون المحكمة وممراتها والشوارع المحيطة بها، حتى ان الازدحام كان شديدا وخانقا الى درجة استحال معه البدء بالمحاكمة، فتوجه رئيس المحكمة برجاء الى الحضور قائلا لهم:

إن كنتم تحبون الشيخ فافسحوا له المجال لكي يستطيع اجراء المحاكمة، حينئذ انسحب الكثيرون احتراما للاستاذ، وبدأت المحكمة واستمعت الى دفاع المحامين، واجّل الحكم الى الجلسة الثالثة التي فيها أصدرت المحكمة قرار براءة الاستاذ وصاحب المطبعة التي طبعت الرسالة. والغريب انه بعد ثماني سنوات من هذا التاريخ عاقب قادة الانقلاب العسكري في سنة ١٩٦٠م رئيس المحكمة الذي حكم ببراءة الاستاذ!!

ولم تخل حياة الاستاذ طوال الخمسينيات، حتى عام وفاته ١٩٦٠ من مضايقات مستمرة ومحاكمات ظالمة، وضجات مفتعلة ضده علىٰ

صفحات الصحف اللادينية والماسونية، ولكنه شق الطريق بكل قوة واصرار، يرشد تلامذته ويدرسهم في رسائل النور، ويشرف على طبع رسائله وكتبه حتى وفاته في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق للثالث والعشرين من آذار سنة ١٩٦٠م.

ومن الجدير بالذكر ان اللادينيين الحاقدين في السلطات الرسمية لاحقوه بطغيان عجيب، حتى اللحظة الاخيرة من حياته المباركة. ذلك لان الاستاذ النورسي – وهو في اسپارطة – اخبر تلامذته في ليلة الأحد، العشرين من شهر اذار ١٩٦٠م، انه عازم على السفر الى «اورفة» وطلب باصرار عجيب من تلامذته المناوبين على خدمته ان يحضروا سيارة، وهو في حالة مرضية شديدة، فاحضروها بسرعة، فاوصلوه الى تلك المدنية، عبر سفرة مرهقة ومعاناة شديدة، في شتاء قارس، فأُخبرت السلطات في انقرة. فصدرت اوامر مشددة الى السلطات الامنية في مدينة «اورفة» بارجاعه الى اسپارطة من فندقه الذي كان يعاني فيه سكرات الموت. وعلى الرغم من تقارير الاطباء القاطعة بعدم امكانية مغادرته، كانت البرقيات تتوالى من العاصمة بضرورة عودته الى اسپارطة.

ولقد تجمعت الوف من المثقفين والعلماء وأهالي اورفة امام الفندق، ينتظرون السلام على الاستاذ، ويستنكرون موقف السلطات المتعنت، ويبعثون ببرقيات تلو برقيات محتجين على هذه المعاملة الظالمة الحاقدة، لرجل لم يقدم لامته سوى الخير والنور.

ويتحدى مدير الامن كل هذه العواطف الجياشة فيصعد بنفسه الى غرفة الاستاذ ويطلب منه مغادرة المدينة فورا، بناء على توجيهات اللادينيين التي لاتعرف الرحمة، فيجيب النورسي:

«انني اعيش الدقائق الاخيرة من عمري، فانا راحل، وقد اتوفى هنا، ان واجبكم ان تقوموا بتهيئة الماء الساخن، لغسلي ميتا، بلغ رؤساءك بذلك».

وامام كلماته الحزينة التي تفجر كل دواعي الخير في النفس الانسانية، ينكس مدير الامن رأسه، ويعود قافلا هو وافراد شرطته متأثرا بذلك الموقف تأثرا عميقا.

وفي ذلك المساء الحزين، وعلى الرغم من حرارته المرتفعة، وعلى غير عادته في السنوات الاخيرة من حياته، سمح لمئات الناس ان يدخلوا الى غرفته في الفندق، مسلمين عليه ومقبلين يده، يضمهم الى صدره الحنون ويدعو لهم، وكأن الله تعالى وهبه في تلك الساعات قوة هائلة.

وفي الساعة الثالثة، بعد منتصف الليل، بردت اوصاله واسلم روحه بهدوء كامل الى بارئه العظيم.

وانتشر الخبر في «اورفة» وما حولها من المدن القريبة والبعيدة فجاءت عشرات الالوف من كل مكان، للاشتراك في تشييع جنازة امامهم المجاهد، فحملوا نعشه الى المسجد الكبير. وبعد الصلاة عليه، دفنوه في الفناء الخارجي من جامع «خليل الرحمن» يوم الخميس ٢٤ آذار ١٩٦٠م.

ولم يترك اللادينيون النورسي يستريح في قبره، فقرروا بعد انقلاب عام ١٩٦٠م وبعد حوالى ستة اشهر من وفاته ان يخرجوه من قبره، فينقلوه الى مكان مجهول، فاجبروا اخاه الشيخ عبدالمجيد ان يرافقهم بالطائرة الى «اورفة» وهناك اخذوا ثلة من الجند في احدى الليالي، بعد اعلان منع تجول ليلي، فحفروا قبره وأخذوه الى ذلك المكان المجهول، رحمه الله تعالى رحمة واسعة(٤٥).

* * *

(٤٥) سعيد النورسى رجل القدر ص ٢٦٥ وما بعدها.

النورسي والسياسة

كثير من الذين لا يقرأون النورسي قراءة شمولية متفحصة، يقعون في خطأ كبير، إذ يبنون على قراءتهم المبتورة ان النورسي ترك السياسة العامة وانسحب من الحياة، ولم يهتم باخطر شؤون المسلمين، ولم يواجه الحكام بكلمة الحق والدفاع عن دين الله ورد كيد الاعداء في محاولتهم القضاء على الاسلام العظيم.

وقد ينخدعون بما قاله النورسي «اعوذ بالله من الشيطان والسياسة» او بما يقوله من انه قسّم حياته الى «سعيد القديم» و «سعيد الجديد» و «سعيد الثالث». وكل ذلك خطأ جسيم، وقلب للحقائق في حياة الرجل المجدد، والداعية الصادق.

نعم، ان النورسي لم يخالط الحكام، ولم يدخل في اتون السياسة الميكافيلية التي تجسد فيها التزلف والنفاق يومئذ، ولم يطلب الدنيا وبهرجتها؛ من المال والجاه والمنصب، والمصطلحات المتغيرة كل يوم.

فلعن تلك المظاهر مع ابليس واستعاذ منها، ولكنه مع ذلك دخل السياسة الحقيقية من اوسع ابوابها، ولم يترك الامة يعاني القهر وحدها في الميدان، ولم يلق سلاح فضح الزندقة القادمة، حيث واجه الكفر بالايمان والقانون الغربي بشريعة الاسلام، والمخطط العلماني بالمخطط الاسلامي.

نزل الى الميدان مدافعا عن دين الله، مجاهدا في سبيله، ضحى في سبيل انقاذ الايمان وايقاظ الامة بكل شئ، بالدنيا كلها راحةً ومالاً

ومنصباً، فنفى كما ينفى المجاهد الصلب، والداعية الثبت والعالم العامل، وسُجن وشُرد ولوحق، حتى آخر لحظة من لحظات حياته المثمرة المباركة، وهو على فراش الموت.

نعم غيرّ هو في شخصيته الى الافضل والاحسن، والاصلح والاتقى، كي يرتفع الى مستوى الولي الوارث للنبي ﷺ، حقا:

كان «سعيد القديم» يخالط الناس ويسمع ثرثرتهم، ويتحمل تفاهاتهم فانسحب منها «سعيد الجديد» كي يتفرغ الى نفسه، فيوجهها الى الله تعالى بالكلية.

كان سعيد القديم مغترا بمظاهر الدنيا، يتعمق في العلم، ويحب الثقافة ويقرأ الفلسفات. كي يثبت انه علاّمة الزمان، ومثقف العصر، وفيلسوف الدنيا، يظهر امام المجتمع في صورة المجادل العنيد. فعاد «سعيد الجديد» الى نفسه ليرى ان كل ذلك طريق الغرور، وسبيل الى بلبلة الفكر وضياع الشخصية وابتعاد عن منهج القرآن.

كان سعيد القديم، مع استقامته وزهده مضطرب الاحوال، يصارع امواج الدنيا الفانية، في ظلال بهرج الحياة في المدن الكبرى. فتحول سعيد الجديد الى مؤمن قوي فان في الله، ذائب في الكون، باحث عن الحقيقة الكلية، قائد للمسيرة الظافرة، يتحرك بقوة واصرار لانقاذ امته من الكفر المضيِّع والنفاق المشين والخواء المردى والشرود الغبي والفصام النكد.

كان سعيد القديم مفكراً لا حول له ولا قوة، لا يحسب له المتآمرون على الدين والوطن حسابا مخيفا، فدخل سعيد الجديد في بطن السياسة، قريبا من مآسيها، خائضا في مخاطرها، غير آبه بحريقها، قائدا حركيا

خطيرا، يقود الركب، وينقذ الايمان، ويهئ صفوف الدعاة ليوم المواجهة، يقض مضاجع الظالمين، ويزلزل دنياهم، ويتحول الى شبح مخيف، يلاحقهم حتى في احلامهم، يحسبون له حساب جيش عرمرم يزحف لانقاذ المواقع وإلحاق الهزيمة بصفوف الغافلين والمنافقين والملحدين والمتاجرين بالشعارات.

أبعد هذا كله يقال، ان سعيداً الجديد ترك السياسة؟

فان كنت في ريب من كل ذلك تعال لنقم بجولة ممتعة في رياض رسائل النور نتفحصها، لنجد ماذا يقول النورسي. وهل في شئ في السياسة والمواجهة الصامدة لم يقله، ولم يفعله، ولم يخطط لمواجهته.

● ينتقد الحكام بانهم يدفعون الامة الى هاوية المدنية الدنية فيقول: «ان كانت غايتكم من سَوق المؤمنين قسراً الى المدنية التي هي الدنيّة (اي بلا ميم) تسهيلاً لادارة دفة النظام وبسط الامن في ربوع المملكة، فاعلموا جيداً انكم على خطأ جسيم، اذ تسوقون الامة الى هاوية طريق فاسد. لان ادارة مائة من الفاسقين الفاسدين اخلاقياً والمرتابين في إعتقادهم وإيمانهم، وجعل الامن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعب بكثير من ادارة ألوف من الصالحين المتقين ونشر الأمن فيما بينهم» (٤٦).

● اللمعة الثانية والعشرون كلها سياسة وأجوبة عن اسئلة سياسية. كان يثيرها المسوؤلون او غيرهم عن عمله لاجل الاسلام وخدماته الايمانية لسعادة الامة. ويبين في هذه اللمعة استهانة الدولة ورجالها بالحق، وظلمهم للدعاة وكذبهم على الانسان وعدم تطبيقهم للقوانين التي

---

(٤٦) اللمعات ص١٨٨.

يصدرونها، ويصفهم بانهم طغاة متجبرون متكبرون، بلغوا الفرعونية في نقض القانون(٤٧).

• يصف الطاغية «في زمانه» بالمبتدع والملحد والمفسد والضال، والرؤساء الذين يأتمرون بامره بالمنافقين، ويقول: ان زمان التمسك بالهراوة لم يأت بعد، لانه مشغول بانقاذ الايمان واحداث الوعي أولا. وهذا واضح جدا في ما يقول ويخاطب، ولو لم يذكر الاسم مباشرة(٤٨).

• في اللمعة الثالثة عشرة، يجيب على سؤال حول الصراع بين أهل الضلالة وأهل الباطل، ولماذا يتغلب اهل الضلالة على اهل الحق. لا لأنهم اقوياء او يمتلكون قدرة اصيلة، وانما تغلبوا – وهو يقصد الوضع القائم يومذاك – لطريقتهم الفاسدة وسفالتهم ودناءتهم وعملهم التخريبي واغتنامهم اختلاف اهل الحق والقاء الخلافات فيما بينهم واستغلال نقاط الضعف فيهم والنفث فيها واثارة الغرائز الحيوانية والنفسانية والاغراض الشخصية عندهم واستخدامهم الاستعدادات المضرة التي هي كالمعادن الفاسدة الكامنة في سبيكة فطرة الانسان، والتربيت على فرعونية النفس باسم الشهرة والرتبة والنفوذ وخوف الناس من تخريباتهم الظالمة المدمرة. وامثال هذه الدسائس الشيطانية التي يتغلبون بها على أهل الحق تغلبا موقتا.

ولكن – يقول النورسي– هذا الانتصار الوقتي لا قيمة له، ولا اهمية له امام بشرى قوله تعالى ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾(٤٩).

(٣٧) الشعاعات ص ٤٢١.
(٤٨) اللمعات ص ١٥٨ – ١٥٩.
(٤٩) اللمعات ص ١٣٠.

• في اللمعة الرابعة، يدعو طوائف الامة الى الائتلاف، فيقول: «وان لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكما قويا، تستغل احدكما ضد الآخر وتستعمله أداة لإفناء الآخر»(٥٠).

• يتحدث في «الكلمات» عن رسائل النور ويقول: «فمن الضروري اذن للدولة ألا تتعرض لها بسوء، بل تسعى جادة الى نشرها وتشجيع الناس على قراءتها، ليكون عملها هذا كفارة عما اقترفت من سيئات فاحشة سابقة وسدا منيعا في وجه ما سيقبل من ويلات ومصائب وفوضى وارهاب»(٥١).

• يصرح بان القومية التي تتبناها الدولة سم قاتل ومرض اوربي خبيث. ويقول بان اوربا القت بذلك المرض الوبيل بين المسلمين، ويفرقهم شذر مذر، ليسهل عليها ابتلاعهم قطعا متناثرة. وبهذه المناسبة يشكو من تضييق الدولة عليه في مجالات كثيرة(٥٢).

• وفي المبحث الثالث من المكتوب السادس والعشرين هاجم الفكر القومي العلماني مهاجمة شديدة وبين جذوره الاوربية واخطاره الاجتماعية، ورفض – تلميحا – سياسة الحكومة التركية تجاه الاكراد في الشرق وتجاه العرب في الجنوب(٥٣).

• يصرح بان المسؤولين في الدولة يعذبونه ارضاء للزندقة(٥٤).

(٥٠) اللمعات ص ٣٨.
(٥١) اللمعات ص ١٧٤.
(٥٢) المكتوبات سعيد النورسى – ترجمة احسان قاسم الصالحى ص ٧٩ وما بعدها.
(٥٣) المكتوبات ص ٤١٥.
(٥٤) المكتوبات ص ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧.

• لقد اعتدت السلطات على المسجد الذي كان يصلي فيه. فقال جوابا على سؤال سائل: ان ماهية تلك الحادثة دسيسة شيطانية، وتعرض نفاقي في سبيل ارضاء الزندقة التي كانت الدولة تتبناها.

• يقول النورسي: «وها انذا لا اخاطب هؤلاء السفلة الدنيئين الذين حرموا من الضمر وليسوا اهلا للخطاب، بل اخاطب اولئك الرؤساء المتفرعنين في القيادة الذين يلعبون بمقدرات الامة حسب اهوائهم فاقول: يا اهل الالحاد والبدعة! إني اطالبكم بالاجابة عن ستة اسئلة..»(٥٥).

• يهاجم علماء السوء الذين يصدرون فتاوى لتسويغ اعمال الدولة في تغيير مظاهر الشعائر الاسلامية(٥٦).

• يوجه خطابه الى تلامذته فاضحاً موقف المسؤولين:

«فيا اخوتي اذا ما هاجم عليكم مهرجو اهل الضلالة والمتزلفون لاهل الالحاد ليرهبوكم ويجعلوكم تتخلون عن جهادكم المعنوي المقدس، قولوا لهم: نحن حزب القرآن، نحتمي بقلعة القرآن العظيمة الحصينة»(٥٧).

• يشن هجوما عنيفا على الدولة ورجالاتها بوضوح، لانهم يثيرون النزعة القومية، وهي ضد مصالح الوطن والمسلمين جميعا، وينقد افعالهم التي هي سقوط وترد معنوي، رغم ما يطلق عليها من رقي في الظاهر، ويتساءل فيقول: «وهل ان نور الآخرة في السينما؟ وهل السلوان الحقيقي في المسرح؟» ثم ينقد بشدة تدريس الفلسفة المادية الالحادية للشباب. حتى تنقض قواهم المعنوية وتطفى نور ارواحهم(٥٨).

---

(٥٥) المكتوبات ص ٥٥٣.
(٥٦) المكتوبات ٥١٠، ٥١١.
(٥٧) المكتوبات ٥٣٧.
(٥٨) المكتوبات ٥٤٤، ٥٤٥.

ويقول:

«وهل حظهم هو في الاعمال التي ترتكبونها تحت ستار التفرنج والتمدن بمدنية فرعونية تزيل حجاب الحياء وتشبع نزوات اغنياء سفهاء وتكون وسيلة لشهرة طغاة اقوياء ظلمة والتي تزيد يأس هؤلاء اليائسين وألمهم؟»(٥٩). .

ينفعل النورسي انفعالا شديدا، عندما يرى الظالمين من الحكام العلمانيين يحاربونه ويحاربون دعوته والمنتمين اليها من الدعاة المؤمنين الصادقين فيخاطبهم بقوله:

«فيا ايها الملحدون المتفرنجون الذين يسعون لصرف اخواني الحقيقيين عنى بدعاياتهم! اي نفع تسدونه لهذه الامة؟ انكم تطفئون نور أهل التقوى والصلاح»...(٦٠).

واذا عدنا الى حياته المباركة ودفاعاته امام المحاكم، وما كان يكتب في سبيل نصرة الايمان ونشر الاسلام وبيان احقية الشريعة. وما كان يعدّ من الدعاة الى الله تعالى، ظهر لنا جليا أنه وقف بقوة وصلابة امام مخططات الدولة في تغيير الدين والاخلاق وافساد الجيل بالكلية.

فان لم تكن هذه سياسة وتدخلا في شؤون الدنيا والسياسة، فيا ترى كيف تكون السياسة؟

إن ترك السياسة عند النورسي يعني عدم الاتصال بالحكام وعدم ذكر اسمائهم وعدم الولوج في الدائرة التي يتحركون فيها والابتعاد عن الصدام معهم صداما حركيا مباشراً، والامتناع عن الكتابة في صحفهم وترويجها

---

(٥٩) المكتوبات ٥٤٦.
(٦٠) المكتوبات ٥٤٨.

والنأى عن التهريج بكلمات جوفاء لا تفيد قضيته وخطته، ومعرفة الحجم الحقيقي لحركته وادراك مسالك العمل ومسارات التفكير والبداية الصحيحة للمخطط الاسلامي المعاكس المقاوم بهدوء وعمق للمخطط العلماني[٦١].

كل ذلك كان مسلكا لسعيد القديم الذي يصارع الامواج المضطربة، غير الواضحة، في ظل خلافة بدأت تتهرأ، وفي اطار صدامات غير جلية الاعماق بين التيارات المتضاربة.

أما وقد سقطت الخلافة وظهرت الاعماق الخفية، وتوضحت الصورة الحقيقية، وظهر الاعداء علنا وبيدهم القوة الغاشمة، فسفكوا الدماء وانتهكوا الاعراض وغيروا قوانين البلاد واظهروا الفساد في الأرض، واحتل الوطن، وتحرك النفاق في كل صقع، وانتهزت النفوس الضعيفة فرصتها لاصدار الفتاوى الباطلة والتسويغات الهزيلة. فكان علىٰ النورسي والحالة تلك، ان يدخل السياسة من باب آخر، يعتمد على التوثب الحذر، والتخطيط الهادئ، والمواجهة الذكية، ومعالجة ادواء الامة في جذورها البعيدة، ومظاهر الحياة الاجتماعية في قواعدها التحتية، وتحويل المعركة من اسلوب اعلامي فاضح الى مخطط فكري عميق، ينظف الاذهان ويعالج الادران ويشخص الاعداء، ويهيئ لصياغة الامة المنكوبة من جديد.

كان النورسي من قوة الايمان واطمئنان اليقين وعزة النفس وعظمة الشخصية والشجاعة الفائقة، بحيث كان يستطيع مواجهة الحكام في زمانه مواجهة صريحة هادرة، ولضحى حينئذ بنفسه شهيدا. ولكن كان يعلم جيدا ان هذا لم يكن في مصلحة الامة. كان موقنا ان الامة لم تكن

(٦١) المكتوبات ص ٧٦.

يومئذ بحاجة الى شهداء، وانما كانت بامس الحاجة الى العلماء والدعاة المفكرين، كي ينتشلوها من السقوط الايماني والردة الحضارية، والهجمة الجاهلية.

وهكذا قدر الله.. وهكذا كان.. من أجل ان يجدد حياة الامة ويبنى لها ركائز الايمان من جديد(٦٢).

وظل النورسي بين عهده القديم وعهده الجديد، هو هو لم يتغير، ولكنه ادخل التغير في خططه التغييرية واسلوبه السياسي في كتابة رسائله. بحيث استطاع ان يضعها في الاطار الكامل لصراعات عصره العالمي والقطري. بل انني أزعم ان رسائل النور، لو قرأها سياسي مفكر عريق، لعدها من ارقى الكتابات السياسية. لان السياسة في تعريفها العلمي الشامل هي قيادة الامة وصبغها باسلوب معين يحقق مقاصد السياسي القائد.

ورسائل النور كتبت لصياغة الامة وقيادتها باسلوب معين في اطار ظروف معينة.

وهناك قضية جديرة بالانتباه؛ وهي ان النورسي في عهده الجديد لم يستطع ان يتخلص من عهده القديم ومن اسلوبه، ولذلك نجده من خلال هيجاناته الايمانية، يخرج من اعماقه سعيد القديم بكامل شخصيته وافكاره فيتكلم وينقد بصراحة تامة في أمر السياسة اللادينية كلها. ويسوغ هو نفسه ذلك بانه يستعير شخصية سعيد القديم.

فاذن لقد ظل النورسي محتفظا بشخصيته العنيفة علىٰ الرغم من مخططه الجديد.

---

(٦٢) المكتوبات ص ٥٨ وما بعدها.

وكان اعداؤه واعداء الاسلام يدركون هذا منه تماما. وإلا فقل لي بربك، لو لم يكن النورسي شخصية سياسية خطيرة، فلم يكبلونه ربع قرن، نفيا وسجنا وتعذيبا وتشريدا، من سجن الى سجن ومن محكمة الى اخرى، ومن نفي الى نفي، ومن تعذيب الى تعذيب أشد منه.

لمَ لَمْ يفعلوا ذلك بالعلماء المساومين والمشايخ المهادنين والاساتذة الممالئين. نعم فعلوا ذلك بالنورسي وحده، لانهم كانوا يعلمون انه بصدد مشروع نهضوى حضارى شامل، سيقتلع إن عاجلا او آجلا جذور اللادينية في نفوس الاجيال الجديدة في تركيا باذن الله.

ولذلك فهم كانوا يخافون من كل كلمة تصدر منه، ومن كل حركة يتحركها، كانوا يخافونُ من اجتماعه بتلامذته وكانوا يخافون من تنقلاته، ولذلك فهم كانوا يلاحقونه. كانوا يعلمون جيدا ماذا كان يريد ان يفعل، ولأي شئ يريد ان يعمل. ومن هنا فانهم عدّوه سياسيا خطيرا بمواجهتم، يمثل بقوة واصرار روح المقاومة الاسلامية ضد المخطط العلماني الاستبدادي الفاجر.

إن كل ما يقوله النورسي في تركه السياسة، إنما يعني به السياسة بجانب الدولة وتأييدها أو السير في ركابها. وهو تغطية لموقفه السياسي الأصيل. ولذلك لم يقتنع الحكام بموقفه وعرفوا انه يستعمل معهم مبدأ «الحرب خدعة»(٦٣).

* * *

(٦٣) المكتوبات ص ٧٩، ٨٦.



الفصل الثاني

ملامح العصر الحديث
ومواجهة النورسي

ملامح العصر الحديث:

واجه العالم الاسلامي في العصر الحديث عالما تغير فيه كل شئ. فلقد طغت الفلسفات المادية المعاصرة نتيجة للصراع العنيف بين المؤسسات اللاهوتية الطاغوتية، ومحاولات العقول النيرة لاقتحام قوانين المادة والكشف عن اسرارها. وكان من الممكن ان ينتهي ذلك الصراع الى نتائجه الطبيعية، لو ان الكنيسة قد تنازلت عن مادتها المعرفية البشرية العتيقة، لتظهر عقليات تجديدية تقود حركة التصحيح والتنوير، كي تلتقي مع نتائج العلم، فتؤدى الى نمو الاتجاه الحضاري المتوازن. غير ان سيطرة اليهودية(١) على مراكز القوى الموجهة؛ السرية منها والعلنية، قلبت الصراع من داخل النصرانية نفسها الى الصراع بين النصرانية وبين الانسانية والعقل الحديث، ثم الى الصراع بين الدين عامة، وبين العلوم الانسانية الجديدة التي قادتها «الايديولوجيات» المادية التي حولت الانسان الى اله يعبد من دون الله، فنفيت بذلك كل قدرة خالقة في الوجود، واتبعتها بنفي الاديان من اساسها، ووضع الفلسفات البشرية مكانها في تفسير الوجود، وحركة

(١) راجع كتاب «احجار على رقعة الشطرنج» لوليم غاى كار.

المجتمع وسلوك الانسان، من خلال تفسيرات «اوكست كونت» الوضعية، في ايجاد دين يضعه البشر، يوضع في مكان الاديان السماوية وحتى الارضية، وقوانين «ماركس» الحتمية المزعومة التي تحصر الصراع في عالم الاقتصاد ونظام الانتاج، وتحليلات «فرويد» النفسية التي تجعل من العقد الجنسية اساسا لكل حركة او سلوك، ودراسات «دوركايم» التي جعلت من العقل الجمعي صانعا للسلوك الحيواني المتغير الذي لا يستقر على حال، وينقل من النقيض الى النقيض.

ومع هؤلاء جميعا ظهر «دارون» الذي حطم قدسية الانسان بارجاعه الى تطور تدريجي من الحيوانات ذات الخلية الواحدة، عبر صراع قاس طويل لا يبقى فيه إلا الاصلح(٢).

وكانت نتائج هذه الهجمة العقلانية الانسية المادية التي قطعت صلتها مع الهداية الربانية والفلسفات العقلية المثالية، وقواعد الاخلاق الطبيعية الفطرية، خطيرة جداً على المجتمع الانساني.

إذ وُضِع الانسان المخلوق القاصر مكان الله تعالى، الاله الخالق القادر.

ووضعت فلسفات الخطاب البشري بدل حقائق الوحي الالهي.

وعمم السلوك الحيواني، ليشمل اخلاقيات السلوك البشري.

وجعل من المال غاية بعد ان كان وسيلة.

ونصبت القوة مكان الحق، فضاعت بذلك الموازين الثابتة الخالدة.

وخربت العلاقات الفطرية بين الرجل والمرأة، فغدت تلك العلاقات الجنسية حرة بين الرجل والمرأة والرجل والرجل والمرأة والمرأة، بل حتى مع الحيوان، واحيانا بقانون.

---

(٢) راجع في تفصيل هذه الملاحظات «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.

لقد سقط الانسان في حضيض جاهلية جهلاء شاملة، فتكت بحقائق الروح وموازين العقل وفطرية السلوك وتفكيك الكيان البشري، وتحوير قوانين الفطرة، ومحاولة تفجير اسس الطبيعة، فغير خلق الله في كل جبهات الصراع بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان. وعليه فان الحرب انتهت في العالم الغربي لصالح جاهلية جديدة معمقة، قادها الطواغيت بكل اشكالها، تحكمت فيها الشهوات بكل اوصافها، فظهرت ما يسمى بالحضارة الحديثة التي قلبت حقائق الحياة ونواميس الكون وتمردت علىٰ الله تعالى، في كل خلية من خلايا المجتمع.

زد على ذلك الانقلاب الصناعي الهائل، الذي صبغ هذه الحضارة في ظاهرها بصبغة التنظيم وتسهيل عقبات الحياة، وادخل الآلة كبيرة وصغيرة في كل ارجاء الحركة الاجتماعية واخرجت الثروة من باطن الارض، واستغلت الارض المفروشة، فتحولت الى بساط أخضر تزود البشرية بالرزق الوفير، وبذلك اخرجت هذه الحضارة اممها من ظلمات قرون التأخر والقذارة المادية، فعالجت قضايا الجهل والجوع والمرض في بلادها، وتصدقت ببعض منجزاتها علىٰ البشرية، بعد ان امتصت ثرواتها الباطنية والظاهرية في البلاد التي استعمرها أربابها وقادتها.

وكان الاعجاب بهذه الحضارة ومغرياتها ومنجزاتها قد بدأ شيئا فشيئاً مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي يدخل في العالم الاسلامي، نتيجة للتأخير العام الذي اصابه في انشطة الحياة الحضارية كلها، والذي تولد من الجهل المركب الذي ضيق علىٰ المسلمين فهم حقائق الاسلام، ومقاصد شريعته وأسس حضارته، ذلك المرض الخطير الذي اسلمهم الى الجمود والخمود في التفكير، والشلل التام في ادراك السنن الاجتماعية والكونية،

فاصابهم اللهاث الفاجع وراء إلتماس مواقع القوة، والتنظيم والتعليم بلا ادراك ولا تمييز ولا إعادة نظر في نقد الذات، ومحاولة فهم سنن التقدم والتأخر من القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ وحقائق الحضارة الاسلامية، فوقعوا في كارثة التقليد الاعمى بلا تبصر. بل بدأوا مع بدايات الاحتكاك وعبور الفلسفات الغربية مع لغاتها، ومخططات الاجهزة الثقافية الغربية العلمانية الجامدة التي حفرت اخاديد وشروخا في غاية الخطورة في جسد الاجيال الجديدة وفكرها، في التشكك بالذات واصالة الامة المسلمة ودينها وحضارتها وقيمها، فاصابت الامة في بلاد الاسلام كلها هزيمة داخلية ساحقة، وشعور بنقص مخز امام الحضارة الغازية، مما مهد الطريق الى انسلاخ كامل سريع من اطار بقايا الحضارة الاسلامية الى اطار الحضارة الغربية الرومانية اليونانية النصرانية اليهودية الملحدة، عقيدة وقانونا واخلاقا وممارسة.

وكان بروز هذا الاستسلام في مراكز الخلافة العثمانية اكثر من غيرها، وابرز مما جاورها من البلاد. لقرب الديار وشدة الاحتكاك مع الغرب، ووجود الاقليات صاحبة الامتيازات، وتنوع الاجهزة الثقافية والاعلامية المؤثرة التي تبنتها الماسونية، ودوائر التبشير الكنسية، والاستشراق الاستعماري في خفاء شديد ومكر رهيب، بحيث خططت ومهدت، لاسقاط البقايا الهيكلية لدولة الرجل المريض كما سماها الغرب الصليبي، عبر قنوات الاجهزة الثقافية والقوات المسلحة والانفاق المظلمة.

لقد بذل السلطان عبدالحميد الثاني وسعه في سبيل المحافظة على الوضع والتفكير الجدي لايقاظ الامة الاسلامية، وانقاذ الدولة والوقوف امام الاطماع الاوربية طوال سنوات حكمه، متوسلا في ذلك بدهائه

السياسي ومحاولا تقوية الرابطة الاسلامية بين المسلمين. ولكن الظروف السياسية والحضارية في عهده كانت اقوى من محاولاته، بل وجد اعداء الامة في بقائه خطرا اكيدا علىٰ مصالحهم فخططوا لاسقاطه، حيث امر الشرق الاعظم الماسوني الايطالى اعوانه الماسونيين في جمعية الاتحاد والترقي، بعزله بعد رفضه القاطع تسليم فلسطين الى اليهودية العالمية. وقد تم ذلك حيث أجبره الجيش الذي زحف من «سلانيك» علىٰ التنازل، فاتوا من بعده باخيه «محمد رشاد» الخامس الذي كان ضعيفا، حتى غدا العوبة بيد الاتحاديين الماسونيين.

ولقد تظاهرت جمعية الاتحاد والترقي في بداية الامر بشعارات براقة وهي «الحرية والاخاء والمساواة» إلاّ إن حقيقتها سرعان ما ظهرت عندما اتبعت سياسة عنصرية ارهابية، ففتكت بمعارضيها واضطهدت العناصر غير التركية في داخل الدولة، مما دفع الاقوام التي كانت تربطها الرابطة الاسلامية بالاتراك، عبر العصور، بالتفكير في انقاذ نفسها من ذلك الوضع الشاذ غير الاسلامي(٣).

ولم يكتف الاتحاديون بذلك. بل دفعوا بتخطيط من الماسونية العالمية الدولة العثمانية، الى الحرب بجانب المانيا، الامر الذي ادى الى هزيمتها وتمزقها وتوزيع املاكها بين الدول المنتصرة في تلك الحرب.

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى توفي السلطان محمد رشاد ١٣٣٦هـ/١٩١٨ وجاء بعده «محمد وحيدالدين» السادس، الذي كان يكره الاتحاديين ويتربص بهم الدوائر، ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل اي شئ ضدهم. وعندما احتل الحلفاء اسطنبول وقع السلطان محمد السادس

---

(٣) İ.Danışmend, Izahli Osmanli Tarihi Koronolojisi 4/402 - 406

اسيزا بايديهم، فضُيِّق عليه، وحيل بينه وبين الامة، فلم يجد السلطان مناصا من ان يكلف سراً احد الضباط الذي كان تربطه به صداقة سابقة، قبيل ارتقائه عرش الخلافة، وزوده بامر سلطاني الى قادة الجيش جميعهم كي يتعاونوا معه لتهيئة الصفوف لجهاد المستعمرين وطردهم من تركيا(٤).

وقد تم ذلك في حروب اشترك فيها قادة عظام امثال نورالدين باشا وكاظم قره بكر باشا وعلى فؤاد باشا مع ابناء الشعب المسلم بحماسة اسلامية منقطعة النظير، منطلقين من فريضة الجهاد في سبيل الله، سميت بـ«حروب الاستقلال» فاستطاعوا فيها طرد المحتلين اليونانيين من الغرب والروس من الشرق.

ولما استقر الوضع لمصطفى كمال، قام بموجب معاهدة «لوزان» التي فرضها الحلفاء، بالغاء الخلافة الاسلامية وصادر املاك الاوقاف ومنع قراءة القرآن باللغة العربية التي كان يكرهها جدا، حيث بدل حروف الكتابة العربية الى الكتابة اللاتينية، واعلن اللادينية، ومنع النشاط الاسلامي كله، وحول الاذان الشرعي الى الاذان باللغة التركية، ومساجد كثيرة الى مخازن ومتاحف، وخطط للقضاء على الاسلام نهائيا في تركيا. وفي سبيل ذلك، فتك بمعارضيه وقبض على الحكم بيد من حديد، وقاد علماء الاسلام ودعاته الى المشانق والسجون.

لقد وصل الأمر في محاربة الايمان والاسلام الى حد أن دائرة معارف «الحياة» التركية الرسمية، انكرت صراحة وجود الله سبحانه وتعالى. ولعل

(٤) اثبت الكاتب التركي الكبير المرحوم نجيب فاضل في كتابه حول السلطان محمد وحيدالدين السادس، بوثائق تاريخية هذه القضية. وانظر ايضاً كتاب «الرجل الصنم» ص ١٢٧ – ١٧٣. وهو كتاب تاريخي حديث مهم جداً حول حياة مصطفى كمال، وطبعته مؤسسة الرسالة ببيروت.

هذا الاقتباس منها يلقي ضوءاً ساطعا على الانكار الذي لم يظهر بهذه الصراحة في اي مكان آخر يومئذ في العالم الاسلامي:

«إنّ الفكرة التي تريد الاديان الموجودة حاليا ان تثبتها هي ان الله واحد، وهو الذي خلق الكون. ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح شيئا فشيئا بان هذه الفكرة باطلة، وانه لا وجود لشئ اسمه «الله» وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين اوساط المثقفين»(٥).

هذا زيادة على تدريس اللادينية في المدارس والهجوم علىٰ القرآن الكريم والرسول الامين ﷺ علنا في مناهجها. حتى قرر تدريس الفلسفة المادية في الصفوف الاولى في المتوسطات لترسيخ الجحود بالالوهية، وانكار الحياة الأخرى، واتهام الشريعة الاسلامية بالجمود والرجعية والتأخر.

وبجانب هذا فقد استبدل باحكام الشريعة الغراء القانون السويسري وفرض لبس القبعة بقوة القانون علىٰ الناس، مع وضع الحياة الاجتماعية الغربية الفاجرة بدل الحياة الاجتماعية الاسلامية الفاضلة.

إن هذه الكارثة الكبرى حلت بالأمة في حياتها وكرامتها وعقيدتها وشريعتها وقيمها السلوكية ووجودها.

---

(٥) Hayat Ansilclopedisi 1932 ist ١/ ١٣٢ وادعاء ان التقدم العلمي يرفض عقيدة الاله افتراء محض على العلم، والعكس هو الصحيح. فالتقدم العلمي في القرن العشرين وضع يده على نظام الكون الدقيق جداً بحيث ذهب معظم العلماء الافذاذ الى أن اسناد خلق الكون الى الصدفة العمياء مستحيل علميا في حد ذاته، بل ان قوانين الفيزياء الحديثة تثبت حدوث العالم راجع «العلم يدعوا الى الايمان» للعلامة كريسي موريسون. و «الله يتجلي في عصر العلم» لمجموعة من كبار علماء العالم. وسلسلة الابحاث العلمية التي ترجمها الاستاذ اورخان محمد على منها: اسرار الذرة ومولد الكون، والانسان معجزاة الحياة وداورن ونظرية التطور وغيرها.

ولكن كيف وقعت هذه الكارثة الكبرى في تحريف الامة عن خط سيرها الاسلامي، وفي اخراجها من دائرة الحضارة الاسلامية.

لم تقع هذه المأساة فجأة، وان تدرجت تزحف علىٰ حياة الامة بمقدمات محددة واضحة، وهي التي انهت الصراع بجانب المأساة الكبرى.

وفي سبيل ان نتفحص تلك المقدمات الفاسدة وجذورها في القرون الاخيرة، لا بد لنا ان نثير امام المتسائلين والباحثين عددا من الاسئلة الجوهرية، كي نستخلص منها الجواب؟.

– هل كان ايمان المسلم بخالقه في القرون الاخيرة ايمانا حقيقيا مرتبطا بقواعد العقل وحركة الوجود، وهل كان ايمانا يمتلك عليه كيانه واحاسيسه بحيث يعيش به وله؟

– هل كانت الاجيال في تلك القرون تفهم حقيقة معنى «لا إله إلا اللهٰ» وما يستتبعه من اعلان العبودية المطلقة لله رب العالمين؟

– هل كانت الامة المسلمة من حيث الاجمال تدرك مظاهر الشرك الجلية والخفية التي دخلت في حياتها وزعزعت في واقعها حقائق التوحيد الخالص؟

–هل كان المسلمون يؤمنون باليوم الآخر ايمانا حقيقيا تمزج باعماقهم وتحملهم على التفكير الدائم في مصير الحياة الابدية والاعداد لها وعدم التفريط بامرها؟

– هل كانوا يفهمون حركة السنن الكونية المطردة التي يستوي امامها المؤمن والكافر، ام كانوا يستندون الى الاتكال علىٰ غلالة رقيقة مفضوحة من الايمان البارد والأدعاء الفارغ من انهم طالما ينتسبون الى الله ورسوله، فهم إذن منتصرون في كل حين وأوان؟

– هل كان علماؤهم يدركون طبيعة الصراع ومقاصد الشريعة في التعامل مع المرحلة، ومرونة قواعد الفقه الاسلامي، ووضع الحلول الناجعة لمشاكل العصر، ام إنهم اكتفوا بالتعصب والتقوقع داخل كتب الحواشي الفرعية؟

– هل كانوا يدركون حقيقة الصراع الفكري مع طلائع الحضارة الغربية والمشكلات الفلسفية التي كانت تثيرها في عالمنا المعاصر، ام اكتفوا بعلم كلام مصطلحي كان يتعامل مع مادة معرفية عتيقة، انتهى عهده وولت صراعاتها مع لاهوتي النصاري واليهود ومتفلسفة اليونان والحضارات الاخرى؟

– هل كان زهادهم يتعاملون مع القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرة السلف الصالح والمشايخ الأولين المجاهدين الصادعين بالحق في تربية النشأ وايصال الانسان المسلم الى الاستقامة والتقوى، ام كانوا يتعاملون مع مصطلحات غير مفهومة، في رهبانية مشوهة قديمة عبرت الى المجتمع الاسلامي تحت مصطلح التصوف والزهد، فحولت حقيقة التصوف من المقولة الرائعة «التصوف هو طلب الحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق» ليتحول الى المقولة الواقعية المجسدة «جهل الحقائق والطمع في ما في ايدي الخلائق»؟

– واخيرا وليس آخرا، هل كان المسلمون يزرعون جيدا، يصنعون جيدا، وينظمون الحياة جيدا، ويعدون القوة جيدا. وهل كانوا اصحاء متعلمين شباعا؟

إن محاولة استخلاص هذه الحقائق بعمق عقلاني خالص واستقراء تاريخي شامل في تلك الصور القلمية المعروضة عبر الاسئلة السابقة، ستضع ايدينا على مكمن الداء وتعيين العلاج ووصف الدواء.

إذن إذا كانت تلك المناهج المبتورة المشوهة هي سبب المأساة، فهل يمكن ان تتحول الى علاج للامراض التي سببتها والكارثة التي انتجتها؟

بل لو قلبنا الصورة واتينا بالمناهج الفكرية الاسلامية التي ادارت الصراع في القرون الماضية مع اجزاء من حضارات اجنبية غازية في اطار المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية، ثم الحضارة الاسلامية، فهل تكفي لمعالجة امراض مجتمعنا اليوم، وانهاء مأساة امتنا في السقوط الايماني والحضاري في قابل الايام، ومواجهة جاهلية حضارية شاملة، غطت الكرة الارضية بافكارها المادية وموازينها المقلوبة وقوتها الطاغية الغاشمة واباحيتها الفاجرة.

فمثلا:

هل كان يكفي في هذا العصر لمواجهة تلك الجاهلية الشاملة، منهج الفيلسوف المعتزلي الذي دخل في جدال تجريدي محض في المقارنة بين الاقانيم النصرانية وحقائق الصفات الالهية، ومحاولة الوقوف امام منع المسلمين من الوقوع في شرك موهوم وتجسيد رواقي مستورد.

– هل كان يفيدنا منهج الإمام أحمد بن حنبل الجزئي في مواجهة المعتزلي في عدم الخلط بين اوراق الاسلام واوراق الصراعات اللاهوتية ومصطلحاتها؟

– هل كان يحل قضايانا الفكرية اليوم مع الفلسفات الجاحدة، منهج الامام الاشعري في نفي التطرف من جانب التجسيم الحشوي والعقلاني المعتزلي ومحاولة التقريب بينهما، ليقدم حلا وسطا في المسائل المتعلقة بالتوفيق بين النقل والعقل في علم الكلام القديم الذي كان يشكل فكرا مرحلياً مقبولا يومئذ بين المسلمين او جمهورهم؟

- هل كان ينهى صراعاتنا مع سلوكيات الحضارة الغربية في اطار جاهلية شاملة، منهج الصوفي الزاهد الذي يظل يسير في مدارج السالكين دون التفكير بالعودة الى الارض، ليتقوى برياضاته الروحية، كي يقف امام طغيان هذه الجاهلية العالمية والاخلاقيات التي نتجت عنها؟

وهل كان يستطيع ان يفعل ذلك شيخ دجال يدّعي القداسة في تكايا البدع والخرافة، ويجمد روح الجهاد في اتباعه بدعوى السير الى الله واصلاح النفس من الهوى والفساد؟

إذن لقد كان العصر الحديث ينتظر بفارغ الصبر، متكلما ينظر الى العصر الحديث من خلال علمه الاسلامي الغزير ووعيه الحضاري الشامل واطلاعه العلمي الدقيق على حركة التطور العلمي وادراكه العميق لجوهر الصراع بين منظومة الحضارة الاسلامية ومنظومة الحضارة الغربية.

وشاءت ارادة الله تعالى ان يكون ذلك المتكلم هو الامام المجاهد الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

مواجهة النورسي:

لقد ادرك النورسي زمانه الحضاري ادراكا عميقا، سواء أكان ذلك في العالم الاسلامي ام في خارجه. عرف الحضارة المادية الحديثة في منجزاتها، ومع ذلك عرف كفرها وضلالها وخروجها على طاعة ربها، وتخريبها لفطرة الكون والحياة والانسان.

وقبل ذلك كان قد علم بالمرحلة الخطيرة التي كان يمر بها العالم الاسلامي، مرحلة التأخر والسقوط الحضاري والخواء الايماني.

لاحظ النورسي وهو الذي عاصر اخطر فترة انتقالية من حياة المسلمين وهي القرن الثالث عشر الهجري، وبداية القرن الرابع عشر منه، ان المجتمع الاسلامي برمته ينحدر في مظاهر حياته انحداراً سريعا، واكتشف ان غزوا فكريا منظما يشن علىٰ العقيدة الاسلامية وشريعتها المنبثقة من أصولها وقيمها النابعة من فروعها، ابتداء من الدوائر الاجنبية، وانتهاء الى اجهزة اعلام الانقلابات الكمالية التي كان يقودها الملاحدة والمنافقون والاباحيون من الماسونيين وغيرهم ممن تشبعوا بالافكار الغربية وفلسفاتها العنصرية الجاحدة.

لقد تأكد النورسي ان الاسلام اصبح في خطر ساحق ماحق ايمانا وعقيدة وشريعة وحضارة ولغة وتاريخا ورجالات، وبمخطط واضح تسنده مقررات مؤتمر «لوزان»[٦] تباركه اوكار التآمر العالمي ضد الاسلام، وتقوده في الداخل قوة طاغوتية دموية غاشمة لا ترحم قررت القيام بتصفية جسدية رهيبة لكل من يقف في طريق الطاغوت الكبير في تغيير هوية الامة وسلخ جلدها، وادخالها في حضارة كافرة لا صلة لها بها، دينا ولغة وتاريخا وحضارة.

لقد قرر النورسي المواجهة التي لا رجعة فيها.

ولكن كيف؟ وما المنهج الذي يواجه به جاهلية شاملة تلف الكرة الارضية وتريد ان تزعزع كيان امته، وتشوه عليها دينها وشريعتها وثقافتها وقيمها، وتسلط عليها طغاة ظلاميين ينفذون عملية سلخ الامة برمتها من تاريخها المشرق الاصيل.

---

(٦) وهي تتلخص في شروط كروزن الأربعة التى فرضها وزير خارجية الانجليز في «لوزان» وهى ١ـ أن تقطع تركيا صلتها بالاسلام ٢ـ أن تلغى الخلافة الاسلامية ٣ـ أن تتعهد باخماد كل حركة يقوم بها انصار الخلافة ٤ـ أن تختار لنفسها دستوراً لادينياً بدلا من الدستور العثمانى المستمد من احكام الشريعة الاسلامية.

إن هؤلاء لم يأتوا بفلسفات لاهوتية تناقش العقل المسلم في قضايا الجواهر والاعراض والحدوث والوجوب والامكان وصفات الله وخلق القرآن، حتى يستعين بعلم الكلام الذي درسه بعمق في شرح العقائد النسفية والعضدية وغيرها من كتب الكلام والعقائد والفرق والمقالات.

وانما هم ينكرون اصل الايمان بوجود الله تعالى، ويجحدون بذلك النبوة وعوالم الغيب.

وهم – منطلقين من مبدئهم الاول – لا يجادلون المسلمين في قضايا المذاهب الفقهية. وانما هم ينكرون الشريعة وأصلها الالهي، ويضعون بدلها الخطاب الانساني والقوانين البشرية، فلا يفيد معها المناقشات التفصيلية في مسائل الاحكام وتأليف الكتب الضخمة في زد الخصوم.

ثم إن أزمة المجابهة لم تكن ازمة اخلاقية محدودة في سلوك الانسان. حتى يتخذ طريقة من طرق التصوف المعروفة طريقا الى الاصلاح وتقويم السلوك.

إذن فالمجابهة لم تكن مثارة مع قضايا داخل المجتمع الاسلامي، وفي ظل الحضارة الاسلامية حتى يتبع منهجا جزئيا مرحليا لعلاج الكبوة وانهاء الحالة المنحرفة، كما فعل الفقهاء والمتكلمون والربانيون الاولون، كل في مجاله وفي المرحلة التي واجهوها والمشاكل التي ارادوا ان يوجدوا لها الحلول العقيدية والشرعية والتربوية.

إن معركة المسلمين في منهج النورسي ليست مع المسلمين عامة، ولا مع الفرق الاسلامية خاصة، لانه لا يؤمن اصلا بتوجيه المعارك مهما كان نوعها الى داخل الصف الاسلامي، وانما هو يوجه المعركة الى خارجه

فقط، لانه لا يعترف إلا بخندقين متقابلين؛ خندق الايمان والرحمن وخندق الكفر والشيطان. لاسيما في مثل عصرنا الذي تكالبت علىٰ المسلمين فيه حضارة مادية شاملة ضخمة، لها من اسلحة العلم والمال والجيوش والسلاح ما تستطيع ان تدمر امامها كل شئ.

فالغزو الحضارى الجاهلي الشامل علىٰ الاسلام والمسلمين، لا بد ان يواجهه منهج اسلامي شامل متوازن.

لم يجد النورسي مثل ذلك المنهج الشامل في اي عصر من عصور الفكر الاسلامي، ولا في اي علم من العلوم التي درسها، ولا الكتب الضخمة الكثيرة التي قرأها. وانما وجدها في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة وسنته الطاهرة، تماما كما واجه الرسول الكريم ﷺ وصحابته الاكرمون الجاهلية القديمة، فاستنبط منهما منهجا كونيا وحضاريا شاملا، يتكلم بلغة العصر ويفكر من خلال عقلية العصر ويخطط لحل مشاكل العصر، بعون رباني ملهم وفيض قرآني رشيد، ومدد نبوي ثر، وهضم عميق لتجارب المسلمين عبر عصورهم، من خلال غزارة علم ونصاعة حجة، وقوة ايمان.

كان المجتمع التركي الاسلامي الذي ابتلى في ذلك الوقت اكثر من غيره ينتظر مثل ذلك الفهم الشمولي، لكي يجدد حياته وصلته بالاسلام، كان ينتظر متكلما مجددا، يجيد الحديث بلسان العصر، لكي ينتشله من الهاوية التي قاده اليها الاشرار، ويعيد اليه ايمانه واسلامه، وثقته باصالة امته وحضارته.

وكان ذلك المتكلم المجدد، هو الامام سعيد النورسي الذي نحاول في هذه الدراسة المتواضعة ان نلم بمنهجه وافكاره ومواقع تجديده لحياة امته المظلومة.





الفصل الثالث

علم الكلام الجديد وطرق المعرفة

النورسي وعلم الكلام الجديد

اسلوب النورسي في الحديث عن اصول العقائد الاسلامية اسلوب فريد في بابه، لانه يعتمد على الاسلوب التفصيلي الذي يدخل قارئه الى جذور القضايا، ويقدم خريطة كونية دقيقة، تظهر عليها الكائنات الى حد الخلايا البعيدة. بعكس علماء الكلام السابقين الذين كانوا يخاطبون الفلاسفة وتلامذة العلم العقلي التجريدي، فكانوا يعتمدون علىٰ الايجاز الشديد، والمقدمات العقلية المصاغة، والمصطلحات العلمية المعروفة، لا يتجاوزونها. بينما النورسي كان يخاطب امة كاملة بخواصها وعوامها وكبارها وصغارها ورجالها ونسائها، وقعت في براثن خدعة حضارية مادية شاملة، فتكت بعقول ابنائها وقلوبهم وسلوكهم ودخلت في تفاصيل حياتهم بطرائق مغرية. فكان اسلوبه يعتمد على المخطط الشامل المتنوع الدقيق الذي قد يكون مملا عند من لا علم له بحقيقة ما كان يعانيه من الصراع في المعركة ذات الوجوه المتعددة بين الامة الاسلامية والحضارة المادية الحديثة.

والاستاذ النورسي لا يؤمن بالمعرفة الجزئية ويعدها ناتجة عن نواقص العقل البشري، فمهما اوتي العالم المسلم علما من العلوم، او معرفة محدودة من المعارف، او غاص في سر من اسرار النفس، او هضم حقيقة من حقائق الوجود، فانه لن يستطيع الوصول الى المعرفة الشمولية والقانون الرابط للكون. وحينئذ يفقد الموازنة والاتساق.

ومن هنا فانه يبين ان فهم القرآن الكريم بمجموعه وبمقدمات أولية ونتائجها وبمعارفه جميعها، وبالاطلاع على حقائقه في عالم الانفس والافاق، هو الذي يرسم الموازنة الكاملة في فكر العالم المسلم والعارف المسلم.

يقول الاستاذ:

«ان القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع اقسامه مع جميع مراتب تلك الاقسام وجميع لوزامه، ولم يخل باتزان أي كان منها.. ثم انه قد حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلها.. وجمع الاحكام التي تقتضيها الاسماء الإلهية الحسنى جميعها مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الاحكام.. ثم انه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والالوهية.

فهذه «المحافظة والموازنة والجمع» خاصيةٌ لا توجد قطعاً في أي أثر كان من آثار البشر، ولا في نتاج افكار اعاظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الاولياء الصالحين النافذين الى عالم الملكوت، ولا في كتب الاشراقيين الموغلين في بواطن الامور، ولا في معارف الروحانيين الماضين الى عالم الغيب؛ بل كل قسم من اولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب من اغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن

وورقه، دون أن يلتفت الى غيره من الاغصان؛ إما لجهله به أو لعدم التفاته اليه. وكأن هناك نوعاً من تقسيم الاعمال فيما بينهم».

وبعد شرح طويل يقول:

«فمن هذا السر يتبين: أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألّفوا الوف الكتب ـ بعضها عشرات المجلدات ـ إلاّ انهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن ان يوضحوا ما تفيده عشر آيات من القرآن الكريم وتثبته اثباتاً قاطعاً بما يورث القناعة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيوناً في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء الى اقصى العالم بوساطة انابيب، أي بسلسلة الاسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة!! أما الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع ان تفجّر الماء اينما ضربت، وتفتح من كل شئ نافذةً تدل على الصانع الجليل وتعرّفه»(١).

إذن لقد انزل النورسي، بالاستناد التام الى القرآن الكريم، علم الكلام النظري الصعب الذي لا يفهمه إلا الخواص، لمصطلحاته التي تعود الى صراع عصر ماض، الى علم موصول بعقل كل فرد وكيانه في هذا العصر، ممتزج بعقله، لانه حول الكائنات التي حوله، من الاسرار الدقيقة المشاهدة لعالمي الأنفس والافاق الى علم كلام مفتوح امامه، صفحة واضحة يقرأ فيها. فيجد ببرهان تام خالقه، ويشعر بأنس عجيب مع الكائنات كلها، فيقرأ فيها نفسه التي كانت ضائعة تائهة في بيداء ظلمات الانحراف والكفر والشرك والظلم.

(١) الكلمات سعيد النورسي ـ ترجمة احسان قاسم ص ٥١٢ ـ ٥١٥.

أجل يأخذ بديع الزمان بيد المسلم وغيره، ليقرأ بنفسه حقائق التوحيد ودقائق العقيدة الاسلامية علىٰ لوحة الوجود الرائعة بكل طاقاته التي زوده الله تعالى بها[٢].

والحق ان رسائل النور كلها تحمل هذا المنهج القرآني الكوني الشامل. ولذلك كان الاستاذ النورسي شاعراً بأن منهجه يدك اقوى قلاع الضلالة ويبدد الغفلة ويظهر نور التوحيد من اوسع ميادين العلوم الحديثة.

ولو رجعنا الى «الكلمة الثانية والعشرين» وما فيها من براهين مستخلصة من نظام الوجود الدقيق في عالم الطبيعة العظيم لقام هذا دليلا حاسما علىٰ محاولته دك اسوار المذهب الطبيعي الكاذب بالطبيعة الصادقة، التي هى نفسها شاهدة في كل ناحيته من نواحيها علىٰ وجود الله تعالى ووحدانيته[٣].

يقول النورسي:

«صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة، كأنها مبرهنة استدلالية. فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم ان يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الافكار الفلسفية، بل يمكن ان يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والايضاح عقائد ايمانية، وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لرد ضلالات افكار هذا الزمان»[٤].

وفي محاولته انقاذ الايمان في رسائل النور يحاول القيام باحاطة وساوس النفس، وخطرات العقل والشكوك الكلية والجزئية التي أتت من اقتحام فلسفات الحضارة الغربية، قلعة الكيان الاسلامي كله.

---

(٢) الكلمات، انظر على سبيل المثال ٨١ – ٨٢، الشعاعات ص ٨ وما بعدها.

(٣) الكلمات ١٧٣و ٣١٠ – ٣٤٦.

(٤) المثنوي العربي النورى ص ٢٠٦.

وكما ان هذه الحضارة دخلت الى العقول والقلوب والنفوس فافسدتها بظواهر الحجج والدلائل الفاسدة في حقيقتها، يريد النورسي ان يدخل اليها من باب المناقشة الهادئة والاستدلال الحاسم، والمنطق الصحيح، من خلال ثمرات العلم والعقل واستقراء ما في الكون من قوانين ونظام واتساق.

ذلك ان تقرأ «الكلمة السادسة عشرة» في «الكلمات» كي تقتنع بنفسك، كيف يدخلك الى غابة متشابكة من الامثلة والاستدلالات العلمية والعقلية، كي يوصلك الى برد اليقين بازالة الشكوك والاوهام من عقلك الحائر(٥).

وينتقل النورسي من ذلك النموذج الى نموذج آخر من انقاذ الجيل من الشكوك في معاني بعض النصوص بتأويلات معاصرة مقبولة غير مصطدمة مع طبيعة النص وفي اطار ضوابط التفسير.

ففي تعليقه علىٰ قوله تعالى ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن**﴾ (الاسراء: ٤٤) يقول: «ان لأضخم الموجودات واكثرها سعة وشمولاً تسبيحاً خاصاً منسجماً مع عظمته وكليته، والأمر واضح ومشاهد؛ اذ السموات الشاسعة مسبّحة لله.. وكلماتها التسبحية هي الشموس والاقمار والنجوم، كما أن الارض الطائرة في جو السماء مسبحةٌ حامدةٌ لله، والفاظها التحميدية هي الحيوانات والنباتات والاشجار.

بمعنى أن لكل شجرة ولكل نجم، تسبيحاته الجزئية الخاصة به، مثلما أن للارض برمتها تسبيحاتها الخاصة بها. فهي تسبيحات كلية تضم تسبيحات كل جزء وقطعة منها بل كل وادٍ وجبل وكل بحر وبر فيها.

(٥) الكلمات ص ٢١١ – ٢٢٠.

فكما ان للارض تسبيحاتها باجزائها وكليتها كذلك للسموات والابراج والافلاك تسبيحاتها الكلية »[٦].

الحق إن اسلوبه ذلك لم يكن ترفا فكريا، ولم يأت من فراغ وانما نبع من مواجهته لتطورات الفكر الجديد، الذي اطلع عليه في اثناء زيارته لأنقرة، حيث يقول:

« دعيتُ لزيارة « انقرة » سنة ١٣٣٨ (١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان امام الجيش الاسلامي، الاّ أنني ابصرتُ - خلال موجة الفرح هذه - زندقة رهيبة تدب بخبث ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد اهل الايمان الراسخة بغية افسادها وتسميمها.. فتأسفتُ من اعماق روحي، وصرختُ مستغيثاً بالله العلي القدير ومعتصماً بسور هذه الآية الكريمة، من هذا الغول الرهيب الذي يريد ان يتعرض لأركان الايمان، فكتبت برهاناً قوياً حاداً يقطع رأس تلك الزندقة، في رسالة باللغة العربية واستقيت معانيها وافكارها من نور هذه الآية الكريمة لاثبات بداهة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته »[٧].

إن موقف النورسي هذا جاء نتيجة لادراكه البصير لطبيعة العصر المادية، ذلك لأن الماديين في الغرب غدوا يشككون الناس في الغيبيات ولم يعودوا يؤمنون إلا بالمحسوس، وانتجت حركتهم الفكرية تخريبا حضاريا هائلا في الغرب. وانتقل صداه الى العالم الاسلامي عن طريق الذين درسوا هناك او لقنوا مناهجه الوضعية في التفكير عن بعد، او من الاحتكاك المباشر بمصادر الثقافة الغربية. فبدأت موجة التشكيك تنداح موجاته ودوائره في المؤسسات الثقافية العلمانية واجهزة الاعلام المقروءة

---

(٦) الكلمات ص ١٨٧.

(٧) اللمعات ص ٢٦٧.

والمسموعة في كل ما هو غيبي، لا يخضع للمحسوس البشري كاحوال اليوم الآخر وحياة البرزخ واسرار حياة عالم الملائكة والروح والجن.

وكانت اخبار هذا التطور الهدام تصل الى النورسي اولا باول، فيبدأ بمعالجتها بعقلانية اسلامية، تخاطب الفطر السليمة والعقول المتوثبة، معتمدا علىٰ ادلة كونية واقعية مقنعة تتغلغل الى الاعماق. من خلال عقد المماثلة بين عوالم النفس والآفاق في الدنيا، واسرار العوالم الغيبية، للخروج من كل ذلك بالقول بعدم الغرابة في الايمان بالنظام الغيبي الاسلامي وامكانية وجود ما يثبت فيه علما وعقلا.

إقرأ إن شئت علىٰ ـ .يل المثال الكلمة الثامنة والعشرين، حيث أجاب الاستاذ فيها علىٰ كثير من تلك الشبهات منها جوابه على السؤال الآتي:(٨).

«ان أجزاء الكائن الحي في تركيب وتحلّل دائمين، وهي معرّضة للانقراض ولا تنال صفة الأبدية، وان الأكل والشرب لبقاء الشخص نفسه ومعاشرة الزوجة لبقاء النوع، فصارت ـ هذه الأمور ـ أموراً أساسية في هذا العالم، اما في العالم الأبدي والأخروي فلا حاجة اليها، فلِمَ اذن درجت ضمن لذائذ الجنة العظيمة؟

الجواب: أولاً: ان تعرض جسم حي للانقراض والموت في هذا العالم، ناجم من اختلال موازنة الواردات والصرفيات (أي بين ما يرد وما يستهلك) فالواردات كثيرة منذ الطفولة الى سن الكمال، وبعد ذلك يزداد الاستهلاك، فتضيع الموازنة، ويموت الكائن الحي..

(٨) وكذلك في «الكلمة التاسعة والعشرين» حيث يتحدث عن الارواح والملائكة والجن وينطلق من هذه المقدمة العقلية.

اما في عالم الأبدية، فان الذرات تبقى ثابتة لا تتعرض للتركيب والتحلل، أو تستقر الموازنة، فهي تامة ومستمرة بين الواردات والصرفيات، ويصبح الجسم أبدياً مع اشتغال مصنع الحياة الجسمانية لاستمرار تذوق اللذائذ. فعلى الرغم من ان الأكل والشرب والعلاقات الزوجية، ناشئة عن حاجة في هذه الدنيا وتُفضي الى اداء وظيفة، فقد أودعت فيها لذائذ حلوة ومتنوعة ترجح على سائر اللذائذ، اجرة معجلة لتلك الوظيفة.

فما دام الأكل والنكاح مدار لذائذ عجيبة ومتنوعة الى هذا الحد، في دار الألم هذه، فلاشك ان تلك اللذائذ تتخذ صوراً رفيعة جداً وسامية جداً، في دار اللذة والسعادة، وهي الجنة فضلاً عن لذة الأجرة الأخروية للوظيفة الدنيوية، التي تزيدها لذة، وعلاوة على لذة الشهية الأخروية اللطيفة نفسها، بدلاً عن الحاجة الدنيوية ـ التي تزيدها لذة أخرى ـ حتى تزداد تلك اللذائذ لطافة وذوقاً بحيث تكون لذة جامعة لجميع اللذائذ، ونبعاً حياً فياضاً للذائذ لائقة بالجنة وملائمة للأبدية. اذ المواد الجامدة التي لا شعور لها ولا حياة، في دار الدنيا هذه، تصبح هناك ذات شعور وحياة بدلالة الآية الكريمة:

﴿ وما هذه الحياة الدنيا الاّ لهو ولعبٌ وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾(العنكبوت: ٦٤).

فالاشجار هناك كالانسان هنا، تدرك الأوامر وتنفّذها، والاحجار هناك كالحيوانات هنا، تطيع ما تُؤمر. فاذا قلت لشجرة: إعطيني ثمرة كذا تعطيك حالاً، وان قلت لحجر: تعال هنا، يأتيك.

فما دامت الاشجار والاحجار تتخذ مثل هذه الدرجات العالية من الصفات، فلاشك ان الأكل والشرب والنكاح تتخذ صوراً رفيعة عالية، مع محافظتها على حقيقتها الجسمانية التي تفوق درجاتها الدنيوية بنسبة سمو درجة الجنة على الدنيا»(٩).

والنورسي لا يتكلم دون ضوابط، وانما يستعمل ثقافته العقلية و الدينية ومعرفته العلمية الجديدة الكونية، لاستخراج استدلالات جديدة في صور جديدة بعيدة عن القوالب الاصطلاحية للمتكلمين السابقين:

فعندما يعترض احد هؤلاء المقلدين عليه فيقول:

«انك تستعمل في «الكلمات» القياس التمثيلي كثيراً. بينما القياس التمثيلي لا يفيد اليقين حسب علم المنطق؛ اذ يلزم البرهان المنطقي في المسائل اليقينية، اما القياس التمثيلي فيستعمل في المطالب التي يكفيها الظن الغالب، كما هو لدى علماء اصول الفقه.

فضلاً عن انك تذكر التمثيلات في اسلوب الحكاية. والحكاية تكون خيالية، ليست حقيقية وقد تكون مخالفة للواقع».

يجيبه النورسي بقوله:

« نعم! لقد ورد في علم المنطق: ان القياس التمثيلي لا يفيد اليقين العلمي. الاّ أن للقياس التمثيلي نوعاً هو أقوى بكثير من البرهان اليقيني للمنطق. بل هو اكثر يقيناً من الضرب الاول من الشكل الاول للمنطق. وذلك القسم هو:

---

(٩) الكلمات ص ٥٨٧.

اظهار جزء وطرف من حقيقة كلية بتمثيل جزئي. ثم بناء الحكم على تلك الحقيقة، وبيان قانون تلك الحقيقة في مادة خاصة، كي تُعرف منها تلك الحقيقة العظمى، وترجع اليها المواد الجزئية.

فمثلاً: الشمس توجد قريبة من كل شئ لمّاع ـ بوساطة النورانية ـ مع انها ذات واحدة. فبهذا المثال يُبيّن قانون حقيقة هي:

انه لا قيد للنور والنوراني، فالبعيد والقريب سواء. القليل والكثير يتساوى. فلا يحدّه مكان.

ومثلاً: ان تشكيل اثمار الشجرة واوراقها وتصويرها في آن واحد، بطراز واحد، بسهولة تامة، وعلى اكمل وجه، من مركز واحد، بقانون امري واحد. انما هو مثال لإراءة جزء من حقيقة عظمى وطرف من قانون كلي.

فتلك الحقيقة وقانونها يثبتان اثباتاً قاطعاً ان تلك الكائنات الهائلة، كهذه الشجرة، يجري عليها قانون الحقيقة هذا، فهي كالشجرة ميدان جولان سر الاحدية ذاك.

فالقياسات التمثيلية في «الكلمات» كلها من هذا الطراز بحيث تكون أقوى من البرهان القاطع المنطقي واكثر يقيناً منه».

وأما الجواب عن السؤال الثانى فساقه النورسى كما يأتى:

من المعلوم في فن البلاغة، انه اذا كان المعنى المقصود للّفظ والكلام يراد لقصد آخر يعرف بـ «اللفظ الكنائي» ولا يكون المعنى الأصلى في اللفظ الكنائي مناط صدق وكذب. بل المعنى الكنائي هو الذي يكون مدار الصدق والكذب. فلو كان المعنى الكنائي صدقاً، فالكلام صدق، وان كان المعنى الاصلي كذباً، فلا يفسد كذب هذا صدق ذاك. ولكن لو لم يكن المعنى الكنائي صدقاً، وكان المعنى الاصلي صدقاً، فالكلام كذب.

مثلاً: «طويل النجاد» اي: شخصٌ حزام سيفه طويل. هذا الكلام كناية عن طول قامة ذلك الشخص، فان كان طويلاً حقاً، فالكلام صدق وصواب وإن لم يكن له سيف ولا نجاد، ولكن ان لم يكن الرجل طويل القامة وله سيف ونجاد طويل فالكلام كذب، لأن المعنى الاصلي غير مقصود.

فالحكايات الواردة في الكلمة العاشرة والكلمة الثانية والعشرين وامثالهما، هي من الكنايات بحيث أن الحقائق التي تختم بها الحكايات ـ وهي في منتهى الصدق والصواب والمطابقة مع الواقع ـ هي المعاني الكنائية لتلك الحكايات، فمعانيها الأصلية انما هي منظار تمثيلي. فكيفما كان لا يفسد صدقها وصوابها. فضلاً عن أن تلك الحكايات انما هي تمثيلات أُظهر فيها لسان الحال في صورة لسان المقال، وأبرز فيها الشخص المعنوي في صورة شخص مادي وذلك لأجل افهام العامة»(١٠).

وفي حديثه عن الكون وخالقه والنبي الداعي ويوم الحساب، يعتمد النورسي اسلوب الحديث الشامل المترابط عن الكون بما يتضمن من استدلالات موحدة متلازمة، حيث ان وجود الله يستدعي ضرورة وجود الكون، وظهور كماله يستدعي ضرورة اليوم الآخر، ولا يمكن أن نفهم هذه الحقائق في دار الامتحان إلا بالوسيلة الى الله وهم الانبياء والمرسلون وفي ختامهم الرسول الاكرم ﷺ.

* * *

(١٠) الكلمات ص ٧٣٥ – ٧٣٧.

النورسي وطرق المعرفة

لا شك ان من يدرس حياة النورسي يجده، قد درس في ظل منهجية التعليم في زمانه علوما شتى، هي مسالك متنوعة لايصال الانسان الى الله الخالق سبحانه وتعالى، فهو قد درس الكتب الكلامية المعروفة في زمانه كعقائد الجرجاني والتفتازاني والنسفي التي تثبت وجود الله عبر مقدمات مطولة مخلوطة بمقولات فلسفية معقدة، تجريدية، لا تورث اليقين الكامل وانما قد يدفع شغب المتفلسفة عن العامة.

وكذلك كتب الفلسفة التي تعرض دليل الوجوب والامكان، الذي لا يقل تعقيدا وتجريدا عن دليل الحدوث الكلامي.

وكذلك درس كتب التصوف التي تسلك مسلكاً وجوديا او شهوديا في الوصول الى الله.

غير انه لم يقتنع باي طريق من تلك الطرق في دعوته لانقاذ الايمان. وانما اتبع طريق القرآن وحده للوصول الى الله، لانه اقرب الطرق الى اثارة الفطرة الانسانية، وتحريك العقول الباحثة عن الحق، والقلوب العامرة بالتوثب الدائم واكثر الطرق انطباقا علىٰ آيات الانفس والافاق.

وقد حدد طريقه في هذا المجال منذ ان الف كتابه « نقطة من نور معرفة الله جلّ جلاله » في أوائل حياته الفكرية، قبل ان يؤلف رسائل النور.

يقول النورسي:

« هنالك اصول اربعة للعروج الى عرش الكمالات وهو معرفة الله جل جلاله.

أولها: منهج الصوفية المؤسس علىٰ تزكية النفس والسلوك الاشراقي.

ثانيهما: منهج علماء الكلام المبني علىٰ حدوث الامكان في اثبات واجب الوجود.

ثالثها: مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام.

رابعها واولاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة وجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول فهو أقصر طريق واقربه الى الله واشمله لبني الانسان[١١].

ويرجع الاستاذ الى هذا الموضوع المهم، فيبسطه في اكثر من رسالة من رسائل النور، بمناسبات عدة. ففي المبحث الرابع من «المكتوب السادس والعشرين» يقول:

«إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين ان تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن المعجز تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب.

وأما المعرفة الصوفية فناقصة ومبتورة ايضا بالنسبة نفسها امام المعرفة القرآنية، ذلك لان اصحاب وحدة الوجود – كإبن عربي – يقولون: «لا موجود إلا هو» لاجل الحصول على الحضور القلبى الدائم امام الله سبحانه وتعالى حتى وصل به الامر الى انكار الكائنات. اما اصحاب وحدة الشهود فيقولون: «لا مشهود إلا هو» ثم يطبقون ستار النسيان المطلق على الكائنات.

---

(١١) المثنوى العربى النورى ص ٤٢٨.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم فضلا من انها لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق. بل تنقذها من الاهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه جاعلة من كل شئ مرآة تعكس المعرفة الالهية وتفتح في كل شئ نافذة الى المعرفة الالهية»[١٢].

ثم ان النورسي وصل الى نقطة مهمة تتصل بتحليل الكيان الانساني كله ومكوناته المتنوعة فيقول:

«ان الايمان لا يحصل بالعلم وحده، اذ ان هناك لطائف كثيرة للانسان لها حظها من الايمان فكما ان الأكل اذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع الى مختلف العروق حسب كل عضو من الاعضاء، كذلك المسائل الايمانية الآتية عن طريق العلم اذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فان كل لطيفة من لطائف الجسم ـ كالروح والقلب والسر والنفس وامثالها ـ تأخذ منها وتمصها حسب درجاتها. فان فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة اذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها»[١٣].

لقد جعل النورسي من رسائل النور نوافذ تظهر في غاية الصفاء والتناسق والوئام، تلك المعرفة الالهية التي تعتمد على القرآن وحده، الذي هو كتاب الكون الاكبر الذي يجد الانسان فيه حقيقة الحياة وحقيقة وجوده معا، بحديث في غاية الوضوح وبادلة في غاية اليقين.

إن المنهج المعرفي الذي اختاره النورسي لمواجهة طغيان الجاهلية في عصره، كان يرفده قرائين ثلاثة متلازمة:

---

(١٢) المكتوبات ص ٤٢٥.

(١٣) المكتوبات ص ٤٢٦.

اولها: القرآن المقروء، باصول عقائده واسرار شرائعه وقيم اخلاقه التي تشكل مذهبيته الشاملة في الوجود في اطار ضوابط التفسير الصحيح.

وثانيها: القرآن المنظور الذي هو الكون الذي التمس فيه الحقائق وراء آياته التي تجلت فيها اسماء الله الحسنى.

وثالثها: القرآن الناطق المطبِق الذي هو رسول الله ﷺ، الذي يقود الى الله في الدنيا والآخرة مراكب الانبياء والمرسلين والعارفين والشهداء والصالحين من عالمي الانس والجن اجمعين.

إذن فمنهج النورسي ليس منهجا مرحلياً بزمن معين، ولا كان علاجا لمشكلة معينة. وانما هو المنهج الذي يشكل السقف الراسخ فوق تاريخ الأمة الاسلامية، لكن بلغة العصر وحياة العصر وصراع العصر في مواجهة جاهلية العصر.

لقد كان علم المتكلمين السابقين من الكتب، اما النورسي فعلمه بدأ من الكتب وتجاوزه الى الكون كله ثم القرآن الكريم.

فشتان بين علم مجرد وعلم مطبق، وبين علم مقيد وعلم مطلق.

منهجه في الفكر الاسلامي:

فكر النورسي في كل ما عالج من قضايا الفكر الاسلامي فكر منضبط بضوابط الفهم الاصولي الذي اجمع عليه محققو علماء الاسلام. فهو يؤمن بالبناء علىٰ مشروعية القواعد الصحيحة ولا يؤمن بالابتعاد او الانحراف عنها. اي هو ينطلق من المنطق الداخلي الذي يربط بين اجزاء

الفكر والحضارة الاسلامية، ولذلك جاء فكره التجديدي استمرارا لمقومات الحركة الفكرية للأمة الاسلامية.

وكان هذا النوع من المنهج ضروريا لمواجهة انحرافات الحضارة الغربية التي كانت تريد ان توجد شروخا واسعة في جسم البناء الاسلامي.

إن أول ضابط من تلك الضوابط، هو القرآن الكريم الذي يفهمه النورسي في اطار المنهج الاصولي في تفسيره، الذي يعتمد علىٰ تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة النبوية الشريفة التي هي بيان للقرآن الكريم قولا وعملا وتقريرا.

وباللغة التي في اطارها يهتم بالسياق القرآني الذي يعبر عنه الترتيب الذي يتحدث عنه في تفسيره للآيات الأولى من سورة البقرة الذي سماه «اشارات الاعجاز في مظان الايجاز» في ضوء نظرية النظم الجرجانية(١٤).

وأما الضابط العقلي، فهو لا يتحرك إلا في اطر مخاطبة العقل الفطري من خلال قواعد المنطق دون ان يدخل في عرض مصطلحاته الجافة. كل ذلك من خلال عرض مشاهد الانفس والافاق والتغلغل في اسرارها.

ولعدم قبول النورسي الانتساب لمدرسة اسلامية فكرية محددة، بالزمان والمكان، ولعدم ايمانه باحيائها في عصرنا الحاضر، حتى لا تمزق المسلمين من جديد، فان فكره الاسلامي جاء شموليا وقرآنيا، بعيدا عن النظرات الضيقة والاخطاء البشرية المتنوعة في المنهج والمعرفة. ولذلك ظل فكره متوازنا يتجول في اوسع دائرة تأويلية ممكنة منضبطة، دون ان

(١٤) راجع مقدمة المؤلف للكتاب المذكور الذى حققه احسان قاسم الصالحى.

يجازف في تأويل النصوص تأويلا متعسفا بعيدا خاضعا لضغط معارك الإقدام والاحجام من الصراع الحضاري المعاصر، بين الحضارة الاسلامية والحضارة المادية الغازية.

ومن هنا، فان فكره جاء فكرا جامعا، أقرب الى الصواب، وأقدر في التعبير عن مذهبية الاسلام في الوجود.

ومن النادر، للمدرك الواعي ان يقف منه موقف الرفض او يختار امامه حائلا متسائلا.

ولا ادعي هنا العصمة والكمال للنورسي، ولكن استناده الى مدد الوحي الالهي القاطع المستقل عن الزمان والمكان، قد عصمه الى حد كبير من الانزلاق الفكري، في اخضاع النصوص الى متطلبات الحياة المتغيرة وعوارض قصور الفهم البشري البعيد عن هداية الكتاب والسنة.

* * *


الفصل الرابع

النورسي المجدد

إن النورسي مجدد لا نظير له، في مسلكه في العصر الحديث، لانه لم ينطلق من علم معين ولا بدأ من استاذ موجه، ولا اصطبغ في ما قال وما كتب وما فعل بمعارف محسوبة، علىٰ الرغم من اساتذته الكثيرين ودراسته علوما متعددة ومطالعته لمعارف واسعة، ولكنه انطلق انطلاقا قرآنيا من الكون كله؛ كلاً وجزء، وذاب في الكون كله ذرة ومجرة، وعبّر عن الكون كله بذرة وزهرة وثمرة.

لقد اطلعتُ في حياتي الدراسية والتدريسية علىٰ اساليب متنوعة في التجديد، وعلوم متنوعة في المعارف العامة والخاصة قدرما استطيع، وتتبعت حركة الفكر قراءة وتأليفا، فلم اقع على نموذج يقوم نضير النموذج النورسي فهو يكاد يكون متفرداً في فكره واسلوبه في المجال الذي الجأه اليه مجتمعه، وكان فذا بين العصور بملامحه ومشكلاته. ذلك لان النورسي لا ينقل علما محدوداً للناس، وانما ينقل لهم كيانه هو في تجربة كونية خصبة، تبدأ من اعماق نفسه المطمئنة الى اغوار الكون الباهر المعجز.

أي إنه نقل اليهم مشاعره المتأججة كلها، ليتحولوا الى النورسي نفسه، كي يفكروا كما كان يفكر، ويتذوقوا كما ذاق هو، ويهتاجوا كما اهتاج هو، ليحصل لهم اندماج ايماني عميق بالوجود كما حصل له هو ذلك الاندماج المطمئن الكامل.

وأنا بنفسي لم اشعر بهذه الفكرة اللافتة، عندما قرأت النورسي مجزّءً، وفي فترات متباعدة ومتفاوتة، ولكن عندما عدت اخيرا فقرأته القراءة الثانية كاملة موصولة، حصل عندي شيئ من ذلك الهيجان، كنت احسه في توارد رهيب للافكار، وقشعريرة خاشعة امام الكون، وفي دموع ساخنة محتبسة في العيون، وفي حركة دائبة لا شعورية، في غرفتي التي اقرأ فيها، فكأنني كنت اشعر بلا وعي تام ان النورسي قد عاد الى الحياة في كياني هذا الضعيف. وكان هذا هدف النورسي بوضوح تام. إنه أراد بإلهام رباني موفق ومتتابع، ان يلقي بالمسلمين في عصر هيجان ايماني كوني عظيم. لأن حضارة مادية ضخمة مغرية كحضارة الغرب، تلك التي واجهها النورسي، لم يكن يفيد في مواجهتها إلا مثل ذلك الهيجان الذي هو وحده كفيل باخراج المسلم من هوة عالم المادية اليهودية الالحادية الى سوح الصفاء الايماني القرآني بقوة وحسم ووضوح.

وإلا فقل لي بربك، كيف يمكن ان يحدث التغيير في المجتمع الاسلامي؟

ومن هنا فان النورسي إن قدِّمَ في ابحاث فكرية نظرية، او خطوات منهجية علمية، او دراسات تربوية محدودة، فانه يفقد كثيرا من اصالته ونصاعته، وانما يجب ان يبقى النورسي كما هو في تجربة كاملة، ومعرفة متوازنة، ودفقة ايمانية، ومنهجا شاملا من خلال هيجانه الاسلامي المتفجر ليحدث التأثير المطلوب.

إن تجديد النورسي لحياة المسلمين في تركيا ومحاولة صياغتهم صياغة ربانية كريمة في اطار انقاذ الايمان، والدعوة الى نظام الاسلام والتحرر من كيد الاعداء، كان في عالم معاصر وفي صراع حضارة معاصرة.

إنه يريد ان يجدد حياتهم في اطار الزمن الحاضر والمكان الحاضر والصراع الحضاري الحاضر، ولكن في حدود احقية القرآن واستاذيته، وقيادة الرسول الاعظم ﷺ والقيم الرفيعة النبيلة التي صاغت كتائب المجاهدين في الحياة.

وفي ذلك كان النورسي صاحب ادراك عميق بحقيقة تجديد امر الاسلام، في هذا العصر، وخطوات تجدد امة الاسلام في هذا الزمان.

إنه مجدد حقا، لانه لا يدعو الى النكوص الى الوراء، ولا الوقوف عند الزمن الحاضر وانما يؤمن بحركة الامة الاسلامية وتجديد الفكر الاسلامي الحضاري في كل عصر، موازيا للمستوي الحضاري الذي وصل اليه.

لقدحاول النورسي ان يصوغ المسلم الذي فرغ فؤاده من حب الله تعالى وعقله من الاستدلال والنظر، وسلوكه من الاستمتاع بالطيبات، صياغة ربانية متكاملة متوازنة، تعيد اليه صفاء فطرته وقوة انطلاقه في خلافته، حتى يكون بناؤه الحضارة بناء قويا متماسكا موزونا. اي إنه اراد انتزاع المسلم من عوامل النكوص القاتلة الى الماضي القريب الساقط، والحضارة الحيوانية الآسنة المشدودة خيوطها بمراكز القوى اليهودية والنصرانية والزندقة الحديثة.

لقد هضم النورسي الفكر الاسلامي في جوانبه كلها من خلال تطوره التاريخي المتقلب، تارة الى الامام وتارة الى الخلف. ولكنه لم يكن استمرارا جامدا لذلك الفكر، بل رجع مباشرة الى القرآن الكريم، وعرض عليه عصره بمشكلاته كلها، واستعمل آليات عصرية جديدة في اللغة والمصطلح والفكر من أجل أن يدفع ابناء بلده وعصره مرة اخرى الى قلب

القرآن الكريم. من خلال تفسير شهودي عصري رائع جدا ودقيق جدا، طابق فيه بين القرآن المقروء والقرآن المنظور والقرآن الناطق المطبق، لتتفق حقائق الوحي مثالا وتطبيقا مع حقائق العلم المعاصر، فيكسر الحدود المصطنعة التي وضعت بين علوم الدنيا وعلوم الدين في القرون الاخيرة، لاسيما بعد رسوخ نظرية فصل الدين عن العلم في العالم.

ومن حيث التنفيذ، فلقد كانت دعوته الى تأسيس جامعة متكاملة. تجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا مندمجة، مظهرا من أدق وأصوب مظاهر نظريته التجديدية التي اهملت كثيرا من مظاهر الفكر الاسلامي القديم ليدفع المسلمين الى تجاوزها. لانه ادرك بعمق ان تلك المناهج الفكرية التراثية، لن تستطيع الوقوف امام الاغراءات الفكرية لمناهج الحضارة المادية.

ومن هنا فانه ترك منهج علم الكلام القديم في حديثه التجريدي الجامد عن الله والنبوة واليوم الآخر ولجأ الى منهج القرآن الكريم للدمج بين هذه الحقائق الكونية في نسق موحد، يعتمد صفحات الكون المفتوحة المنقوشة، بحقائق معاني اسماء الله الحسنى، بحيث يتحول في النهاية كل اسم الى كون قائم بذاته، يتجسد في العقول، وينطبع علىٰ القلوب، وينجلي على السلوك معنى: الله، والنبي، واليوم الآخر.

ولما كان النورسي ينطلق من القرآن الى الكون ويرجع قافلا من الكون الى القرآن، فقد اهتم باثبات اعجاز القرآن، كي يثبت لقارئ رسائله انه امام كتاب رباني فريد يضع حقائق الوجود كله جاهزة امامه.

إن كثيرا من علماء الاسلام وامراء البيان وفرسان البلاغة، تحدثوا عن اعجاز القرآن، من حيث فصاحة الفاظه، ودقّة نظمه، واسرار معانيه،

وجمال اساليبه، وتنوع بيانه، وعمق مضمونه، وجلال تكراره، وجمال ترتيبه، وأتوا بذلك من العلم الغزير والمقارنات الرائعة والحديث المقنع، حتى ان باحثا عن الحق، منصفا، لو جاء فتعمق في تلك الدراسات وصرف الاوقات في فهم اعجاز القرآن في ضوئها، لوجد نفسه ضرورة أنه امام كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد كتب النورسي كغيره من العلماء الراسخين والبيانيين الذواقين من عارفي اسرار اللغة وجمال التعبير عن اعجاز القرآن، الا انه لم يردد ما قالوا، ولم ينقل ما سطروا، وانما زيادة على منهج السابقين اهتم بتعميقه وتوسيعه وتطبيقه علىٰ آيات كثيرة[1]، دخل بتوجيه عبقريته الفذة وذوقه الرفيع وقدرته السريانية في النفوذ الى أدق الاشياء وادراك اعمق المعاني، الى مجال آخر يناسب أتون الصراع في عصره بين الفلسفة المادية والمعارف الالهية، في وضع غير متكافئ حضاريا بينهما، ألا وهو الاعجاز الكوني في القرآن الكريم.

لقد أثبت النورسي اعجاز القرآن، من تعبيره عن حركة الوجود بجامعية متوازنة، تربط بين المعرفة الكونية الشاملة التي تقضي علىٰ النظريات التجزيئية والفهم المبتور والفصل بين الاصول والفروع وبين الخالق والمخلوق وبين الكائنات العلوية والسفلية وبين اعماق النفس الانسانية واعماق الكون المحيط به.

لقد وضع القرآن الكريم في ضوء فهم هذا المنهج اساسا منطقيا متينا وذوقيا وواقعيا لوحدة النظرة الكونية التي تتضاءل امامها النظرة التجزيئية، في اي شأن من شؤون الحياة، وفي اي مفصل من مفاصل تضارب الانماط

(١) اقرأ كتابه «اشارات الاعجاز في مظان الايجاز».

والانواع في الوجود الكوني من داخل الذرة الى أبعد نقطة في تشكيل مجرة.

وعلى هذا الاساس وضع القرآن الكريم الانسان في مركزه الحقيق به في الكون وجعله ثمرة يانعة لنظام الكون الجميل، ورتب على ذلك حياته ترتيبا رائعا جميلا يعتمد فطرة الحياة في انظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، كأنه هرم كوني معنوي عظيم جدا من النقطة الأعلى منتهيا مدرجا مرتبا ليفرش قاعدته علىٰ الحياة الانسانية كلها.

لقد حول النورسي اعجاز القرآن الى معركة خصبة، يتحدى فيها الاسلام، في هذا العصر البائس كفر الكافرين ونفاق المنافقين وردة المرتدين، الذين ضللتهم فلسفات اوربا الجاحدة فأردتهم الى الحضيض وأفسدت كيانهم، وحيرت عقولهم، وأخرجتهم من عبوديتهم لله الى عبودية المردة والشياطين، ومن البشر المكرمين في الوجود الى قطيع من الحيوانات، تحصر مهمتها في الشهوات الجسدية وحدها.

إقرأ ما أفرزه فكره العميق، وعبّر عنه يراعه البليغ في الكلمة الخامسة والعشرين[٢] قراءة فهم وامعان تجد هذه الحقائق واضحة صريحة قوية.

إنه يريد ان يقول للمسلمين امامكم الكون كله في القرآن، فلماذا تختارون الذي هو ادنى بالذي هو خير.

وامامكم نظام اجتماعي مترابط يعتمد على ذلك الكون؛ فلماذا تختارون حياة اوربا وقوانين اوربا وفلسفات اوربا وعهر اوربا.

إذن فلقد انتقل الاعجاز القرآني علىٰ يد النورسي من علم تذوق محدود الى مادة هائلة في صراع المسلمين مع اعدائهم في مجالات الحياة

(٢) الكلمات ص ٤٢٢.

العقيدية. وعد اعجاز انظمة الحياة في الاسلام دليلا على تفوقه على انظمة العصر الحاضر، المتمرد علىٰ الخالق العظيم.

ولعل سائلا يقول: كيف يكون النورسي مجددا، مع وجود جمال الدين الافغاني ومحمد عبده والسنوسي ومحمد اقبال قبله، وحسن البنا وعبد الحميد بن باديس بعده؟

نقول: إن الحديث الذي رواه ابو داود وجمهرة كبيرة من المحدثين، والذي يقول فيه الرسول ﷺ «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣] او امر دينها، لا يدل علىٰ ان المجدد في العصر الواحد يكون واحدا، لان «من» يدل علىٰ الجمع كما يدل على المفرد.

إذن فمن الممكن ان يأتي في عصر واحد اكثر من مجدد، لاسيما في هذا العصر الأخير، الذي سقط فيه المسلمون سقطة كبيرة، وجابهتهم فوق ذلك حضارة جاهلية كافرة شاملة، استعمرت بلادهم، وغيرت احوالهم وسفهت مفاهيمهم، وشككتهم في دينهم وهددت وجودهم بالفناء.

فكان من رحمة الله بالمسلمين ان بعث مجددين كثيرين، وفق الله تعالى كل واحد منهم لتجديد ناحية من نواحي حياة المسلمين في امور دينهم ودنياهم.

فالافغاني جاء بعد ليل طويل، ليوقظ الهمم ويحارب الفساد وينعي على التأخر الذي اصاب حياة المسلمين، ويدعوهم الى العودة الى الكتاب والسنة ونبذ التعصب المذهبي والابتعاد عن البدع والمفاهيم الخاطئة التي دخلت في حياتهم، ويثير فيهم الغيرة الاسلامية لمقاومة المستعمرين واعداء

---

(٣) ابو داود – كتاب الملاحم٣١، تأريخ الخطيب ٢/٦١ نشر دار الكتاب العربي. سلسلة الاحاديث الصحيحة للالباني ٢/١٥٠ رقم ٥٩٩ – المكتب الاسلامي.

لاسلام والاخذ باسباب القوة والحضارة والوحدة ومحاربة الاستبداد واسترجاع الامجاد(٤).

ودعوة السنوسية التجديدية قامت على اساس التمسك بالكتاب والسنة الصحيحة، وفهم الاسلام علىٰ اساسهما، بعيداً عن البدع والتعصب المذهبي، داعيا الى تحريك العقل الاجتهادي، لتجديد الفكر الفقهي الذي لا يقف عند العصور الماضية، بل يتعداه الى معالجة مشاكل المسلمين في زمانه وكان الاسلوب المفضل عنده هو عرض هذه الحقائق في كتب ورسائل، وتربية الناس عليها من خلال العبادة، وتهذيب الروح الذي تجسد في طريقته التي عرفت بالسنوسية والتي جمع فيها بين العلم والعمل، والتي اثمرت مئات الزوايا السنوسية التي انتشرت في انحاء كثيرة من قارة افريقيا وابلت بلاء حسنا في مقاومة المستعمرين(٥).

وأما الشيخ محمد عبده، فقد قام بدور تجديدي كبير في تفسير القرآن الكريم، حيث ترك المناهج القديمة، وطابق بين القرآن والحياة وجعله هداية للجيل الجديد، وناقش من خلاله مشكلات العصر في عقلانية اسلامية اصولية، بمقابلة عقلانية اوربا الجاحدة، وردّ علىٰ اعداء الاسلام فيما افتروه على الاسلام من اكاذيب وشبهات ودعا الى اصلاح التعليم في الأزهر والمعاهد الدينية(٦).

واما دعوة محمد اقبال، فقد انصبت علىٰ فهم عقيدة التوحيد، لأنها الأكسير الذي يجعل التراب ذهبا، والسر الذي يتجلى منه الدين والشرع

(٤) جمال الدين الافغاني – للمؤلف ص ٣٣ وما بعدها.
(٥) حاضر العالم الاسلامي، شكيب ارسلان ٢/١٤١ط٤ دار الفكر بيروت.
(٦) المنار ١/١٤، ٧١ و١١/٣٧٤ وتجديد الفكر الاسلامي ٧٦ – ٨٣.

والحكمة والقوة والسلطان والدواء الذي يميت الخوف والشك، ويحى العمل والأمل، ويقهر كل صعب، ويذلل كل عقبة[٧].

ودعا اقبال الى فهم الذات كي يستيقظ المسلمون ويسترجعوا عزتهم وكرامتهم. ودعا الى التغيير الدائم في اطار ضوابط الشريعة، والى تحرير الفكر الاسلامي. وحارب اقبال التصوف الفلسفي والطرقي محاربة شديدة واثبت ان الرهبانية ظهرت في كل امة من اجل ابطال الشرع والقانون.

ويرفض اقبال المنطلقات المادية والقيمية للحضارة الغربية. وأما موقفه من الاستعمار الغربي لبلاده، فكان موقف المناضل الصلد الذي فضح مظالمه وألاعيبه ومؤامراته.

وقد أحدث اقبال تجديدا كبيرا في حياة المسلمين في الهند ووضعهم علىٰ طريق الاسلام وشرح لهم حقائقه وملأ قلوبهم بالايمان والحماس لقضيتهم[٨].

وأما دعوة الامام الشهيد حسن البنا، فقد كانت دعوة تجديدية حركية، تبنت مذهبية الاسلام الشاملة في الوجود، منطلقا من القرآن الكريم، مواجها جاهلية القرن العشرين مواجهة ربانية واعية في اطار اصول واضحة، حتى تضم المسلمين جميعا في جبهة واحدة وخندق واحد. وكانت دعوته تعتمد تربية الفرد المسلم والاسرة المسلمة فالمجتمع المسلم.

وقدم الاستاذ البنا نظاما اسلاميا متكاملا؛ دمج فيه بين العقيدة والعبادة والحكم والسياسة والاقتصاد والجهاد. انطلق فيه من اصول الاسلام المجمع عليها، ليقدم الحلول المستنيرة لمشاكل العصر. ولم يكتف بكل ذلك، بل

(٧) فلسفة اقبال ١٠٣ محمد حسن الاعظمى والصاوى شعلان ط٢ دمشق ١٣٩٥هـ.
(٨) محمد اقبال ــ عبدالوهاب عزام ص ٩٩ ــ تجديد الفكر الاسلامى ص ٨٤.

حاول ان يجسد كل ما دعا اليه في تربية النشأ الجديذ على الاسلام، في اطار اكبر حركة اسلامية في هذا العصر احدثت وعيا عميقا في العالم الاسلامي كله، وفي تأسيس المؤسسات الاقتصادية العمالية المشتركة لاظهار قوة الانتاج وعدالة التوزيع في الاقتصاد الاسلامي. وكان ذلك في رأيه الخطوة الاولى نحو تغيير الاوضاع الحضارية المتردية في المجتمع الاسلامي(٩).

وأما الشيخ عبدالحميد بن باديس، فقد انطلق من تفسير القرآن الكريم ليقوم ببناء كيان اسلامي ثابت الاركان في الجزائر، استرجاعا لاصالتها العربية الاسلامية، والقيام بثورتها التاريخية المجاهدة، من اجل استخلاص الحقوق وطرد المستعمر الفرنسي..

وقد لجأ الى مخطط ذكي لنشر التعليم في الجزائر وتوعية ابنائها بثقافة اسلامية اصيلة، تشعرهم بهويتهم وخصائص امتهم وتضعهم علىٰ خط المواجهة التاريخية المسلحة ضد المستعمر الظالم، وذلك بفتح المدارس والمعاهد واصدار الجرائد والمجلات ونشر الكتب الاسلامية الصحيحة في العقيدة والشريعة والسلوك وارسال البعثات العلمية الى الجامعات الاسلامية في الأزهر والزيتونه والقرويين وتأسيس النوادي الثقافية والرياضية(١٠).

أما ظروف مجتمع النورسي القاسية التي فرضت الالحاد والزندقة بقوة الحديد والنار علىٰ المسلمين، فقد دفعته الى التركيز علىٰ اتجاه آخر، والتوسع فيه، وصرف حياته كلها في سبيل توضيحه وتفهيمه، وهو تجديد علم الكلام تجديدا واضح المعالم، قوي الاركان، بحيث اوجد علم كلام

---

(٩) مجموعة رسائل الامام الشهيد ص ٣٨٨، ٣٩٤ – ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠ – ٤٠٤والاخوان المسلمون – رؤية من الداخل – محمود عبدالحليم – الجزء الاول.

(١٠) تجديد الفكر الاسلامى للمؤلف ص ٩٥ وما بعدها

جديد قرآني، استطاع من خلاله نقل علم التوحيد من نظريات فكرية مجردة يفمها الخاصة ايمانا عقليا مجردا، الى سلوك في الحياة ينفعل به العقل وتثور العاطفة، ويتحول الى ممارسة يومية. يحدد خط السير المستقيم للانسان المسلم، ويحول بينه وبين الوقوع في الحرام.

إن علم الكلام استطاع في فترات الجدال العقلي بين الخاصة ان ينقذ الايمان العقلي، ولكنه لم يستطع ان يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية تحقق المعنى الحقيقي لعبودية الانسان لرب العالمين.

أى إن علم الكلام لتأثره الواضح بالمنهج الفلسفي الجاف لم يستطع ان يتحول الى مدرسة للتربية الاجتماعية. ولذلك فان مجرد ايمان المسلمين بالله لم ينقذ سلوكهم في العصور الاخيرة من كارثة البعد والشرود التي أدت الى انحدارهم وسقوطهم، وفقدان حقائق التوحيد من حياتهم..

لقد استطاع النورسي ان يحدد المرض الخطير في جسم الأمة، ثم عالجه معالجة قرآنية خالصة، فحول عقيدة التوحيد الى حياة مفعمة بمعاني الاخلاص والاستقامة والتضحية والسلوك، وحصن تلامذته في تركيا بقاعدة ايمانية صلبة، الحقت الهزيمة في بيئات كثيرة بالمذاهب المادية والافكار الاباحية التي كانت تريد تحريف الانسان المسلم عن خط سيره الذي رسمه له القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وهكذا نرى ان هؤلاء المجددين الذين جاؤوا في عصر واحد متقارب انطلقوا جميعا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، واندمجوا بمشكلات مجتمعهم. وعبّر كل منهم عنها باسلوبه الخاص المناسب لظروف بلده، ولكن في وحدة عقيدية واضحة، واساس فكري اسلامي شمولي موحد، يستقرؤها الباحث من كتاباتهم. ولقد فعلت ذلك في دراستي عن «تجديد الفكر

الاسلامي»[11] وفي اثناء تدريسي الطويل لمادة الفكر الاسلامي الحديث في جامعة بغداد وغيرها.

وعلىٰ الرغم من كل ذلك التقارب الفكري التجديدي بين المجددين الاسلاميين، يبقى هنالك تقارب اكبر بين الامام حسن البنا والامام النورسي، وبين حركتيهما «النورية» و«الاخوان المسلمون». وقد كان النورسي يدرك تمام الادراك هذا الاتحاد الثابت بين الحركتين، من بين الحركات الاسلامية جميعها، يظهر ذلك في رسالة خاصة امر تلامذته بارسالها الى الاخوان المسلمين في مدينة حلب.

يقول النورسي:

«بالنسبة للتهنئة التي كتبها الى من حلب أحد اعضاء الاخوان المسلمين، فاننا بالمقابل نهنئ الاخوان المسلمين من صميم قلوبنا وارواحنا ونقول لهم:

بارك الله فيكم الف مرة. إن طلاب النور يمثلون الاتحاد الاسلامي في الاناضول. اما في البلاد العربية فان الاخوان المسلمين هم الذين يمثلون الاتحاد الاسلامي. إن طلاب النور والاخوان المسلمين — من بين صنوف عديدة — يشكلان صفين مترافقين ومتوافقين ضمن حزب القرآن، وضمن دائرة الاتحاد الاسلامي المقدسة، وقد سعدنا باهتمامهم الجدي برسائل النور وبعزمهم على ترجمة بعضها الى اللغة العربية، ونحن نحمل لهم شعور العرفان بالجميل. لذا فارسلوا جوابا لمن ارسل لي بطاقة التهنئة باسم جمعية الاخوان المسلمين، وارجو منهم ان يقوموا برعاية طلاب النور ورسائل النور هناك»[12].

---

(١١) ص ٧٥ – ١٠٣.

(١٢) الملاحق – ملحق اميرداغ.





الفصل الخامس

صياغة المذهبية الاسلامية في الوجود

لم يقتصر النورسي علىٰ موضوعات علم الكلام القديم التي كانت تشمل: الالهيات والنبوات واليوم الآخر والقضاء والقدر، بكل تفاصيلها المصطلحية، وانما تجاوز ذلك الى بيان المذهبية الاسلامية الشاملة في الوجود[1] حسب متطلبات العصر. ذلك لانه وجد نفسه والامة كلها امام جاهلية حضارية ضخمة لا تقتصر علىٰ البحث في الموضوعات الكلامية الاربعة، وبمصطلحاتها عينها، وانما تتجاوزها الى الانسان والطبيعة، فبحث هو عن الانسان والطبيعة زيادة علىٰ تلك الموضوعات. فغدا مخططه الكلامي الحديث مواجها تماما لمخطط الغرب «الايديولوجي» في اقتحام الموضوعات المذكورة من وجهة نظر فلسفاته المادية.

ان علم الكلام لم يستطع في القرون الاخيرة ان يؤدي دوره الحاسم في الصراع الفكري مع الفلسفات المادية في الغرب من جهة، واما من جهة اخرى، فقد حول التوحيد الفطري القرآني بشموليته الكونية الى قضايا منطقية صارمة، واحاجي عقلية معقدة، قطع صلته باوضاع التغيير الحضاري وامداد الانسان المسلم بقاعدة فكرية واقعية، يعيشها ويرى من

(١) استعمل المذهبية الاسلامية في كتاباتي بمقابلة «الايديلوجية» في الثقافة الغربية، من اجل ان نتميز باصطلاحات خاصة تعبر عن المنطق الداخلي لحضارتنا الاسلامية.

خلالها آماله واحلامه، ويدرك في ضوئها حياته المتطورة، ويحفظ عليه توازنه، وسط تيارات انسانية مادية واقعية، تهتم اول ما تهتم بكفاح الانسان ومشاكله المتولدة، من ملامح العصر الصناعي الجديد الذي يعتمد علىٰ الواقعية والتنظيم وحسابات الارقام وتسخير قوانين المادة.

لم يدرك علماء الاسلام في القرون الاخيرة طبيعة الظروف التي ظهر فيها علم الكلام، وظلوا ينظرون الى موضوعاته ومصطلحاته نظرة تقديسية، وكأنها هي الممثلة الوحيدة للعقيدة الاسلامية في صورتها المثلى الثابتة. فلم يحاولوا ادخال التغيير عليه شكلا وموضوعا، كي يرفد الحياة بقاعدة فكرية رصينة تشترك في استنباط المذهبية الاسلامية الشاملة من واقع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة(٢).

ومن هذا المنطلق فان النورسي عدل عن المادة المعرفية والمصطلحية لعلم الكلام القديم، واتجه الى تقديم علم كلام جديد، من خلاله بيّن المنظور الاسلامي الشامل الى الوجود، بمنهج قرآني رصين، في مفاصل الصراعات كلها، بين الحضارة الاسلامية الربانية وحضارة الغرب المادية. ونحن هنا نعرض هذا الصراع على الوجه الآتي:

* * *

---

(٢) أزمة المثقفين تجاه الاسلام ص ١٤ ط / الدار البيضاء

وجود الله سبحانه وتعالى

مرّ بنا قبلُ كيف ان اللادينيين الذين مكّنهم الغرب الكافر من تسلم الحكم في تركيا حاولوا ان يطمسوا معالم الاسلام بكل ما أوتوا من قوة الدولة والثقافة والاعلام. بنشر فلسفات الالحاد وتدريسها في المدارس كافة. تمهيدا لاقتلاع جذور الايمان من نفوس ابناء الجيل الجديد.

وشعر النورسي بالخطر العظيم. وكان يعرف بدقة جذوره ومكره واغراءه، تحت مظلة العصرنة والتقدمية والدخول في العالم الحضاري الجديد. فبدأ بخطوات انقاذ الايمان، مستعينا بالله الكريم ومستندا على المدد الكوني العظيم لآيات القرآن الكريم. وكان اثبات وجود الله شغله الشاغل، في رسائل النور كلها. ولم يظهر في تاريخ الاسلام متكلم اهتم بهده القضية بهدا التوسع والتعمق، حيث سوّد الوف الصفحات بالحديث عنها، وتقديم الأدلة العقلية والقلبية والنفسية والاخلاقية كلها، عارضا إياها باقوى منطق وابلغ كلام.

ولا بدّ ان نبدأ بعرض موقفه من الالحاد أولا حيث إنه يعتقد ان الالحاد ليس مبيناً علىٰ علم يقيني ولا حتى علىٰ علم تخميني. لانه يعتمد «النفي» الذي يستند الى مجموعة من النظريات المتفرقة الخاصة، بينما الايمان يعتمد علىٰ «الاثبات» الذي كلما تعدد مثبتوه فان النتيجة تكون أقوى لأنهم يتساندون جميعا. ثم إن النفي لا يمكن اثباته لأنه يلزم ان تكون الرؤية محيطة وشاملة لما في الكائنات ولأرجاء الدنيا والآخرة كافة

وشهود الزمان الذي لا يحد بآفاقه واطرافه جميعا حتى يثبت مثل هذا النفي.

إذن فماهية الكفر هي: انكار وجهل ونفي. ومعناه عدم ونفي.

اما الايمان فهو: علم ووجود واثبات واقرار وحكم.

ويضرب النورسي مثالا علىٰ ذلك فيقول:

«إذا أثبت شاهدان من عامة الناس رؤية الهلال في اول رمضان، ونفى الرؤية آلاف من الوجهاء والعلماء قائلين: «اننا لم نر الهلال»، فان نفيهم هذا يبقى غير ذى قيمة ولا أهمية، ذلك لان بالاثبات يؤازر الواحد الآخر ويشدّ عضده ويقويه. ففيه تساند واجتماع. بينما النفي لا فرق فيه بين ان يكون صادراً عن شخص واحد او الف شخص، إذ النافي منفرد، باعتبار انه وحده الذي ينفي. ذلك لان المثبت ينظر الى الأمر نفسه ثم يصدر حكمه، كما هو الحال في مثالنا، إنه إذا قال احدهم: هو ذا الهلال في السماء، فان الآخر يصدقه ويؤيده مشيراً الى المكان نفسه، فيشتركان في النظر الى المكان نفسه، فيتساندان ويقوى حكمها ويرسخ. اما في النفي والانكار فالنافي لا ينظر الى الامر نفسه ولا يسعه ذلك، لذا أصبحت القاعدة «لا يمكن اثبات النفي غير الخاص وغير المحدود مكانه» قاعدة مشهورة»(٣).

بعد هذه المقدمة ننتقل الى عرض ادلته علىٰ وجود الله تعالى:

الدليل العلمي:

عاش النورسي في عصر غدا العلم ابرز مظهر من مظاهر الحضارة الحديثة. حيث اقتحم مجالات الحياة كلها، محاولا اكتشاف قوانينها من

---

(٣) الشعاعات ص ١٣٦

الذرة الى المجرة. ولم يكن يعيش ككثير من العلماء بمعزل عن تلك التطورات والانجازات الرائعة، فاطلع عليها وقرأها قراءة متفحصة، فاستعمل نتائجها وقوانينها ادلة معجزة على وجود الخالق العظيم.

يظهر ذلك في كل صفحة من صفحات رسائله النورية.

مثال ذلك جوابه على طلب فريق من طلبة الثانوية في «قسطموني»: «عرّفنا بخالقنا فان مدرسينا لا يذكرون الله لنا».

فقال لهم:

«ان كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن الله دوما، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا الى تلك العلوم دون المدرسين..

فمثلا: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها ادوية ومستحضرات حيوية، وضعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها ترينا ان وراءها صيدلياً حكيماً وكيميائياً ماهراً، كذلك صيدلية الكرة الارضية التي تضم اكثر من أربعمائة ألف نوع من الاحياء – نباتا وحيوانا – وكل واحد منها في الحقيقة بمثابة زجاجة مستحضرات كيمياوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة فهذه الصيدلية الكبرى تُري حتى للعميان صيدليّها الحكيم ذا الجلال، وتعرّف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، قياسا على تلك الصيدلية التي في السوق، على وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه.

ومثلا: هب ان ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ الا تُري باعجاب وتقدير أن هناك مهندساً حاذقاً، وكهربائيا بارعاً لمصنع الكهرباء، ولتلك المصابيح؟ فمصابيح النجوم المتدلية من سقف قصر الارض وهي اكبر من الكرة الارضية نفسها بألوف

المرات – حسب علم الفلك – وتسير اسرع من انطلاق القذيفة من دون ان تخل بنظامها، او تتصادم مع بعضها مطلقا ومن دون انطفاء، ولا نفاد وقود على وفق ما تقرأونه في علم الفلك. هذه المصابيح تشير باصابع من نور الى قدرة خالقها غير المحدودة، فشمسنا مثلا؛ وهي اكبر بمليون مرة من كرتنا الارضية، وأقدم منها بمليون سنة ماهي الاّ مصباح دائم، وموقد مستمر لدار ضيافة الرحمن. فلأجل ادامة اتقادها واشتعالها وتسجيرها كل يوم يلزم وقوداً بقدر بحار الارض، وفحماً بقدر جبالها، وحطباً بقدر اضعاف اضعاف حجم الارض، ولكن الذي يشعلها – ويشعل جميع النجوم الاخرى امثالها – دون وقود ولافحم ولا زيت ودون انطفاء ويسيّرها بسرعة عظيمة معاً دون اصطدام، انما هي قدرة لا نهاية لها وسلطنة عظيمة لاحدود لها.. فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح – على وفق مقاييس علم الكهرباء الذي قرأتموه أو ستقرأونه – سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّره ومدبرّه البديع وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه الى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم الى عبادته سبحانه» (٤).

وهكذا يستمر النورسي في الحديث عن مظاهر اخرى في عالم الانفس والافاق من خلال ثمرات علوم متنوعة، لاثبات هذه الحقيقة الكبرى.

دليل الحدوث:

يبعد النورسي هذا الدليل عن اساسه القديم القائم على المصطلحات التجريدية، فيعرضه باسلوب مناسب لعقلية العصر بحيث يبعدها عن

(٤) الشعاعات ص ٢٥٧.

مصطلحاتها الجافة «الجوهر والعرض» وينزل بها الى مستوى الدليل المحسوس ليأخذ بعضها برقاب البعض الآخر، لايصال الناس الى معرفة الخالق الواهب الرازق.

إقرأ له قوله:

«نعم ان حقيقة الحدوث قد استولت على الكون، فالعين ترى اكثرها، والعقل يرى القسم الآخر منها؛ ذلك لاننا نشاهد انه مع حلول الخريف في كل سنة يموت عالم عظيم جداً، فتموت معه أفراد غير محدودة لمائة ألف نوع من النباتات والحيوانات الصغيرة، كل نوع منه بحكم كون ذي حياة. ولكن ذلك الموت يجري في غاية الانتظام، بحيث تودع تلك الافراد بذورها ونواها وبويضاتها - التي تصبح مداراً لحشرها ونشورها، والتي هي بذاتها معجزات الرحمة والحكمة وخوارق القدرة والعلم - تودعها امانة لدى حكمة الحفيظ ذي الجلال، وتحت رعايته وحمايته، مسلمةً الى ايديها صحف اعمالها، وبرامج ما قدمت من وظائف، وبعد ذلك تموت.. وبحلول موسم الربيع تبعث باعيانها تلك التي توفيت من الاشجار والاصول والحيوانات الصغيرة. وتحيا وتخلق امثال ومشابهات قسم اخر منها في أماكنها. فتمثل بذلك مائة ألف مثال ونموذج للحشر الاعظم ومائة ألف دليل عليه. فموجودات الربيع الماضي بنشرها لصحائف ما قامت بها من اعمال، وما ادت من وظائف، واعلانها تلك الصحائف في هذا الربيع، تظهر بوضوح مثالاً للآية الكريمة:

﴿ وإذا الصُحُفُ نُشِرَت ﴾(التكوير: ١٠).

وكذا من جانب الكون ككل؛ ففي كل خريف وفي كل ربيع يموت عالم كبير، ويأتي الى الوجود عالم جديد، وما فيهما من الوفيات والمواليد

لأنواع لاتحصى من الاحياء تجري في غاية الانتظام والميزان، حتى كأن الدنيا محط ومنزل، يستضاف فيه الكائنات الحية، فتأتيها عوالم سيّاحة ودنى سيارة تؤدي فيها وظائفها، ثم ترحل عنها وتغادرها.

وهكذا فان إحداث عوالم ذات حياة، وايجاد كائنات موظفة في هذه الدنيا، إحداثاً وايجاداً بكل علم وحكمة، وميزان وموازنة، وانتظام ونظام، واستعمالها بقدرة، واستخدامها برحمة في المقاصد الربانية، وفي الغايات الإلهية، وفي الخدمات الرحمانية، تدل بالبداهة على وجوب وجود ذاتٍ مقدسة جليلة لاحدّ لقدرتها، ولانهاية لحكمتها، ويظهرها للعقول واضحة كالشمس. إنه سبحانه ذو قدرة وحكمة لا نهاية لها»(٥).

دليل الضرورة الكونية:

يحتاج هذا الكون الى قيوم يكون قائما بذاته، دائما بذاته، باقيا بذاته. وتكون الاشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، تبقى في الوجود به. فلو انقطع هذا الانتساب للقيومية من الكون باقل من طرفة عين يمحى الكون كله.

هذه الضرورة الكونية المتلازمة تأتي عند النورسي من ان عدم الايمان بالخالق يستلزم منطقيا الايمان بمليارات المليارات من الخالقين في الوجود كله. وهذا محال ولا ضرورة عقلية تستدعيه، لان الايمان به ينتهى الى فساد عظيم في الفكر والى اضطراب عظيم في الكون. وهو ينسج هذا الدليل شيئا فشيئا عبر حديث رائع عن مشاهد الكون وعملها المعجز فيقول:

---

(٥) الشعاعات ص ١٨٢.

« فلابد لهذا الكون العظيم من خالقٍ حكيم عليم قدير مطلق، لأن هذا الكون انما هو كالقصر البديع؛ الشمسُ والقمر مصابيحه، والنجوم شموعه وقناديله، والزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال ـ في كل سنة ـ عالماً آخر يبرُزه للوجود، مجدّداً فيه صوراً منتظمة في ثلاثمائة وستين شكلاً وطرازاً، مبدلاً اياه بانتظام تام، وحكمة كاملة، جاعلاً سطح الارض مائدة نِعمٍ، يزيّنها في كل ربيع بثلاثمائة ألف نوع من أنواعِ مخلوقاته، ويملؤها بما لا يعد ولا يحصى من آلائه، مع تمييز كلٍ منها تمييزاً كاملاً، على الرغم من تداخلها وتشابكها.. وقس على هذه الاشياء الامور الاخرى.. فكيف يمكن التغافل عن صانع مثل هذا القصر المنيف؟

ثم، ما اعظم بلاهة منٍ ينكر الشمس في رابعة النهار، وفي صحوة السماء! في الوقت الذي يُرى تلألؤ أشعتها، وانعكاس ضوئها، على زَبَد البحر وحِبابه، وعلى مواد البر اللامعة وعلى بلورات الثلج الناصعة، لأن انكار الشمس الواحدة ورفضها ـ في هذه الحالة ـ يستلزم قبول شُميسات حقيقية اصيلة، بعدد قطرات البحر وبعدد الزَبَد والحباب وبعدد بلورات الثلج! ومثلما يكون قبول وجود شمسٍ عظيمة في كل جزيئة ـ وهي تسع ذرة واحدة ـ بلاهةً، فان عدم الايمان بالخالق ذي الجلال، ورفض التصديق بأوصاف كماله سبحانه ـ مع رؤية هذه الكائنات المنتظمة المتبدلة والمتعاقبة بحكمة في كل آن والمتجددة بتناسق وانتظام في كل وقت ـ ضلالة ادهى ولاشك، بل هذيان وجنون.. لأنه يلزم اذ ذاك قبول ألوهية مطلقة في كل شئ حتى في كل ذرة!.

لأن كل ذرة من ذرات الهواء ـ مثلاً ـ تستطيع أن تدخل في كل زهرة، وفي كل ثمرة، وفي كل ورقة، وتتمكن ان تؤدي دورها هناك. فلو لم تكن

هذه الذرة مأمورةً ومسخرةً للزم أن تكون على علمٍ باشكال ما تمكنت من الدخول فيه، وبصورته وتركيبه، وهيئته، أي يجب ان تكون ذات علم محيط، وذات قدرة شاملة كي تستطيع القيام بذلك!!

وكل ذرة من ذرات التراب ـ مثلاً ـ يمكن ان تكون سبباً لنشوء البذور ونمو أنواعها جميعاً. فلو لم تكن مأمورة ومسخّرة للزم أن تحتوي آلات وأجهزة معنوية بعدد انواع الاعشاب والاشجار، أو يجب منحها قدرة ومهارة بحيث تعلم جميع اشكال تراكيبها، فتصنعها، وتعرف جميع صورها، فتنسجها.. وقس على هذا سائر الموجودات، حتى تفهم أن للوحدانية دلائل واضحة باهرة في كل شئ.

نعم، ان خلق كل شئ من شئ واحد، وخلق شئ واحد من كل شئ، انما هو عمل يخصّ خالق كل شئ. فتدبر وتأمل في قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾. واعلم ان عدم الاعتقاد بالاله الواحد الأحد يستلزم الاعتقاد بآلهة عدة بعدد الموجودات!»(٦).

والنورسي يكرر هذا في اماكن كثيرة من رسائله، لأن ما نجده في الكون من قدرة موحدة خالقة تظهر علىٰ كل قطرة وكل بذرة وكل ثمرة، وعلى مليارات المليارات من اجزاء الكائنات في عوالم الأنفس والافاق، استمع اليه وهو يلخص كلاما له طويلا في هذا الباب فيقول:

« حاصل الكلام انه لو لم تسند صور الشميسات المشرقة وانعكاسات الالوان المختلفة في القطرات وقطع الزجاج الى ضوء الشمس، ينبغي عندئذ قبول شموس لا تحصى بدلا من شمس واحدة. مما يقتضي التسليم بخرافة محالة، كذلك لو لم يسند خلق كل شئ الى القدير المطلق، للزم قبول الهة

(٦) الكلمات ص ٦٠ – ٦٢.

غير متناهية، بل بعدد ذرات الكون بدلا من الله الواحد الأحد سبحانه. اى قبول محال بدرجة مائة محال. اى ينبغى السقوط الى هذيان الجنون»[٧].

دليل الحياة:

حاول العلماء في العصر الحديث ان يصلوا الى سر الحياة، وكيفية تحرك الخلية، فلم يستطيعوا، فحارت عقولهم، وانتكست محاولاتهم المختبرية في الوصول الى اىّ بصيص يدلهم على كيفية بدء الحركة في الكون. وبما ان الكثيرين منهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، فهم لم يعتبروا بظاهر حركة الحياة، ولم يستعملوا عقولهم في الوصول الى من حركها ورجح حركتها على عدمها. ولكن النورسي الذكي اللمّاح يلتقط هذه الحركة، فيستدل بها علىٰ الخالق العظيم، فيقول:

«ان تلألؤ المواد اللماعة على سطح الارض، وتلمّع الفقاعات والحباب والزبد على سطح البحر، ثم انطفاء ذلك التلألؤ والبريق بزوال الفقاعات ولمعان التي تعقبها كأنها مرايا لشُميسات خيالية يظهر لنا بداهة ان تلك اللمعات ما هي الاّ تجلي انعكاس شمسٍ واحدة عالية. وتذكر بمختلف الالسنة وجود الشمس، وتشير اليها بأصابع من نور.. وكذلك الامر في تلألؤ ذوي الحياة على سطح الارض وفي البحر، بالقدرة الإلهية وبتجلّى اسم «المحيي» للحي القيوم جلّ جلاله، واختفائها وراء ستار الغيب لفسح المجال للذي يخلفها ـ بعد أن ردّدت «يا حي» ـ ما هي الاّ شهادات واشارات للحياة السرمدية ولوجوب وجود الحي القيوم سبحانه وتعالى.

---

(٧) الكلمات ٣٣١.

وكذا، فان جميع الدلائل التي تشهد على العلم الإلهي الذي تُشاهَد آثاره من تنظيم الموجودات، وجميع البراهين التي تثبت القدرة المتصرفة في الكون، وجميع الحجج التي تثبت الارادة والمشيئة المهيمنة على ادارة الكون وتنظيمه، وجميع العلامات والمعجزات التي تثبت الرسالات التي هي مدار الكلام الرباني والوحي الإلهي.. جميع هذه الدلائل التي تشهد وتدلّ على الصفات الإلهية السبع الجليلة، تدل وتشهد أيضاً بالاتفاق على حياة «الحيّ القيوم» سبحانه؛ لأنه لو وجدت الرؤية في شئ فلابد أن له حياة أيضاً، ولو كان له سمع فذلك علامة الحياة، ولو وجد الكلام فهو اشارة الى وجود الحياة، ولو كان هناك الاختيار والارادة فتلك مظاهر الحياة.. وهكذا فان جميع دلائل الصفات الجليلة التي تشاهد آثارها ويُعلم بداهة وجودها الحقيقي، أمثال القدرة المطلقة، والارادة الشاملة، والعلم المحيط، تدل على حياة «الحي القيوم» ووجوب وجوده، وتشهد على حياته السرمدية التي نوّرت بشعاعٍ منها جميعَ الكون وأحيَت بتجلٍ منها الدار الآخرة كلها بذراتها معاً»..

ثم يقول:

« اذ ما دامت الحياة هي أهم نتيجةٍ للكون، وان ذوي الحياة لنفاستهم هم اكثر انتشاراً وتكاثراً، وهم الذين يتتابعون الى دار ضيافة الارض قافلة إثر قافلة، فتعمّر بهم وتبتهج. وما دامت الكرة الأرضية هي محط هذا السيل من ذوي الحياة، فتملأ وتخلى بحكمة التجديد والتكاثر باستمرار، ويُخلق في أخس الاشياء والعفونات ذوو حياة بغزارة، حتى اصبحت

---

(٨) الكلمات ص ١١٧ – ١١٨.

الكرة الأرضية معرضاً عاماً للاحياء.. وما دام يُخلق بكثرة هائلة على الأرض أصفى خلاصة لترشح الحياة وهو الشعور والعقل والروح اللطيفة ذات الجوهر الثابت، فكأن الأرض تحيا وتتجمل بالحياة والعقل والشعور والارواح»(٨).

دليل الامكان:

يقول النورسي:

«اما جهة «الامكان» فهو الآخر قد استولى على الكون واحاط به، اذ نشاهد ان كل شئ سواء أكان كلياً ام جزئياً كبيراً ام صغيراً، وكل موجود من العرش الى الفرش، ومن الذرات الى السيارات، إنما يرسل الى الدنيا، بذاتية خاصة، وبصورة معينة، وبشخصية متميزة، وبصفات خاصة، وبكيفيات حكيمة، وبأجهزة ذات مصالح وفوائد. والحال ان اعطاء تلك الخصوصية، لتلك الذات الخاصة ولتلك الماهية، من بين إمكانات غير محدودة.. وكذا إكساء تلك الصورة المعينة ذات النقوش والعلامات الفارقة المتناسبة، من بين امكانات واحتمالات عديدة بعدد الصور.. وكذا تخصيص تلك الشخصية اللائقة بانتقاء متميز لذلك الموجود المضطرب بين امكانات بقدر اشخاص بني جنسه.. وكذا تمكين صفات خاصة ملائمة ذات مصالح في ذلك المصنوع الذي ليس له شكل والمتردد ضمن امكانات واحتمالات بعدد أنواع الصفات ومراتبها.. وكذا تجهيز ذلك المخلوق بتلك الكيفيات ذات الحكمة، وتقليده بتلك الاجهزة ذات العناية التي من الممكن ان تكون في طرق شتى وطرز غير محدودة، وهو المتحير السائب بلا هدف ضمن ما لايحد من الامكانات والاحتمالات.. ان جميع هذه

(٨) الكلمات ص ١١٧ – ١١٨.

الاشارات والدلالات والشهادات، الصادرة من حقيقة «الامكان» تشكل بلاشك أحد جناحي هذه الشهادة العظمى للكون؛ لانه بعدد جميع الممكنات الكلية والجزئية، وبعدد امكانات كل ممكن – مما ذكر – من ماهية وهوية، وما له من هيئة وصورة، وما يتميز به من صفة ووضعية، هناك اشارات ودلالات وشهادات على وجود واجب الوجود سبحانه، الذي يخصّص ويرجّح ويعيّن ويحدث، ولاحد لقدرته، ولانهاية لحكمته، ولا يخفى عليه شئ ولاشأن، ولا يعجزه شئ، ولا يعزب عنه شئ، فاكبر شئ عنده يسير كاصغره. وهو القادر على ايجاد ربيع بيسر إيجاد شجرة، وعلى ايجاد شجرة بسهولة إيجاد بذرة»(٩).

دليل العناية والغاية:

لو نظرنا في الكون نظرة دقيقة عميقة وجدنا عناية فائقة تظهر على كل ذرة من ذراته، وكل حركة من حركاته. وبجانب ذلك فان كل شئ ينتهى الى غاية واضحة، وجد لاجلها، وهي ملاحظة مستقرأة في مجالات الوجود كلها.

يقول النورسي:

« فجيمع الآيات الكريمة التي تعد منافع الأشياء وتذكر حكمها، انما هي نسّاجة لهذا الدليل، ومظاهر لتجلي هذا البرهان، وزبدة هذا الدليل هي:

اتقان الصنع في النظام الاكمل في الكائنات وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفيا قاطعا وهم المصادفة والاتفاق. لان الاتقان لا يكون دون اختيار، فكل

(٩) الشعاعات ص ١٨٣.

علم من العلوم الكونية شاهد صدق علىٰ النظام، ويشير الى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في اغصان الموجودات، ويلوّح في الوقت نفسه الى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الاحوال وتغير الاطوار.

فإن شئت فانظر الى عالم الحيوان والنبات. فقد ثبت فيهما ان الانواع التي يزيد عددها على مئتي الف نوع، كل له اصل معين، وجدّ اكبر –مثلما الانسان له اصل وهو آدم عليه السلام – وكل فرد من هذه الانواع الوفيرة كأنه ماكنة بديعة عجيبة تبهر الافهام. فلا يمكن ان تكون القوانين الموهومة الاعتبارية والاسباب الطبيعية العمياء الجاهلة، موجدة لهذه السلاسل العجيبة من الافراد والانواع. اي ان كل فرد، وكل نوع يعلن بذاته انه صادر مباشرة من يد القدرة الالهية الحكيمة.

ويذكرنا القرآن الكريم بهذا الدليل، في قوله تعالى:

﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾(الملك: ٣).

بل يبينه علىٰ افضل وجه، إذ كما انه يأمرنا بالتفكر في المخلوقات، فانه يقرر في الاذهان هذا الدليل – دليل العناية – بتعداده الفوائد والنعم، ومن بعد ذلك الاحالة الى العقل في خواتيم الآيات وفواصلها. فينبه العقل ويحرك الوجدان في امثال هذه الآيات.

﴿ **.. اوَ لا يعلمون** ﴾﴿ **..افلا تتذكرون** ﴾﴿ **..فاعتبروا..** ﴾[١٠].

دليل الاختراع:

يقول النورسي:

«إن الله تعالى اعطى لكل فرد ولكل نوع وجودا خاصا هو منشأ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة، اذ لا نوع يتسلسل من الأزل، لأنه من الممكنات ولبطلان التسلسل، وان الحقائق لا تنقلب بل ثابتة، والانواع

(١٠) المثنوي العربي النوري ص ٤٢٨.

المخصوصة لا تدوم سلاسلها، أما تحول الاصناف فهو غير انقلاب الحقائق، إذ ما يسمونه من تغير صور المادة ما هو إلا حادث، لان حدوث بعضها مشهود، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة العقلية، فالقوى والصور من حيث إنها عرضية لا تشكل التباين الجوهري الموجود في الانواع. فلا يكون العرض جوهرا. ففصائل الانواع إذن وميزات عموم الاعراض وخواصها قد ابدع واخترع عن العدم البحت. أما التناسل في السلسلة فهو من الشرائط الاعتبارية الاعتيادية. فيا عجبا كيف تستوعب اذهان الضلالة أزلية المادة – وهي تنافي الازلية قطعا – بينما تعجز تلك الأذهان ان تدرك ازلية الخالق الجليل، التي هي من ألزم صفاته الضرورية؟

ثم كيف وجدت الذرات المتناهية في الصغر قوة وثباتا بحيث تقاوم اوامر القدرة الالهية، وتبقى ازلية. بينما الكون بعظمته منقاد الى تلك الاوامر انقياد طاعة وخضوع؟ وكيف يسند الابداع والايجاد – وهما من خواص القدرة الالهية – الى اعجز شئ واهونه وهو الاسباب؟؟

فالقرآن الكريم يرسخ هذا الدليل في آياته التي تبحث عن الخلق والايجاد، ويقرر: ان لا مؤثر إلا الله وحده. فالاسباب لا تأثير لها تأثيرا حقيقياً، وانما هي ستائر أمام عزة القدرة وعظمتها، لئلا يرى العقل مباشرة يد القدرة بالأمور الخسيسة بنظره الظاهرة»(١١).

دليل الوجدان الحي:

في اعمق اعماق الوجدان البشري، ينبعث صوت يشد الانسان شدّا قويا الى خالق الكون، ويمجده خاشعا متبتلا، ويكاد كل صاحب وجدان شاعر يتدفق منه هذا الشعور، لاسيما في اوقات الصفاء والتأمل والتفكر.

(١١) المثنوى العربى النورى ص ٤٢٩.

ويلتفت النورسي من خلال تجاربه العميقة الى هذه الحقيقة ويجعلها دليلاً على وجود الله سبحانه وتعالى.

يقول النورسي:

«فلكي تحيط بهذا البرهان امعن النظر في النكات الدقيقة الآتية:

اولاها: إن الفطرة لا تكذب، ففي البذرة ميلان للنمو، اذا قال: سانبت.. سأثمر، فهو صادق. وفي البيضة ميلان للحياة، اذا قال سأكون فرخا، فيكون باذن الله، وهو صادق. واذا قال ميلان التجمد في غرفة من ماء: ساحتل مكاناً اوسع، فلا يستطيع الحديد – رغم صلابته – ان يكذبه، بل ان صدق قوله يفتت الحديد. فهذه الميول انما هي تجليات الاوامر التكوينية الصادرة من الارادة الالهية.

النكتة الثانية: لا تقتصر حواس الانسان الظاهرة والباطنة على الخمسة المعروفة: حاسة السمع والذوق والبصر.. الخ، وانما له نوافذ كثيرة مطلة الى عالم الغيب، فله حواس كثيرة غير معلومة. فحاسة السوق وحاسة الشوق لديه حواس لا تكذب ولا تزل.

النكتة الثالثة: لا يمكن ان يكون شئ موهوم مبدءاً لحقيقة خارجية. فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث ان الانسان مكرم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردى الانسان الى اسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال في الكائنات يرد هذا الاحتمال.

النكتة الرابعة: إن الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطل العقل نفسه واهمل عمله، بل حتى لو انكر نفسه، فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه اليه. والحدس – الذى هو سرعة انتقال في الفهم – يحركه دائماً وكذا الالهام – الذى هو الحدس المضاعف – ينوره دوما. والعشق

الالهي يسوقه ويدفعه دوما الى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من الميلان المغروز في الفطرة، فالانجذاب والجذبة المغروزة في الفطرة ليس إلا من جاذب حقيقي.

وبعدما تبين لك هذه النكات، أمعن في الوجدان لترى كيف انه برهان مودع في نفس كل انسان يثبت التوحيد. ولنشاهد ايضاً ان قلب الانسان مثلما ينشر الحياة الى ارجاء الجسد، فالعقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله تنشر الحياة الى آمال الانسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة، كل بما يلائمه، فتقطر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة واهمية: بل تبسطها وتصقلها.. فهذه هي نقطة الاستمداد.

والمعرفة الالهية نفسها هي نقطة استناد للانسان امام تقلبات الحياة ودواماتها وامام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه. إذ الانسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كل امره نظام وحكمة، واسند الامور والحوادث الى المصادفات العمياء، وركن الى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئا من المصائب، فانه سينهار حتما من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات اليمة تذكّره بعذاب جهنم. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الانسان المكرم، إذ يستلزم سقوطه الى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كله، اى إن هاتين النقطتين: نقطة الاستمداد والاستناد ضروريتان للانسان.

فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثها في وجدان كل انسان من هاتين النافذتين – نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد – فمهما اطبق العقل جفنه ومهما اغمض عينه، فعيون الوجدان مفتحة دائما»(١٢).

---

(١٢) المثنوى العربى النورى ص ٤٣٠ – ٤٣١.

دليل الاستقراء الكوني :

وكأن النورسي يريد ان يجمع في هذا الدليل بين الأدلة كلها متعاضده متساندة، تمثل نظرة منطقية جامعة الى الوجود كله.

فالنظر الى الكون الهائل من حيث تنظيماته المتلاحقة او انظمته المتناظرة، وموازناته المتساندة او تجاوب اشيائه المتخالفة، وارتباط اجزائه المتناسبة، ونسب التكوين في الذرات، ووسعة تصرف القدرة في الانواع، وعدم تناهي خوارق صنعة الكائنات واتقانها، والحكمة العامة المتضمنة للقصد والارادة والشعور والاختيار وتجسد العناية التامة بالكائنات. وتبسط الرحمة الشاملة بالمخلوقات، وظهور اعجاز الحياة، وما يرى علىٰ الكائنات من الحسن والتحسين والجمال والانجذاب ونزوع كل شئ الى الكمال المطلق، وحدوث الكائنات وتغيرها وافتقارها واحتياجاتها اللانهائية، واطراد قانون الاماتة والاحياء المتجلي في كل ذرة من ذرات الوجود، وتسبيحات الكائنات القالية والحالية، ومشاهدة الامكان والكثرة والانفعال المستلزمة بالبداهة لمراتب الوجوب والوحدة الفاعلة، وسبحات الارواح الكاملة الصافية، وتواترات العقول النيرة.

كل ذلك وغير ذلك، الكثير الكثير، لهو دليل كوني استقرائي متكامل مهندس، متساند علىٰ وجوب وجود الخالق المبدع والفاعل المختار والعليم الحكيم المتصف بالاسماء الحسنى المتجلية علىٰ آيات الأنفس والآفاق في الوجود كله.

دليل الاجماع :

ويعتمد النورسي على دليل آخر يعدّه دليلا عقليا على وجود الله تعالى ايضا. وهو اجماع الانبياء والمرسلين والأصفياء والعارفين جميعا على وجود

الاله الحق، واجب الوجود الذي اتصل بهم إما عن طريق الوحي القاطع او الالهام الصادق. إذ من غير المعقول ان يجمع هؤلاء جميعا علىٰ الكذب، وهم ارقى البشر عقلا، واصفاهم قلبا، وانظفهم نفسا. عرفوا جميعا بالشجاعة والتصدي والاصرار. فهذا اقوى انواع التواتر، والتواتر طريق الوصول الى اليقين، وهو حجة قاطعة علىٰ صدق الايمان، وقوة عظيمة تعزز حقيقته، الى درجة لن تستطيع أية قوة في العالم ان تصارعها، فهي حقيقة دامغة تنحسر أمامها كل شبهة او ريب (١٣).

ويؤكد النورسي ان الرسول الاعظم محمد بن عبدالله ﷺ، بانفراد شخصيته ودلائل نبوته وعظمة حياته، وصدق رسالته وكثرة معجزاته، برهان قاطع علىٰ وجود الله تعالى، الذي اوحى اليه وارسله رحمة الى العالمين، بقرآن ظهر اعجازه باكثر وجه من وجوه الفصاحة والبلاغة والحقائق التي احتوى عليها، والذي هو نفسه اظهر دليل واقوى برهان علىٰ وجود الخالق العظيم(١٤).

واذا تابعت النورسي في رسائله، وهو يستعرض ادق اسرار الخلق الالهي، تشعر لابهزة عقلية فحسب، وانما وكيانية ايضا، لانه يضعك انت في الصورة الوجدانية ذاتها التي كانت قد غمرته وامتلكت وجدانه وكيانه وقلمه البديع، فتستعيد التجربة الشعورية الكاملة التي مرّت به، كأنه إمام وأنت تصلي وراءه، فتستغرقان معا في لحظات سبحانية واذكار ربانية، وفيوضات رحمانية.

إذن بعد كل هذه الادلة المنفردة والمتشابكة، يوصلك النورسي الى ان الكفر محال، ليس هنالك محال واحد امام الماديين الطبيعيين، بل محالات

(١٣) الشعاعات ص ١٥٥.
(١٤) الشعاعات ص ١٦٦ وما بعدها..

كثيرة، واضحة جلية، ومعضلات واشكالات بقدر ذرات الهواء، لانه إما ان تكون كل ذرة وكل جزء في الهواء صاحبة علم ومنطق وحكمة مطلقة وارادة مطلقة وقدرة مطلقه وهيمنة كاملة علىٰ الذرات جميعها، كي تتمكن من القيام باداء هذه الوظائف المتنوعة على وجهه. وما هذا إلا محالات ومحالات بعدد الذرات وباطل بطلانا مطلقا[١٥].

وبعد كل هذه الحقائق الدامغة، فان النورسي يعد الكفر اهانة وتحقيرا كبيرا للكائنات جميعها، لانه يرد شهادتها بوقاحة وجهل. يقول:

«نعم ان الكفر اهانة وتحقير للكائنات جميعا، حيث يتهمها بالعبثية وانتفاء النفع. وهو تزييف تجاه اسماء الله الحسنى، لأنه ينكر تجلى تلك الاسماء علي مرايا الموجودات. وهو تكذيب للمخلوقات جميعا حيث يرد شهادة الموجودات علي الوحدانية. لذا فانه يفسد قوى الانسان واستعداداته الى درجة يسلب منه القدرة على تقبل الخير والصلاح.

فالكفر إذن ظلم عظيم جدا. إذ هو تجاوز لحقوق جميع المخلوقات، ولجميع الاسماء الحسنى، لذا فحفاظا على هذه الحقوق، ولعدم تمكن نفس الكافر من قبول الخير، اقتضى حرمانه. والآية الكريمة ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ تفيد هذا المعنى»[١٦].

ولا يبقى النورسي في دائرة الحديث العلمي والعقلي والوجداني عن وجود الله، كباقي المتكلمين السابقين، بل انه بعد بناء الاساس المنطقي للايمان، يحاول ان يبين اثره العظيم في التوجيه والتربية، وضبط الحياة الاجتماعية، ففي رسائل كثيرة، يحاول ان يثبت بامثلة عملية كثيرة ان الكفر يقطع الانسان عن الكون وخالقه، وان الايمان يوصل اسباب

(١٥) المثنوى العربى النورى ١٠٧– ١٢٤.

(١٦) الكلمات ص ٨٨ وانظر ايضاً ٣٦٠.

الانسان باسباب الكون، فيعيش كل جزء في وحدة خلق، خالقها هو الله الرحمن الرحيم(١٧).

يقول النورسي:

«إن الانسانَ يسمو بنور الايمان الى اعلى عليين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقاً بالجنة، بينما يتردّى بظلمة الكفر اسفلِ سافلين فيكون في وضعٍ يؤهّلُه لنار جهنم، ذلك لأنّ الايمانَ يَربطُ الانسانَ بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ اليه، فالايمانُ انما هو إنتسابٌ؛ لذا يَكتسب الانسانُ بالايمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده. أما الكفرُ فيقطع تلك النسبةَ وذلك الانتسابَ، وتغشى ظلمته الصنعةَ الربانية وتطمس على معالمها، فتنقُص قيمةَ الانسان حيث تنحصر في مادّته فحسب؛ وقيمةُ المادة لا يُعتدّ بها فهي في حكَم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتُها حياةٌ حيوانيةٌ مؤقتة»(١٨).

ويقول:

«كما أن الايمانَ نورٌ وهو قوةٌ ايضاً. فالانسانُ الذي يظفر بالايمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلصَ من ضيق الحوادث، مستنداً الى قوة ايمانه فَيبحرُ متفرجاً علىَ سفينة الحياة في خضم أمواجِ الأحداث العاتيةَ بكمال الأمان والسلام قائلاً: تَوكّلتُ على الله، ويسلّم أعباءه الثقيلةَ أمانةً الى يدِ القُدرةِ للقدير المطلق، ويقطعُ بذلك سبيلَ الدنيا مطمئنَّ البال في سهولةٍ وراحةٍ حتى يصل الى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع ان يرتفعَ طائراً الى الجنة للدخول الى السعادة الأبدية»(١٩).

---

(١٧) الكلمات ص ٣٤٨.
(١٨) الكلمات ص ٣٤٨.
(١٩) الكلمات ص ٣٥٢.

صفات الله تعالى

ولا يتحدث النورسي عن صفات الله تعالى كما يتحدث المتكلمون حديثا اشبه ما يكون بالحديث عن القوانين الرياضية واثباتها بخطوات منطقية محددة، وانما هو كثير الحديث عن الاسماء الحسنى المتجلية في الوجود كله، لان حقائق الموجودات تستند الى الاسماء الالهية الحسنى.

يقول النورسي:

«ان في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة ـ كالنوافذ ـ الى الله سبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة ﴿**وان من شيء الاّ يسبّح بحمده**﴾ اذ ان حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء. وان الاتقان الموجود في الاشياء يستند الى اسم من الاسماء، حتى ان علم الحكمة الحقيقي يستند الى اسم الله «الحكيم» وعلم الطب يستند الى اسم الله «الشافي» وعلم الهندسة يستند الى اسم الله «المقدّر».. وهكذا كل علم من العلوم يستند الى اسم من الاسماء الحسنى وينتهي اليه، كما ان حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها الى الاسماء الإلهية الحسنى، حتى قال اولياء محققون ان:

« الحقائق الحقيقة للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق»(٢٠).

(٢٠) الكلمات ص ٧٤٩. وانظر ايضاً اللمعات ص ٥٩١ وما بعدها.

والحق انك لو تعمقت في فهم رسائل النور لوجدت ان فرشتها الواسعة هي تحقيقات معاني الاسماء الحسنى، حيث يجعلها النورسي نوافذ يطل منها على الكون واسراره، والخالق وصفاته، والانسان والغاية من وجوده، وذلك من خلال فهم دقيق ورؤية شهودية مستغرقة في السريان النافذ والذوبان الكامل، فهي المرآة التي تظهر علىٰ صفائها عظمة الصنعة الربانية في الوجود، وادراك حقائق هذه الاسماء وتجلياتها، إنما هو مدارج للسالكين الى الله تعالى او فهم عميق لنظامه الكوني وشريعته الاجتماعية.

ولو اجتمعت هذه المعاني السامية السامقة كلها، فكونت اسسا كلية متناسقة لبناء المجتمع والحضارة، لحقق الانسان معنى وجوده في هذا الكون، ولا تصلت اسبابه باسباب خالقه، فما ضل ولا شقي، ولقامت الحضارة علىٰ مقومات متوازنة من المادة والروح، فلم تنحرف ذلك الانحراف المهين الذي اردى بالبشرية الى الحضيض الآسف.

ومن تمام الانصاف ان نذكر هنا ان النورسي قد تأثر بحجة الاسلام، الامام الغزالي، غير أن الغزالي بقي في دائرة علم الكلام القديم في بيان حقائق هذه الاسماء، إلا ما كان قد ذكره من نصيب الانسان من كل اسم، بينما النورسي من منظور عصره، انطلق بها الى فتوحات ربانية، ألهمه الله تعالى فيها الى فتح مغاليق اسرار كونية وانسانية واجتماعية في تلك الاسماء المقدسة، ذات الصلة الوثيقة بصفات الله سبحانه وتعالى، التي اشرقت على الكون، فانارته بعد ظلمة واخرجته الى الوجود بعد عدم.

وكم كنت احب ان يطلع رجل مثل الدكتور زكي نجيب محمود، المفكر العربي المعروف علىٰ دراسات النورسي العقلية والذوقية الشهودية

لتلك الاسماء الحسنى، إذن لاستوثق وتيقن مما قاله تعليقا على قراءته كتاب الامام الغزالي في شرح اسماء الله الحسنى عندما قال:

«كان من بين ما اوحى الي بهذه النظرة الى الاسماء الحسنى، وهي النظرة التي تجعل منها قيما للسلوك البشري كتاب صغير عميق ملهم، هو كتاب الامام الغزالي «المقصد الأسنى في شرح اسماء الله الحسنى» فالامام في كتابه هذا يلقي علىٰ الاسماء الحسنى اضواء ساطعة تبرز معانيها الخفية، وهو يعقب علىٰ شرحه لكل اسم منها بقوله «إن نصيب العبد من هذه الصفة كذا وكذا» فيبين للقارئ كيف يسلك في حياته العملية على ضوء هذه الصفة المعينة او تلك، من المجموعة باسرها.

وانني لعلىٰ ظن يبلغ درجة الرجحان الشديد، بان المتأمل في هذه الصفات يستطيع آخر الامر ان يقيم منها بناء واحدا متسقا، وانما قصدت بالبناء المتسق هنا ما نقصد اليه في دراساتنا الفلسفية، حين ترتب القضايا ترتيبا تنازليا يبدأ بالأعم وينتهي بالاخص، بحيث تجئ كل خطوة نتيجة منطقيه لازمة لزوما ضروريا من الخطوة السابقة عليها. وفي الوقت نفسه تكون مقدمة ضرورية بالنسبة للنتيجة التي تلزم عنها في الخطوة التي تليها. ولو استطعنا بناء هذه القيم علىٰ هذا النحو المتسق اوله مع آخره، كان لنا بذلك لا مجرد عدد متناثر من القيم، بل مجموعة موحدة، ويكون مثل هذا التوحيد في القيم جانبا هاما من التوحيد الذي هو اميز ما يميز عقيدة المسلم، وعن

دئذ كذلك يكون هذا التوحيد في القيم ضامنا للانسان ألا يتمزق سلوكه يمنة ويسرة، فلا يدري الى اين يتوجه؟ فمن نقائص عصرنا بشهادة

رجال الفكر اجمعين انه عصر ادى بشبابه الى حالة من التمزق والتفسخ والضياع. لماذا؟ لأن القيم التي ينطوي عليها هذا العصر، ليست كلها على اتساق بعضها مع بعض. فترى هذه القيمة المعينة تغري الناس بالتزام العقل الصارم «في دنيا العلوم مثلا» بينما تغريهم تلك الاخرى بالخروج والعصيان وتفضيل الغريزة والوجدان على العقل ومنطقه «كما هو مشاهد في كثير من نتاج الأدب والفن وفي تمرد الشباب» فلو استطعنا نحن ان نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للانسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا في بناء الحضارة»(٢١).

* * *

(٢١) ثقافتنا في مواجهة العصر ص٩٠، ٩١.

وحدانية الله

اهتم النورسي بوحدانية الله تعالى اهتماما عظيما يضاهي اهتمامه بوجوده سبحانه، تأدبا بادب القرآن الذي عرض دلائل التوحيد في مئات من آياته الكريمة.

بل جعله المهمة الاساس التي جاء بها الانبياء والمرسلون الذين دعا كل منهم الى عبادة الاله الواحد ونفى الشرك الجلى والخفي في الوجود كله. قال تعالى:

﴿ولقد ارسلنا نوحا الى قومه إني لكم نذير مبين * ان لا تعبدوا إلا الله...﴾(هود: ٢٥، ٢٦).

وقال: ﴿والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾(هود: ٥٠).

وقال: **﴿والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره﴾**(هود:٦١)

ومنهج النورسي في كل ما كتب بهذا الشأن ان الايمان العقلي المجرد بوجود الله تعالى لا يعطي الثمرة المرجوة إلا اذا كان صاحبه موحدا لا يشرك به شيئا، ويتوجه بكليته اليه تعالى، يعبده ولا يعبد سواه. فعند ذلك تتحول عقيدة التوحيد الى سلوك واقعي، تنفعل بها الانسان المؤمن فيوجهها الى اتخاذ الانماط السلوكية المستقيمة المنسجمة مع الفطرة الانسانية.

ومسلك النورسي في اثبات عقيدة التوحيد، مسلكه في اثبات وجود الله سبحانه وتعالى. ينطلق دائما من الكون العظيم؛ ذراته، ازهاره، اثماره، الى تقرير التوحيد، مطبقا قواعد العلم والعقل في التأمل والملاحظة والاستنتاج، والتي تنشئ القوانين التي تقطع بان الها واحدا هو الذي خلق هذا الكون وهو الذي يسيره بعناية فائقة الى غايات عظيمة.

يقول النورسي:

«كما انك تتمكن من رؤية اختام الأحد الصمد سبحانه، المختومة بها صحيفة الأرض، وذلك بنظرة إمعان قليلة، فارفع رأسك وافتح عينيك، وألق نظرةً على كتاب الكون الكبير ترَ أنه يقرأ على الكون كله، ختمُ الوحدة بوضوح تام، بقدر عظمته وسعته ذلك لأن هذه الموجودات كأجزاء معمل منتظم، وأركان قصر معظم، وأنحاء مدينة عامرة، كُلّ جزءٍ ظهير للآخر، كل جزء يمدّ يد العون للآخر، ويجدّ في اسعاف حاجاته. والاجزاء جميعاً تسعى يداً بيد بانتظام تام في خدمة ذوي الحياة، متكاتفة متساندة متوجهة الى غاية معينة في طاعة مدبّر حكيمٍ واحدٍ.

نعم، ان دستور «التعاون» الجاري الظاهر ابتداءً من جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار وترادف الشتاء والصيف.. الى إمداد النباتات للحيوانات الجائعة، والى سعي الحيوانات لمساعدة الانسان الضعيف المكرم، بل الى وصول المواد الغذائية على جناح السرعة لاغاثة الأطفال النحاف، وامداد الفواكه اللطيفة. بل الى خدمة ذرات الطعام لحاجة حجيرات الجسم... كل هذه الحركات الجَارية وفق دستور «التعاون» تُري لمن لم يفقد بصيرته كلّياً انها تجري بقوةِ مربٍّ واحد كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبّر واحد حكيم مطلق الحكمة.

فهذا التساند، وهذا التعاون، وهذا التجاوب، وهذا التعانق، وهذا التسخير، وهذا الانتظام، الجاري في هذا الكون، يشهد شهادة قاطعة، أن مدبراً واحداً هو الذي يديره، ومربياً احداً يسوق الجميع في الكون. زد عليه، فان الحكمة العامة الظاهرة بداهة في خلق الاشياء البديعة وما تتضمنه من عناية تامة وما في هذه العناية من رحمة واسعة وما على هذه الرحمة من ارزاق منثورة تفي حاجة كل ذي حياة وتعيّشه وفق حاجاته... كل ذلك ختم عظيم للتوحيد له من الظهور والوضوح ما يفهمه كل مَن لم تنطفىء جذوة عقله، ويراه كل من لم يُعمَ بصرُه؟»(٢٢).

ويستخدم النورسي قواعد المنطق لنفي الشرك في الكون فيقول:

«لا عبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل، ولا ينافي الإمكان الذاتي اليقينَ العلمى».

مثال ذلك: من الممكن والمحتمل ان تتحول بحيرة (بارلا) الى دبس وينقلب الى دهن، وهذا احتمال ولكن هذا الاحتمال لا ينشأ من أمارة، فلا يؤثر ولا يلقي شكاً ولا شبهة في يقيننا العلمي بأن البحيرة من ماء.

وعلى غرار هذا فقد سألنا من كل ناحية من نواحيٍ الموجودات، ومن كل زاوية من زوايا الكائنات،ومن كل شئ ابتداءً من الذرات الى السيارات - كما في الموقف الاول - ومن خلق السموات والارض الى اختلاف ألوان الانسان وألسنته - كما يشاهد في هذا الموقف الثاني - فكان الجواب: شهادة صدق للوحدانية بلسان الحال، ودلالة قاطعةً بوجود ختم التوحيد المضروب على كل شئ، وقد شاهدتَه بنفسك ايضاً.

(٢٢) الكلمات ص ٣٣٨.

لذا فلا توجد اية امارة في موجودات الكائنات يمكن ان يبنى عليها احتمال الشرك. بمعنى ان دعوى الشرك دعوى تحكمية بحتة، أو كلام لا معنى له، ودعوى مجردة عن الحقيقة، لذا فان من ادّعى الشرك بعد هذا فهو اذن في جهالة جهلاء وبلاهة بلهاء»(٢٣).

ويقول النورسي:

«إن في طريق الوحدة والايمان سهولة مطلقة بدرجة الوجوب، بينما في طريق الشرك والاسباب والكثرة مشكلات وصعوبات بدرجة الامتناع. لأن الواحد يعطي وضعا معينا لكثير من الاشياء، ويستحصل منها نتيجة معينة دون عناء، بينما لو احيل اتخاذ ذلك الوضع واستحصال تلك النتيجة الى تلك الاشياء الكثيرة، لما امكن ذلك إلا بتكاليف وصعوبات كثيرة جدا وبحركات كثيرة جدا»(٢٤).

ويلجأ النورسي الى دليل وجود منتهى النظام في كل شئ في نفي الشرك.

إقرأ له هذه الفقرات:

« انه لا مكان للشرك قط في هذا الكون الشاسع العظيم الذي أبدعه الصانع القدير الحكيم بقدرته وحكمته؛ لأن وجود منتهى النظام في كل شئ لن يسمح بالشرك ابداً، فلو تدخلت أيدٍ متعددة في خلق شئٍ ما لبان التفاوت والاختلال في ذلك الشئ، مثلما تختلط الامور اذا ما وجد سلطانان في بلاد، ومسؤولان في مدينة، ومديران في قصبة، ومثلما يرفض أبسط موظف تدخل أحدٍ في شأن من شؤونه التي تخص وظيفته..

---

(٢٣) الكلمات ص ٧٢٦.
(٢٤) المكتوبات ص ٣٣٣.

كل ذلك دلالة على ان الخاصة الاساسية للحاكمية انما هي: «الاستقلال» و«الانفراد» فالانتظام يقتضي الوحدة كما ان الحاكمية تقتضي الانفراد.

فاذا كان ظلٌ باهت زائل للحاكمية لدى هذا الانسان العاجز الفقير يردّ المداخلة بقوة، فكيف بالحاكمية الحقيقية التي هي في مرتبة الربوبية المطلقة لدى القدير المطلق سبحانه؟ ألا تردّ الشرك وترفضه رفضاً باتاً؟.

فلو أُفترض التدخل – ولو بمقدار ذرة – لاختلط الانتظام والتناسق واختل النظام والميزان!. مع العلم ان هذا الكون قد أبدع ابداعاً رائعاً الى حد يلزم لخَلْق بذرة واحدة قدرة قادرة على خلق شجرة كاملة، ويلزم لخلق شجرة واحدة قدرة قادرة لإبداع الكون كله. واذا ما افتُرض وجود شريك في الكون كله وَجَب أن يظهر نصيبهُ في التدخل لخلقِ أصغر بذرة مثلاً – اذ البذرة نموذج الكائنات – وعندئذ يلزم استقرار ربوبيتين – لا يَسَعهما الكونُ العظيم – في بذرة صغيرة، بل في ذرة!! وهذا من أسخف المحالات والخيالات الباطلة وأبعدها عن المنطق والعقل»(٢٥).

ولا يكتفي النورسي بايراد الأدلة المتنوعة على وجود الله ووحدانيته، وانما ينزل الى ميدان الصراع الفكري، فيرد الملاحدة ويناقش شبهاتهم، ويفند اعتراضاتهم، من خلال ردود رصينة وأدلة واضحة.

وعلىٰ الرغم من ان كثيرا من رسائل النور تتعرض الى الشبهات غير ان النورسي قد خصص رسالة كاملة – رسالة الطبيعة – لمناقشة هؤلاء الذين يعترضون فيقولون:

---

(٢٥) اللمعات ص ٥٣١.

- إن الشئ اوجدته الاسباب.
- إن الشئ تشكل بنفسه اي بالصدفة.
- إن الشئ اوجدته الطبيعة.

يبدأ النورسي في دحض هذه الافتراضات بمقدمة منطقية فيقول:

ما دامت الموجودات موجودة وقائمة امامنا بما لايمكن انكارها مطلقا، وان كل موجود يأتي الى الوجود في غاية الاتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدث جديد.

فإما أن تقول ان هذا الموجود توجده اسباب العالم، اي انه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الاسباب المادية، او جاء وتشكل بنفسه او انه يرد الى الوجود بمقتضى الطبيعة، ويظهر بتاثيرها! او عليك ان تقول إن قدرة الخالق القدير ذي الجلال هي التي توجده، لانه لا سبيل الى حدوثه غير هذه الطرق الاربعة، حسب موازين العقل، فاذا ما أثبت إثباتا قاطعا ان الطرق الثلاثة الأولى محالة باطلة ممتنعة وغير ممكنة، فبالضرورة والبداهة يثبت الطريق الرابع وهو طريق وحدانية الخالق بيقين جازم لا ريب فيه. ثم يورد امثلة مفصلة في بيان تلك المحالات: بأن الاسباب شأنها شأن المخلوقات التي تحتاج الى الخالق فهي محتاجة الى الخالق العظيم الذي يرجح وجودها على عدمها.

وأما الصدفة فمحال ان يكون هذا العالم المتشابك المتكون من مليارات الذرات والمخلوقات، والتي خلقت بعناية وغاية تظهران ظهوراً واضحا على كل شئ، ان يقوم تلقاء نفسه وان يخرج من العدم الى الوجود بلا سبب نهائي مرجح، هو الخالق العظيم.

وأما الطبيعة فهي صنعة صانع، ولن يكون صانعا، وهو نقش ولن يكون نقاشا، ومجموعة احكام ولن يكون حاكما، وشريعة فطرية ولن يكون شارعا، وستار مخلوق للعزة ولن يكون خالقا، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطراً فاعلا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرا.

ومعنى ما شرح ولخص، ان الطبيعة لا تخلق نفسها وهي معدومة، تحتاج في خروجها من حيز العدم الى حيز الوجود الى مرجح، والقول بان الطبيعة قد خلقت نفسها نقيض محال كما هو ثابت في علم المنطق(٢٦).

وبعد هذا يجيب النورسي على سؤال واهم، ولكنه مهم في مجال انفراد الله بالخلق وهو، إن الذي يغير الكائنات بفعالية دائمة ويبدّلها يلزم ان يكون متغيرا ومتحولا ايضاً.

يقول:

«كلا ثم كلا. حاش لله ألف ألف مرة حاش لله!

ان تغيّر اوجه المرايا في الارض، لا يدل على تغير الشمس في السماء، بل يدل على اظهار تجدد تجليات الشمس. فكيف بالذي هو أزلي وأبدي وسرمدي وفي كمال مطلق وفي استغناء مطلق (عن الخلق) وهو الكبير المتعال المقدس عن المادة والمكان والحدود، والمنزّه عن الامكان والحدوث، فتغيّر هذا الذات الاقدس محال بالمرة.

ثم ان تغير الكائنات، ليس دليلاً على تغيّره هو، بل هو دليل على عدم تغيره، وعدم تحوّله سبحانه وتعالى. لان الذي يحرّك اشياءً عديدة بانتظام

(٢٦) اللمعات ٢٦٨ وما بعدها، وانظر ايضاً ص ٥٤٩.

دقيق ويغيّرها، لابد الاّ يكون متغيراً والاّ يتحرك.. مثال ذلك: انك اذا كنت تحرك كرات كبيرة وصغيرة مرتبطة بعدة خيوط؛ حركة منتظمة ودائمة، وتضعها في اوضاع منتظمة، ينبغي ان تكون أنت ثابتاً في مكانك دون ان تتحول عنه والاّ اختل الانتظام.

ومن القواعد المشهورة: ان الذي يحرّك بانتظام ينبغي الاّ يتحرك، والذي يغيّر باستمرار ينبغي الاّ يكون متغيراً. كي يستمر ذلك العمل في انتظامه.

ثانياً: ان التغير والتبدل ناشئ من الحدوث، ومن التجدد بقصد الوصول الى الكمال، ومن الحاجة، ومن المادية، ومن الامكان.

أما الذات الاقدس؛ فهو قديم أزلي، وفي كمال مطلق، وفي استغناء مطلق، منزّه عن المادة، وهو الواجب الوجود، فلا بد ان التبدل والتغير محال في حقه وغير ممكن أصلاً»(٢٧).

* * *

(٢٧) اللمعات ص٥٩٠

اليوم الآخر

الايمان باليوم الآخر هو الركن الثاني في العقيدة الاسلامية، جاء الانبياء والمرسلون جميعا بالاخبار الصادقة عنه. وهو نتيجة عظيمة لمقدمة عظيمة، لأن الدين يقول لنا: اعرفوا ربكم واعبدوه حق العبادة في الدنيا، كي تفوزوا برضاه والجنة في الآخرة.

والقرآن الكريم تحدث عن الآخرة ومشاهدها واهوالها حديثا طويلا، من أوله الى آخره، واقام الأدلة العلمية علىٰ مجيئها، ولقد اهتم النورسي بهذا الركن العظيم اهتماما كبيرا لثلاثة اسباب:

أولهما: إن رسائل النور هي تفسير شهودي عميق للقرآن الكريم. وهذا الموضوع هو الموضوع الثاني بعد وجود الله ووحدانيته في القرآن الكريم.

وثانيها: أن عصره عصر شك مخيف في غيبيات الاسلام كلها، ومنها الآخرة. فقد ظهر الانكار والاستهزاء بايات الله في امور الدنيا والآخرة.

وثالثها: أن الأمة الاسلامية من حيث العموم قد برد ايمانها بالآخرة، فلم يعد ابناؤها يهزّهم خبر اليوم الآخر، ولم يعودوا يعملون لذلك اليوم العظيم، فابتعدت حياتهم عن ان توزن بميزان الاسلام الحق. فاراد النورسي ان يرجعهم الى الحق ويثبت لهم وجود ذلك اليوم كأنهم يرونه، كي يهز اعماقهم، ويحرك وجدانهم، من اجل العودة الى الله تعالى والتحضير ليوم الطامة الكبرى.

وقد ادرك هذا النقص الكبير، عندما دعي الى في مجلس الأمة التركي، فوجد ان اكثر القوم لا يصلّون، كما مرّ بنا خبر ذلك، فصرخ فيهم صرخته المشهورة:

– ايها المبعوثون، انكم مبعوثون ليوم عظيم.

ومنذ ذلك الوقت غدا همّ اليوم الآخر من همومه اليومية الكبرى، تحدث عنها بعقلانية ووجدان في معظم ما ابدع يراعه من رسائل النور. لا بل عنون احدى رسائله بـ «الحشر».

وهو في اثباته لضرورة الحشر، يلجأ الى استقراءات تفصيلية من حياة الناس اليومية، ومشاهد الطبيعة المنظورة والتحليلات الفكرية التجريدية، لينسج منها بلغة العصر ومصطلحاتها دليل ضرورة يوم الحساب.

وهو يكتبها بتفاصيل تحيط بجوانب القضية كلها، بحيث يفهمها كل ذي عقل سليم، وكل ذي فكر ثاقب، سواء أكان فيلسوفا او مثقفاً او أميا، كل بقدر ما آتاه الله من التعقل والفضل والحكمة، ولو راجعت الصور الاثنتى عشرة التي جعلها مقدمة لرسالة الحشر، لظهر لك ذلك أشد الظهور.

وهو لايكتفي بالأدلة العقلية وانما يلجأ الى استقراء قانون الهدم والبناء في حياتنا كلها، ليستخلص منها الدليل العلمي القاطع على أن المجتمع الانساني يستحيل ان يشذ عن القاعدة، لأنه جزء من الوجود الذي حوله.

وفي اثناء استعراضه لأدلة العقل التجريدي والعلم المشاهد، لا ينسى ان يزيد عليها، دليل التواتر التاريخي لعشرات الالوف من أرقى البشر عقلا ووجداناً، كلهم يخبرون ان يوم الحساب آت لا ريب فيه، ويتحدثون عن كثير من تفاصيله. وكأنه بذلك يفسر قوله تعالى ﴿**أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى، بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**﴾(الانبياء:١١).

فالله تعالى في هذه الآية أمر رسوله الكريم ﷺ أن يستشهد باجماع موكب الأنبياء والمرسلين على صدق مدعاه.

والآن لنأت الى عرض بعض تفاصيل ما يقوله النورسي عن يوم القيامة، علىٰ الرغم من أن ما يقوله النورسي في مئات الصفحات وفي اماكن متباعدة احيانا ومتداخلة ليس سهلا جمعه باختصار في مكان واحد.

ولكننا نبدأ من وضعه قاعدة عقلية في غاية الأهمية ليكون مدخلا للدخول في معالجة الموضوع:

يقول النورسي:

«إن مدى السهولة في اخبار «الأمر الثبوتي» ومدى الصعوبة والاشكال في نفي وأنكار ذلك يظهر في المثال الآتي:

إذا قال أحدهم ان هنالك على سطح الأرض حديقة خارقة جدا، ثمارها كعلب الحليب، وانكر عليه الآخر قوله هذا قائلا: لا، لا توجد مثل هذه الحديقة، فالأول يثبت بكل سهولة دعواه، بمجرد اراءة مكان هذه الحديقة او بعض ثمارها. اما الثاني: أي المنكر، فعليه ان يرى جميع انحاء الكرة الأرضية، لأجل أن يثبت نفيه، وهو عدم وجود مثل هذه الحديقة.

وهكذا الأمر في الذين يخبرون عن الجنة، فانهم يظهرون مئات الالآف من ترشحاتها ويبينون ثمارها وآثارها، علما أن شاهدين صادقين منهم كافيان لاثبات دعواهم، بينما المنكرون لوجودها لا يسعهم اثبات دعواهم إلا بعد مشاهدة الكون غير المحدود والزمن غير المحدود، مع سبر غورهما بالبحث والتفتيش، وعند عدم رؤيتهم لها، يمكنهم اثبات دعواهم»(٢٨).

---

(٢٨) اللمعات ص ٣٤٩.

ويقدم النورسي في اثبات اليوم الآخر أدلة كثيرة يمكن أن نجمل أهمها على الوجه الآتي:

الأول:

ما دمنا آمنا بالله تعالى ووحدانيته، فانه يكون من الحتم الأيمان حينئذ باليوم الآخر. لأن كمال بعض الصفات الالهية لا يتحقق أمامنا في هذه الدنيا حسب ظاهر ما نرى، فلا بد من يوم تتحقق فيه تلك الصفات بوضوح وجلاء. وإلا قلنا بأن هذه الحياة عبث، ولكن كيف يكون عبثا في خضم التنظيم والتناسق في نظام الكون؟ كيف يمكن أن يشذ نظام اشرف مخلوقات الله، وهو الانسان، عن نظام الكون؟

يقول النورسى:

«وما دام الرب سبحانه ـ كما في هذه الحقيقة ـ يحبّ الانسان، ويحبّب نفسه اليه، وهو باقٍ، وله عوالم باقية، ويُجري الامور وفق عدالته، ويعمل كل شئ وفق حكمته، وان عظمة سلطان هذا الخالق الأزلي وسرمدية حاكميته لا تحصرهما هذه الدنيا القصيرة، ولا يكفيهما عمر الانسان القصير جداً، ولا عمر هذه الارض المؤقتة الفانية. حيث يظل الانسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من انكار وكفر وعصيان، تجاه مولاه الذي انعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسّق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها، ويخالف جماله وحسنه، اذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش. فلا شك ان ماهية تلك العدالة

المطلقة ـ التي يشاهد آثارها في الكائنات ـ لا تقبل أبداً، ولا ترضى مطلقاً، عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معاً امام الموت»[٢٩].

الثاني:

ان خالق هذا الوجود له كمال باهر وجمال معنوى زاهر، «ولاشك ان الكمال المستتر الذي لا نقص فيه يقتضي اعلانه على رؤوس الاشهاد من المعجبين المستحسنين، ويتطلب اعلانه امام انظار المقدّرين لقيمته. أما الجمال الخفي الذي لا نظير له، فيستلزم الرؤية والاظهار، أي رؤية جماله بوجهين:

احدهما: رؤيته بذاته جمالَه في كل ما يعكس هذا الجمال من المرايا المختلفة.

ثانيهما: رؤيته بنظر المشاهدين المشتاقين والمعجبين المستحسنين له. وهذا يعني ان الجمال الخالد يستدعي رؤية وظهوراً، مع مشاهدة دائمة، وشهود أبدي.. وهذا يتطلب حتماً خلودَ المشاهدين المشتاقين المُقدّرين لذلك الجمال، لأن الجمال الخالد لا يرضى بالمشتاق الزائل. ولأن المشاهد المحكوم عليه بالزوال يبدل تصور الزوال محبته عداءً، واعجابه استخفافاً، وتوقيره اهانةً، اذ الانسان عدو لما يجهل ولما يقصر عنه.. ولما كان الجميع يغادرون دور الضيافة هذه بسرعة ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يرون الا ظلالاً خافتة منه عبر لمحات سريعة.. فالرحلة اذن منطلقة الى مشهد دائمٍ خالد»[٣٠] ليحققوا فيه هذه الضرورة في حياتهم، حتى لا يبقى الجمال والكمال السرمدى مستوراً.

(٢٩) الكلمات ١١٢.
(٣٠) الكلمات ٥١.

الثالث:

ربّ العالمين قد كلف الانسان في هذه الحياة الدنيا بامور يعملها ويبذل فيها جهده كنصيب العبادة في الصوم واخراج المال في الزكاة، فمن غير المعقول أن يكلفهم خالقهم في هذه الدنيا، ولا يجزيهم في دار أخرى(٣١).

الرابع:

قانون البناء والهدم او الحياة والموت، قانون جار في الوجود. إذ إن مظاهر الوجود المادي كلها بين هدم وبناء او بين حياة وموت. ولقد نبه القرآن الكريم الى هذا الدليل في آيات كثيرة، لأنه محسوس قطعى ملاحظ، يدركه الناس جميعا. منها قوله تعالى ﴿ **ونَزّلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد ۞ والنخل باسقات لها طلع نضيد ۞ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾ (ق:١١) اى يوم القيامة، بالقانون نفسه.

ولقد اكثر النورسي في رسائل النور من ذكر هذه الآيات كلما تحدث عن عظمة الخلق او قيام الحشر (٣٢).

الخامس:

انكار الآخرة يعنى انكار تجليات الاسماء الحسنى لله الخالق الذي آمنا به، ففي تجلي اسم الرب يقول:

«أمن الممكن لـمَن له شأن الربوبية وسلطنة الالوهية، فأوجد كوناً بديعاً كهذا الكون؛ لغايات سامية ولمقاصد جليلة، اظهاراً لكماله،ثم لا يكون

(٣١) الكلمات ٥٣، ٥٤.

(٣٢) الكلمات ١١١.

لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالايمان والعبودية، ولا يعاقِب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف»(٣٣).

وفي تجلي اسم الكريم والرحيم يقول:

«أمن الممكن لربّ هذا العالم ومالكه الذي أظهر بآثاره كرماً بلا نهاية، ورحمة بلا نهاية، وعزة بلا نهاية، وغيرة بلا نهاية، ان لا يقدّر مثوبة تليق بكرمه ورحمته للمحسنين، ولا يقرر عقوبة تناسب عزته وغيرته للمسيئين؟»(٣٤).

وفي تجلي اسم الحكيم والعادل يقول:

«أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. ان لا يعامل بالاحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وان لا يجازي اولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟»(٣٥).

وهكذا يستمر في إثارة هذه الاسئلة بالنسبة للاسماء، المجيب والجليل والباقي والحفيظ والرقيب والجليل والحي والقيوم والمحي والمميت والحق والجواد والجميل، ويدير حولها رسالة كاملة من خلال أجوبة عقلية وابحاث عميقة في غاية القوة والمتانة(٣٦).

---

(٣٣) الكلمات ٦٥.
(٣٤) الكلمات ٦٥.
(٣٥) الكلمات ص ٦٨.
(٣٦) الكلمات – الكلمة العاشرة «رسالة الحشر» ٤٧ – ١٢٨

السادس:

أمن المعقول ان نكذّب عشرات الالوف من الانبياء والمرسلين والاولياء والصالحين وهم في ارقى المقامات البشرية، عقلا وقلبا وروحا ونفسا، وهم يخبرون ان البشرية ستموت وتحيا ليوم الحساب والجزاء.

يقول النورسي:

«ان جميع المعجزات الدالة على رسالة سيدنا محمدﷺ مع جميع دلائل نبوته وجميع البراهين الدالة على صدقه، تشهد بمجموعها معاً، على حقيقة الحشر، وتدل عليها وتثبتها، لأن دعوته ﷺ طوال حياته المباركة قد انصبّت بعد التوحيد على الحشر. وأن جميع معجزاته وحججه الدالة على صدق الانبياء عليهم السلام ـ وتحمل الآخرين على تصديقهم ـ تشهد على الحقيقة نفسها، وهي الحشر. وكذا شهادة «الكتب المنزلة» التي رقّت الشهادة الصادرة من «الرسل الكرام» الى درجة البداهة، تشهدان على الحقيقة نفسها»(٣٧).

السابع :

يؤكد النورسي أن وجود الله لا يستلزم اليوم الآخر فحسب وانما الاركان الايمانية الاخرى كالايمان بالملائكة وعالم الارواح والايمان بالقدر دليل على وجود الآخرة. فكل ما يثبت لتلك الاركان يثبت للحشر، ثم يلخص كلاما دقيقا وعميقا حول هذا الموضوع بقوله:

«ان جميع دلائل الاركان الخمسة هي بدورها دلائل الحشر ووجوده، وعلى النشور وحدوثه، وعلى وجود الدار الآخرة وانفتاح ابوابها، بل

(٣٧) الكلمات ص ١٠٧.

تستدعيه وتشهد عليه، لذا فانه من الوفاق الكامل والانسجام التام ان يبحث ثلث القرآن الكريم المعجز البيان بكامله عن الحشر، لماله من الأسس والبراهين التي لا تتزعزع، ويجعله اساسا وركيزه لجميع حقائقه التي يرفعها على ذلك الحجر الاساس»(٣٨).

وبعد ذلك يجيب على سؤال السائل الذي يقول: «آمنا بضرورة اليوم الاخر، ولكن كيف يمكن ان يحدث هذا مع موت الخلائق الكثيرة قبلنا وموت الخلائق الكثيرة بعدنا. فيقول:

«فالآية الكريمة ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ اِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(لقمان:٢٨) تفيد ان خلق جميع البشر وحشرهم سهل ويسير على القدرة الإلهية، كخلق انسان واحد وحشره.

فمثلاً: «ولله المثل الاعلى» ـ ولا جدال في الأمثال ـ ان الشمس مثلما تُرسل ـ ولو ارادياً ـ ضوءها بسهولة تامة الى ذرة واحدة، فانها ترسله بالسهولة نفسها الى جميع المواد الشفافة التي لا حصر لها، وذلك بسر «النورانية».

وان أخذ بؤبؤ ذرّة شفافة واحدة لصورة الشمس مساوٍ لأخذ سطح البحر الواسع لها، وذلك بسر «الشفافية».

وان الطفل مثلما يمكنه ان يحرك دُميَتَه الشبيهة بالسفينة، يمكنه أن يحرّك كذلك السفينة الحقيقية، وذلك بسرّ «الانتظام» الذي فيها.

وأن القائد الذي يسيّر الجندي الواحد بامر «سِر»، يسوق الجيش باكمله بالكلمة نفسها، وذلك بسرّ «الأمتثال والطاعة».

---

(٣٨) الكلمات ١١٤.

ولو افترضنا ميزاناً حساساً جداً في الفضاء، بحيث يتحسس وزن جوزة صغيرة في الوقت الذي يمكن ان توضع في كفتيه شمسان. ووجدت في الكفتين جوزتان أو شمسان، فان الجهد المبذول لرفع احدى الكفتين الى الأعلى والاخرى الى الاسفل هو الجهد نفسه، وذلك بسر «الموازنة».

فما دام اكبر شئ يتساوى مع أصغره، وما لا يعدّ من الاشياء يظهر كالشئ الواحد في هذه المخلوقات والممكنات الاعتيادية - وهي ناقصة فانية - لما فيها من (النورانية والشفافية والانتظام والامتثال والموازنة) فلابدّ أنه يتساوى أمام القدير المطلق القليل والكثير، والصغير والكبير، وحشرُ فرد واحد وجميع الناس بصيحة واحدة، وذلك بالتجليات «النورانية» المطلقة لقدرته الذاتية المطلقة وهي في منتهى الكمال، و «الشفافية» و «النورانية» في ملكوتية الاشياء، و «انتظام» الحكمة والقدرة، و «امتثال» الاشياء وطاعتها لأوامره التكوينية امتثالاً كاملاً، وبسر «موازنة» الامكان الذي هو تساوي الممكنات في الوجود والعدم»(٣٩).

وينتهي النورسي من ابحاثه المتشابكة حول الحشر الأعظم الى أن مسألة الحشر حقيقة راسخة قوية، بحيث لا يمكن أن تزحزحها أية قوة مطلقا. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقر تلك الحقيقة بمقتضى اسمائه الحسنى جميعها وصفاته الجليلة كلها، وان رسوله الكريم ﷺ يصدقها بمعجزاته وبراهينه كلها، والقرآن الكريم يثبتها بجميع آياته وحقائقه، والكون يشهد له بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة(٤٠).

وبعد جولات الاثبات العلمية والعقلية والشواهد التاريخية، يعالج النورسي علة مجئ اليوم الآخر فيقول:

(٣٩) الكلمات ٩٨.
(٤٠) الكلمات ٩٦.

« وبمجئ الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، وتُنزّه حكمته العامة وتبرأ من العبث والسفاهة، وتأخذ رحمته الواسعة مداها، وتُنقذ من التعذيب المشين. وتبدو عزته وقدرته المطلقتان وتُنقَذان من العجز الذليل. وتتقدّس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلى منزّهة جليلة.

فلابد ولا ريب مطلقاً أن القيامة ستقوم، وان الحشر والنشور سيحدث، وان أبواب دار الثواب والعقاب ستُفتح »(٤١).

وأما الفوائد البشرية من الايمان باليوم الآخر فكثيرة ويكفى ان نقول:

– إن آلام الاطفال بموت اطفال مثلهم، لن يخففها إلا ايمانهم بالجنة.

– الشيوخ وشعورهم باليأس القاتل نتيجة انطفاء شعلة حياتهم العزيزة عليهم، لن يحيلها الى الأمل إلا الايمان باليوم الآخر.

– الشباب لن يقف امام طيشهم وتجاوز الحدود الى الظلم والخراب إلا ايمانهم بالنار.

– الحياة العائلية لن تترابط بالمودة والحب والإيثار والوفاء الخالص إلا الايمان بوجود علاقات قرابة وصداقة ابدية(٤٢).

يقول النورسى:

« فليصغ السمع علماء الاجتماع والسياسة والاخلاق من المعنيين بشؤون الانسان واخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملأون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟! »(٤٣).

---

(٤١) الكلمات ١١٣.
(٤٢) الكلمات ١٠٤ – ١٠٦.
(٤٣) الكلمات ١٠٦.

ولا يترك النورسي موضوع الحشر إلا ويحاول ان ينظف العقول من الشبهات التي تثار في حقيقتها وحقيقة ما يجري، مع اتباع طريقة علمية دقيقة في دفع تلك الشبهات بما يريح العقل المثقف، ويبعد الشغب عن عقيدة عامة المسلمين.

فمثلا يذكر عند نقله قوله تعالى ﴿**إن كانت إلا صيحة واحدة**﴾ ﴿**وما امر الساعة إلا كلمح البصر**﴾ يذكر لنا أن هذه الآيات وامثالها يبين لنا ان الحشر الأعظم سيظهر فجأة الى الوجود في آن واحد بلا زمان، ويقول:

«ولكن العقول اليقظة تطلب امثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتذعن لهذا الحدث الخارق جدا، والمسألة التي لا مثيل له»[٤٤].

ثم يجيب فيقول: ان في الحشر ثلاث مسائل: هي عودة الارواح الى الاجساد، واحياء الاجساد، وانشاء الاجساد وبناؤها.

ثم يجيب على السؤال الاول باجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكرى، ثم عن البوق الكوني الاعظم الذي يأذن الله تعالى به الأحياء.

ويجيب على السؤال الثانى، بانارة مئات الالاف من المصابيح الكهربائية من مركز واحد في لحظة واحدة بلا زمان ملحوظ.

ويجيب عن الثالث بانشاء مهرجان الربيع في كل سنة، وحركة البذيرات واحيائها وانتصاب السيقان ونمائها واحياء الملايين من الحشرات وحركتها.

---

(٤٤) الكلمات ١٢١.

ثم يجيب على سؤال خطير، وهو لماذا ذلك الاحياء يكون في الدنيا تدريجا وفي الآخرة فجأة؟ فيقول:

«انشاء جميع الاشجار والاوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية، دفعة واحدة في غضون بضعة ايام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئة نفسها التي كانت عليها في الربيع السابق.. وكذلك ايجاد جميع أزهار الاشجار وثمارها واوراقها بسرعة خاطفة، كما كانت في الربيع الماضي.. وكذلك تنبه البُذيرات والنوى والبذور وهي لا تحصى ولا تعد والتي هي منشأ ذلك الربيع في آن واحد معاً وانكشافها واحياؤها.. وكذلك نشور الجثث المنتصبة والهياكل العظمية للاشجار، وامتثالها فوراً لأمر «البعث بعد الموت». . وكذلك احياء افراد انواع الحيوانات الدقيقة وطوائفها التي لا حصر لها بمنتهى الدقة والاتقان.. وكذلك حشر أمم الحشرات ولا سيما الذباب الذي يفوق عدد ما ينشر منه في سنة واحدة عدد بنى آدم جميعهم من لدن آدم عليه السلام.. فحشر هذه الحشرة في كل ربيع مع سائر الحشرات الاخرى واحياؤها في بضعة ايام، لا يعطي مثالاً واحداً بل آلاف الامثلة على انشاء الاجساد البشرية فوراً يوم القيامة.

نعم، لما كانت الدنيا هي دار «الحكمة» والدار الآخرة هي دار «القدرة» فان ايجاد الاشياء في الدنيا صار بشئ من التدريج ومع الزمن. بمقتضى الحكمة الربانية وبموجب اغلب الاسماء الحسنى امثال «الحكيم، المرتّب، المدبر، المربي». اما في الاخرة فان «القدرة» و «الرحمة» تتظاهران اكثر من «الحكمة» فلا حاجة الى المادة والمدة والزمن ولا الى الانتظار. فالاشياء تنشأ هناك نشأة آنية»(٤٥).

(٤٥) الكلمات ١٢٢.

النبوة

النبوة هو الركن الثالث من اركان الاسلام وقد انكرها جمع من القدماء كطائفة من البراهمة في الهند [٤٦]، والصابئة [٤٧]، وبعض الفلاسفة، وقد تأثر بفلسفتهم بعض المتفلسفة من المسلمين كابن الراوندى الملحد [٤٨].

وأما في العصر الحديث، فقد انكرت الفلسفات المادية ليست النبوة فحسب، وانما انكرت وجود الله واليوم الآخر والغيبيات جميعها.

وقد سرى هذا الداء الخطير الى بعض ابناء الملة الاسلامية الذين تأثروا بتلك الفلسفات، فنشروها بين المسلمين، ولاسيما في عهد الانقلابات الكمالية. ولذلك فقد اهتم «النورسى» ببيان هذا الركن من اركان العقيدة الاسلامية. وناقشها مناقشة عقلية وعلمية في غاية القوة والاقناع.

ولو جمعنا كل ما كتبه النورسي في موضوع ضرورة النبوة، نجد أنه ينطلق من ان سر نظام العالم يقتضى النبوة، ذلك لأننا إذا آمنا بالله خالقاً للوجود. وثبت لنا بالضرورة ان له الاسماء الحسنى التي تتجلى في الوجود، بها اعتنى الله تعالى بمخلوقاته غاية الاعتناء، فهل من المعقول، أن يحرم اشرف مخلوقاته، من هذه العناية والتوجيه الرباني؟

يقول النورسي:

---

(٤٦) اديان الهند الكبرى للدكتور احمد شلبى ٤٩ – ٩٤.

(٤٧) الصابئون، للدكتور رشدى عليان ص ١٠٣.

(٤٨) اصول الدين الاسلامى للدكتور رشدى عليان والدكتور قحطان الدورى ٢٠٧.

«إن القدرة الالهية التي لا تترك النمل دون امير والنحل من دون يعسوب، لا تترك حتما البشر من دون نبى، من دون شريعة.. نعم هكذا يقتضى سر العالم»(٤٩).

ويفصل النورسى هذا القانون الكونى السارى في مخلوقات الله جميعا من خلال صلة الله بالوجود فيقول:

«نعم، يلزم ان يكون لمثل هذا الكون البديع ولصانعه القدوس، مثل هذا الرسول الكريم، كلزوم الضوء للشمس. لانه كما لا يمكن للشمس الاّ ان تشع ضياءً كذلك لا يمكن للألوهية إلاّ ان تظهر نفسها بارسال الرسل الكرام عليهم السلام.

فهل يمكن ان لا يرغب جمالٌ في غاية الكمال في اظهار نفسه بوسيلة ودليل يعرّفه؟

ام هل يمكن ان لا يطلب كمالٌ في غاية الجمال الاعلانَ عنه بوساطة يلفت الانظار اليه؟

أم هل يمكن ان لا تطلب سلطنةٌ كلية لربوبية عامة شاملة اعلان وحدانيتها وصمدانيتها على مختلف الطبقات بوساطة مبعوث ذي جناحين؟ أي ذي صفتين: صفة العبودية الكلية، فهو ممثل طبقات المخلوقات عند الحضرة الربانية. وصفة الرسالة والقرب اليه، فهو مرسل من لدنه سبحانه الى العالمين كافة.

ام هل يمكن لصاحب جمال مطلق ان لا يروم ان يشهد هو ويُشهد خلقه محاسن جماله ولطائف حسنه في مرايا تعكس هذا الجمال؟ أي

(٤٩) الكلمات ٨٤٣.

بوساطة رسول حبيب؛ فهو حبيب لتودده الى الله سبحانه بعبوديته الخالصة، وهو رسول حبيب لأنه يحبب الله سبحانه الى الخلق باظهار جمال اسمائه الحسنى.

أم هل يمكن ان لا يريد مَن يملك خزائن مشحونة بأغلى الاشياء واعجبها وبما يدهش العقول، اظهارَ كماله المستتر. وان لا يطلب عرضه على انظار الخلق اجمعين، وكشفَه على مرأى منهم، بوساطة معرّف حاذق ومعلن وصّاف؟

أم هل يمكن لِمَن زيّن هذا الكون بمخلوقات معبّرة عن كمال اسمائه الحسنى، وجعله قصراً رائعاً، وجمّله ببدائع صنعته المذهلة، وعرضه على الأنظار، ثم لا يكل أمر ايضاحه الى مرشد معلم رائد؟.

أم هل يمكنَ ان لا يبيّن مالك هذا الكون بوساطة رسول: ما الغاية من تحولات هذا الكون وما القصد من هذا الطلسم المغلق؟ وان لا يجيب بوساطته عن ألغاز الاسئلة الثلاثة المستعصية في الموجودات، وهي: من أين؟ والى أين؟ ومن تكون؟

ام هل يمكن للخالق ذي الجلال الذي عرّف نفسه الى ذوي الشعور بهذه المخلوقات الجميلة، وحبّبها اليهم بنعمه الغالية، أن لا يبيّن لهم بوساطة رسول ما يريد منهم وما يرضيه ازاء هذه النعم السابغة؟

ام هل يمكن للخالق الذي ابتلى النوع الانساني باختلاف المشاعر والاتجاهات، وهيأ استعداده للعبودية التامة الكلية، أن لا يطلب توجيه انظار هذا النوع من الكثرة الى التوحيد بوساطة مرشد مرسل؟»(٥٠).

---

(٥٠) الكلمات ٦٢– ٦٣.

فاذا كان النبى هو الصلة بين الله وعباده، فاذن هو في ارقى مقام، لا يرقى اليه اى مقام لبشر مهما تدارك في مراتب العبودية لله تعالى. ولذلك فان النورسى يقول:

«ان اعظم ولى من الاولياء لا يبلغ مقام اىّ نبىّ من الانبياء»(٥١).

ومن الجدير هنا بالذكر أن معظم دراسات النورسي حول النبوة قد تركز حول نبوة الرسول الاعظم، محمد بن عبدالله ﷺ، لأنه الباب الذي يؤدى الى اثبات نبوة الانبياء والمرسلين جميعا، لاسيما المذكورين في القرآن الكريم بالنبوة والرسالة.

ثم ان النورسي ينطلق في اثبات نبوة محمد ﷺ من اسم «الحكم» واسم «الحكيم» اللذين يقتضيان بداهة نبوة محمد ﷺ ورسالته ويدلان عليهما ويستلزمانها.

يقول:

«نعم! مادام الكتاب البليغ بمعانيه ومراميه، يقتضي بالضرورة معلماً بارعاً لتدريسه.. والجمال الفائق يقتضي مرآةً يتراءى فيها، ويُري بها جمالَه وحُسنه.. والصنعةُ البديعة تستدعي منادياً داعياً اليها..

فلابد ان يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحِكَم الدقيقة في كل حرف من حروفه، اقول:

لابد ان يوجد رائدٌ اكمل، ومعلمٌ اكبر، ليرشد الناس الى ما في ذلك الكتاب الكبير من حِكَم مقدسة حقيقية.. وليعلّم وجود الحِكَم المبثوثة في

(٥١) الكلمات ١٤٩.

ارجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد الى مايريد الخالق اظهاره من كمال صنعته البديعة، وجمال اسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة - باسم المخلوقات قاطبة - تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيراً الشوق وناثراً الوجد في الآفاق براً وبحراً ملفتاً انظار الجميع الى الصانع الجليل بدعوة ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به ارجاء السماوات والارض.. وليقرع اسماع جميع ارباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدسة سامية وارشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبين بأجمل صورة واجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع «الحكم الحكيم».. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فانسانٌ هذه مهمته، انسان ضروري وجوده، بل يستلزمه هذا الكون، كضرورة الشمس ولزومها له.

فالذي يؤدي هذه المهمات، وينجز هذه الوظائف على اتم صورة ليس الا الرسول الاكرم ﷺ كما هو مشاهد؛ لذا فكما تستلزم الشمس الضوء، ويستلزم الضوء النهار، فالحِكَم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوة محمد ﷺ ورسالته»(٥٢).

ويتحدث النورسي عن حقيقة الدعوة وما فعلته في هذا العالم وما حصل فيه من تأثير عظيم بقوله:

«نعم لقد تبدل وضع العالم بنور النبي ﷺ، وتبينت حقيقة الانسان والكون وماهيتها بذلك النور، وانكشفت بذلك الضياء، فظهر ان

(٥٢) اللمعات ٥٣٦، ٥٣٧.

موجودات هذا الكون مكاتيب صمدانية تستقرئ الاسماء الحسنى، ومأمورات موظفات، وموجودات نفيسة ذات معنى ومغزى، تليق بالبقاء، فلولا ذلك النور لظل الكون مستوراً تحت ظلام الاوهام محكوما عليه بالفناء المطلق والعدم، تافها دون معنى ودون نفع، بل كان عبثا وسدى ووليد الصدفة. ولهذا السر فان كل شئ في الارض والسماء من الثرى الى الثريا يستضئ بنوره ﷺ، ويبدى علاقته مثلما يؤمّن الانسان لدعائه، ولا غرو ان روح العبودية المحمدية ومخها انما هو الدعاء، بل ان حركات الكون ووظائفه جميعا ما هي الا نوع من الدعاء، فنمو البذرة وتحولاتها مثلا ما هو إلا نوع من دعاء لبارئها لتصبح شجرة باسقة»(٥٣).

ويكاد النورسي يوقن ان الكائنات قد خلقت لاجله ﷺ لبروز غاياتها به، وظهورها بالدين الذي بعث به، وانجلائها بالقرآن الذي نزل عليه(٥٤).

ولأنه الفرد الكامل، وهو النبي الكامل، لا بد ان يكون الكتاب الذي نزل عليه كتابا كاملا، استمع اليه وهو يعلل هذه الحقيقة الكبيرة بقوله:

«لما كان خالق هذا الكون، يخلق من كل نوع فرداً ممتازاً كاملاً جامعاً، ويجعله مناط فخر وكمال ذلك النوع، فلاشك انه يخلق فرداً ممتازاً وكاملاً - بالنسبة للكائنات قاطبة - وذلك بتجلي الاسم الاعظم من اسمائه الحسنى. وسيكون في مصنوعاته فرداً أكمل كالاسم الاعظم في اسمائه. فيجمع كمالاته المنتشرة في الكائنات في ذلك الفرد الاكمل، ويجعله محط نظره.

ولاريب ان ذلك الفرد سيكون من ذوي الحياة، لان أكمل انواع الكائنات هم ذوو الحياة، ويكون من ذوي الشعور، لان أكمل انواع ذوي

(٥٣) الكلمات ٧٤.
(٥٤) المكتوبات ١٢٢

الحياة هم ذوو الشعور، وسيكون ذلك الفرد الفريد من الانسان، لان الانسان هو المؤهل لما لا يحد من الرقي. وسيكون ذلك الفرد حتماً محمداً الامين ﷺ، لأنه لم يظهر أحد في التأريخ كله مثله منذ زمن آدم عليه السلام والى الآن، ولن يظهر. لان ذلك النبي الكريم ﷺ قد ضم نصف الكرة الارضية وخمس البشرية ضمن سلطانه المعنوي وحاكميته التي دامت ألفاً وثلاثمائة وخمسين عاماً بكمال هيبتها وعظمتها. واصبح استاذاً لجميع اهل الكمال في جميع انواع الحقائق، ونال أرقى المراتب في السجايا الحميدة باتفاق الاصدقاء والاعداء، وتحدى العالم اجمع وحده ـ في اول أمره ـ وأظهر القرآن الكريم الذي يتلوه اكثر من مائة مليون من الناس في كل دقيقة..

فلابد ان نبياً كريماً كهذا النبي ﷺ هو ذلك الفرد الفريد لا احد غيره ابداً. فهو نواة هذا العالم وثمرته. عليه وعلى آله واصحابه الصلاة والسلام بعدد انواع الكائنات وموجوداتها»(٥٥).

لقد تكلم النورسي عن الرسول ﷺ والقرآن الكريم كثيرا. يكفي ان تقرأ له في اثبات نبوته «الكلمة التاسعة عشرة» حتى توقن ان محمداً ﷺ هو النبي الخاتم والكلمة الحق والمثل الأعلى للكائن الحي في هذا الوجود، لأنه هو في شخصيته البرهان الناطق والشاهد الصادق على كل ما ادعاه من حقائق الوحدانية واسرار الشريعة النورانية(٥٦).

ـ كل ما في الكون من قانون ونظام وانبياء ومرسلين واولياء وصالحين وعقلاء يؤيدونه في كل ما جاء به.

---

(٥٥) المكتوبات ٣٩٦.

(٥٦) انظر المعجزات الاحمدية «المكتوب التاسع عشر».

– تصدقه مئات من بشارات الأنبياء والارهاصات الكثيرة الموروده، ومئات من معجزاته الشريفة التي رويت متواترة.

– اجمع اهل زمانه على شخصيته الخارقة وحسن صورته الفائقة، في حسن سيرته الرائقة.

– لم يأت عابثا لاعبا. انه يبحث عن سر خلقة العالم والكائنات ويجيبك عن الاسئلة الثلاثة التي اشغلت بال العقلاء. من انت؟ ومن اين؟ والى اين؟.

– حوّل ليل العالم نهاراً وشتاءه ربيعا وعبوسه القمطرير ضاحكا مسرورا بحقائق دينه وقوة شريعته ونظامه الروحي.

– حرك الكائنات وقضى على العبثية في الخلق. فترقى الانسان فعرف نفسه وعرف حقائق الحياة.

– أخبر عن السعادة الأبدية وكشف عن رحمة الله في الكون ودلّى العالم الى الخير. فهو من جهة رسالته برهان الحق ووسيلة السعادة، وهو من جهة عبوديته مثال المحبة الرحمانية، وتمثال الرحمة الربانية وشرف الحقيقة الانسانية.

– احاط نوره ودينه بالشرق والغرب في سرعة البرق.

– حول القبائل البدائية المختلفة في صحراء الجزيرة الشاسعة الذين كانوا يتعصبون لدينهم ويعاندون في عصبيتهم ويفتخرون باخلاقهم الى نماذج الاخلاق الرفيعة وحولهم الى معلمي العالم واساتذة الأمم المتمدنة.

– كان قويا في دعوته، واجه طوفان الفساد والجاهلية في قومه، بلا تردد او اضطراب وبلا تحير او تحرج وبلا خوف او وجل وباسلوب يزيف

عقولهم، ويثير اعصابهم ويحقر نفوسهم ويكسر عزتهم، يبين لهم الحقائق كاملة، ولا يدلس عليهم في شئ.

– عاش في هذه الدنيا زاهدا، لا يطلب الرئاسة ولا الاستكبار لنفسه بل طلب السعادة العظمى للدارين لجميع الخلائق، بتواضع منقطع النظير، وبعبودية خاشعة ذليلة لخلاق السموات والارض[٥٧].

وهكذا يستمر النورسي في رشحاته تلك، ويتغلغل في سبر اغوار الشخصية النورانية، لكي يقول للعالم: لا يمكن ان يكون غير هذا المبارك خاتم الانبياء والمرسلين.

وأمر آخر شغل النورسي كثيرا في اثبات نبوة محمد ﷺ، وهو اثبات اعجاز القرآن الكريم. وبذلك جمع بين أحقية الرسول واحقية الرسالة، لمعالجة شكوك العصر، وادخال اليقين الى عقول وقلوب ونفوس الامة المسلمة مرة اخرى، بعد ان تعرضت لآفات العصر وزيف الفكر الثقافي في المدنية المعاصرة.

وينطلق النورسي في اثبات اعجاز القرآن من روح الدراسات الاعجازية السابقة ومصطلحاتها البلاغية في مسائل جزالة اللفظ الخارق في اطار نظم القرآن وقوانينه، والبلاغة الخارقة في معانيها المتشابكة مع اللفظ في انسجام رائع بحيث يخرج الى الوجود بداعة خارقة في اسلوبه الشمولي، بحيث يولد في الوقت نفسه فصاحة خارقة في لفظه، وبداعة خارقة في معناه. وبذلك يجمع القرآن الكريم السلاسة الرائقة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون القوى بين الجمل وهيئاتها والتجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها[٥٨].

---

(٥٧) الكلمات ٢٥٤ – ٢٦٨ باختصار.

(٥٨) الكلمات ص ٤٨١.

والحق انك لو جمعت كل ما كتبه النورسي في تفسيره لمقدمة سورة البقرة في كتابه «اشارات الاعجاز» وما كتبه في رسالته اعجاز القران، لتبين لك انه لم يكن ناقلا، وانما كان مجددا أيضا في هذه الدراسات بسبب انه:

– عالج موضوع اعجاز القرآن بلغته الخاصة، وادخله في صلب الصراع الفكري مع مبادى الحضارة الغربية المادية، حتى تتجلى لصاحب كل ذي لبّ استاذية القرآن الكريم(٥٩).

– وسع دائرة الاستدلالات والأمثلة بتحليلات جديدة لبلاغة القرآن لفظا واسلوبا ومعنى ونظما(٦٠).

– وسع دائرة التناسب، من التناسب بين السور والآيات الى التناسب بين الكلمات(٦١).

ويعالج النورسي مشكلات خاصة اثارها في زمانه اللادينيون عن معجزات الرسول الاعظم ﷺ، كي يحدثوا زعزعة وشكوكا في اذهان الجيل الجديد الذي سيطروا بقوة السلاح والارهاب على توجيهه وتربيته. مثال ذلك موضوع معراج النبى ﷺ.

هذه المسألة ككثير من المسائل الغيبية في الاسلام، لم يعد يتحملها العقل المادي الحديث الذي اثر في عقلية الجيل المسلم فوضعه في طريق الشك وشبهات الكفار.

ومن هنا فان النورسي كتب عن هذه القضية في ظل منهجه العقلي الفطري والعلمي وسياحته الكونية، لاستبيان نظامه الدقيق، فلم يدع شيئا

(٥٩) الكلمة الخامسة والعشرون ٤٧١ – ٤٧٧.
(٦٠) الكلمات ٤٢٦– ٤٥٠.
(٦١) اشارات الاعجاز في مظان الايجاز – الآيات الاولى من سورة البقرة.

يتعلق بالمعراج وضرورته وحكمته وفائدته إلا تحدث عنها، ولم يترك شبهة ترد في بال الملاحدة إلا أجاب عنها[٦٢].

كذلك فعل في موضوع معجزة انشقاق القمر. فلقد رد على الشاك بادلة عقلية وتاريخية ونقلية. ومثله فعل في موضوع ترجمة القرآن الكريم[٦٣].

ويهتاج النورسي هيجانا عظيما، عندما تتزاحم الأدلة العقلية والعلمية في ذهنه، وعندما يذوب كيانه خاشعا في حقائق الالوهية، ودقة وعظمة قوانين الكون، وعندما يختلط بكل هذا اقتناعه العميق باحقية دينه، وصدق رسالة ربه ورسوله الذي ارسله رحمة للعالمين. فيصور الكون بدون الرسالة المحمدية فيقول:

« فاذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق الكون جن جنونه وفقدت الكرة الارضية صوابها وزلزل عقلها وظلت بلا شعور واصطدمت باحدى سيارات الفضاء وقامت القيامة»[٦٤].

أى إذا كان أمر هذا الكون، بلا قرآن، بلا محمد، بلا اسلام، غدا عدما محضا، وموتا محققا.

فكيف بمجتمع الاسلام يقرر طواعية، تحت زحف اللادينية الأوربية أن يعيش بلا عقيدة ربانية، وبلا شريعة محمدية، وبلا قانون اخلاقي اسلامى؟

ماذا سيجرى له؟ ماذا سيكون مصيره؟ ألا يكون مصيره، العبث والفساد، او الخراب والفناء؟.

---

(٦٢) الكلمات ٦٦٧.
(٦٣) الكلمات ٥٣٨.
(٦٤) الكلمات ٥٣٨.

القدر

هذا الموضوع من الموضوعات التي حيرت عقول الانسان منذ اقدم العصور الى اليوم، حارت فيه عقول اهل الاديان وعقول الفلاسفة، وباعتبار ان الاسلام آخر الاديان السماوية، فقد وضح القرآن الكريم هذه المسألة توضيحا مبينا في آيات كثيرة. غير ان التراث الكلامي والفلسفي الذي خالط فكر المسلمين عبر التاريخ دفعهم الى أتون الخلاف، فمن جبرية الى قدرية الى المتوسطين بينهما. واستطيع أن اقول ان المدارس الكلامية المعروفة في التأريخ الاسلامي قد رفضت الجبرية المحضة رفضا قاطعا.

فكثير من علماء السلف ذهبوا الى ان العبد فاعل لفعله حقيقة، والله هو الخالق له حقيقة(٦٥).

وذهب المعتزلة الى ان الانسان خالق لفعله حقيقة، ولم ينكروا أن الله تعالى هو الذي خلق الانسان وقدراته واستعداداته على القيام بالفعل(٦٦).

وذهب الاشاعرة الى ان الله تعالى هو الخالق للفعل، والعبد هو الذي يكسبه(٦٧).

الحق ان المدقق المنصف لذلك الخلاف يجده خلافا لفظيا، إذ إن اصحاب تلك المذاهب الاسلامية المعروفة يعدون الانسان مسؤولا عن عمله، لانه مكلف شرعا، اناط الله به الخلافه في الأرض.

(٦٥) مجموعة فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٦/ ٢٣٦، ٢٣٧.
(٦٦) المعتزلة لزهدى حسن جار الله ٩٢.
(٦٧) الاقتصاد في الاعتقاد للامام الغزالي ٤٣.

والنورسي عندما يتحدث عن القدر لا يخالف المعنى المتفق عليه بين المدارس الاسلامية. غير ان معالجاته للقدر عليها مسحته الخاصة في تناول الامور الفكرية بتعمق وشمولية، واخراجها من التجريدات الى الوقائع، كي يفهمها كل مسلم بقدر ما اوتي من اليقين وقوة الفكر وشدة الذكاء وامتلاك ناصية العلم.

على ان النورسي قد خصص رسالة خاصة بالقدر في «كلماته» وهي الكلمة السادسة والعشرون. ويستهلها بقوله:

«ان القدر والجزء الاختياري جزءان من ايمان حالي ووجداني، يبيّن نهاية حدود الايمان والاسلام، وليسا مباحث علمية ونظرية.

اي: ان المؤمن يعطي لله كل شئ، ويحيل اليه كل أمر، وما يزال هكذا حتى يحيل فعله ونفسه اليه. ولكي لا ينجوٍ في النهاية من التكليف والمسؤولية يبرز امامه الجزء الاختياري قائلاً له: «انت مسؤول، أنت مكلّف»!

ثم انه لكي لا يغتر بما صدر عنه من حسنات وفضائل، يواجهه القدر، قائلاً له: «اعرف حدّك، فلست انت الفاعل».

اجل! ان القدر والجزء الاختياري هما في اعلى مراتب الايمان والاسلام قد دخلا ضمن المسائل الايمانية، لانهما ينقذان النفس الانسانية.. فالقدر ينقذها من الغرور، والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية. وليسا من المسائل العلمية والنظرية التي تفضي الى ما يناقض سر القدر وحكمة الجزء الاختياري كلياً بالتشبث بالقدر للتبرئة من مسؤولية السيئات التي اقترفتها النفوس الامارة بالسوء والافتخار بالفضائل التي انعمت عليه والاغترار بها واسنادها الى الجزء الاختياري».

ويمكننا بعد قراءة تلك الرسالة العميقة قراءة متفحصة أن نستخلص منها المبادئ التي تهمنا لإفهام هذه المسألة العويصة للقارئ الكريم:

– إن مسائل القدر والاختيار من المسائل الايمانية المهمة، لانهما ينقذان النفس البشرية، فالقدر ينقذها من الغرور، لان الله تعالى خالقه وخالق الداعية فيه، فليس هو. إذن ارادته ليست مستقلة، وانما تجرى في داخل الارادة الالهية. والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية، لأن الله تعالى لما كلفه خيّره، إذ إن التكليف لا يكون بلا اختيار.

– الانسان لا يجوز ان يتشبث بالقدر للتبرئة من مسؤلية السيئات التي اقترفتها نفسه الامارة، لانه هو الذي اراد السيئات.

– إن الانسان في فعل الحسنات حصته ضئيلة، لان الرحمة الالهية هي التي ارادت الحسنات، واقتضتها، والقدرة الربانية هي التي اوجدتها.

ولا ينكر النورسى ان الله هو الذي اوجد تلك السيئات ايجادا تكوينيا، بقانون الهي، اي من حيث الخلق والايجاد الخاص به سبحانه وتعالى، ولذلك فان خلق الشر ليس شرا، وانما كسب الشر هو الشر. وبما ان الانسان قد اكتسبه، فهو عنه مسؤول امام خالقه.

إذن ليس في الخلق الالهى شر ولا قبح، لان الشر يعود الى كسب العبد والى استعداده، اي إن اختيارات الانسان هي التي تظهر الشر على اصل الخلق الالهي. مثال ذلك – ولله المثل الاعلى – إن العلم في حدّ ذاته ليس قبيحا. ولكن الانسان بسوء استعماله، يوجهه الى الشر. والشر هذا ناتج من فعله، وليس من اصل وجود العلم وخلقته.

– إن الجزء الاختياري لا ينافي القدر. بل القدر يؤيد الجزء الاختياري، لان القدر نوع من العلم الالهي، وقد تعلق العلم الالهي باختيارنا، ولهذا

يؤيد الاختيار ولا يبطله، لان وجود القدر هو مادة الكسب. ولولا الموجود القدرى السابق، لما حصل الكسب، ولبطل الامتحان اصلا.

– ان العادل الحكم قد اعطى الانسان جزءاً اختياريا مجهول الماهية، ليكون مدار ثواب وعقاب، وان كل انسان يشعر بالضرورة في نفسه ان له ارادة واختيارا، وان التوفيق بين القدر الالهي وهذا الاختيار خاف علينا.

–كل شئ – كبيرا او صغيراً – يدخل في دائرة الوجود فهو بقدر الله تعالى، والقدر هو علم الله تعالى، بما يقع في ملكه، والذى وقع في ملكه كان يجب ان يقع بقدرة الله تعالى، اي بايجاده وخلقه، ولكن الله تعالى جعل ارادة الانسان الجزئية الضعيفة شرطا عاديا لارادته الكلية، فاى طريق يختاره للسلوك يسوقه اليه بقدره، اى سلوك العبد ولو وقع داخل ارادة الله الكلية، فانه يكون مسؤولا عنه، لانه كان ذلك بارادته واختياره.

لو اعدنا النظر بدقة في هذا التلخيص الدقيق لما كتبه النورسي في رسالة القدر، بعيدا عن بعض المناقشات الكلامية التي ذكرها العلماء وجدنا انه يتحرك في اطار الآيات القرآنية كعادته في تقرير الافكار، فانه دائما ينطلق من القرآن الكريم.

كقوله تعالى ﴿**وما كان لنفس ان تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا**﴾(آل عمران: ١٤٥).

وقوله تعالى ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾(الكهف: ٢٩).

وقوله تعالى ﴿**ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب**﴾(ابراهيم: ٥١).

وقوله تعالى﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون**﴾(الزمر: ٧٠).

وقوله تعالى﴿ **ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾(النساء: ٧٩).

وقوله تعالى ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا وما تحمل من انثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ (الفاطر:١١)

وقوله تعالى ﴿ **ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾(الحديد: ٢٢).

وقوله تعالى ﴿ **ونفس وما سواها ۞ فالهمها فجورها وتقواها ۞ قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾(الشمس:٧ – ١٠).

ومن جهة اخرى فانه لا يخرج عن مذهب الاشاعرة في تقريره مسائل القدر. والدليل على ذلك قوله:

«ان القدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً ـ فالارادة لا تتعلق مرة بالمسبب ثم بالسبب مرة اخرى ـ اي ان هذا المسبَّب سيقع بهذا السبب. لذا يجب الاّ يقال: ما دام موت الشخص الفلاني مقدّراً في الوقت الفلاني، فما ذنب من يرميه ببندقية بارادته الجزئية؛ اذ لو لم يرمه لمات ايضا؟...

الجواب: لأن القدر قد عّين موته ببندقية ذاك، فاذا فرضت عدم رميه، عندئذٍ تفرض عدم تعلق القدر. فبِمَ تحكم اذن على موته. الاّ اذا تركت مسلكَ اهل السنة والجماعة ودخلتَ ضمن الفرق الضالة التي تتصور قدراً للسبب وقدراً للمسبب، كما هو عند الجبرية. أو تنكر القدر كالمعتزلة. أما نحن اهل الحق فنقول: لو لم يرمه فان موته مجهول عندنا. أما الجبرية

فيقولون: لو لم يرمه لمات ايضاً. بينما المعتزلة يقولون: لو لم يرمه لا يموت»(٦٨).

ولا ينسى النورسي رحمه الله تعالى ان يذكر فائدة الايمان بالقدر، على عادته في عدم ابقاء هذه العقائد في برجها العاجي التجريدي، وانما ينزل بها للربط بينها وبين الحياة، كي يعالج بها الآم المجتمع.

يقول:

«فان قال: ان القدر قد كبّلنا وسلب حريتنا، الا ترى ان الايمان بالقدر يورث ثقلاً على القلب ويولد ضيقاً في الروح، وهما المشتاقان الى الانبساط والجولان؟

الجواب: كلا. حاشَ للّه! فكما ان القدر لا يورث ضيقاً، فانه يمنح خفة بلا نهاية وراحة بلا غاية وسروراً ونوراً يحقق الأمن والامان والروح والريحان؛ لأن الانسان إن لم يؤمن بالقدر يضطر لأن يحمل ثقلاً بقدر الدنيا على كاهل روحه الضعيف ضمن دائرة ضيقة وحرية جزئية وتحرر مؤقت، لأن الانسان له علاقات مع الكائنات قاطبة، وله مقاصد ومطالب لا تنتهيان الاّ ان قدرته وارادته وحريته لا تكفي لإيفاء واحد من مليون من تلك المطالب والمقاصد، ومن هنا يفهم مدى ما يقاسيه الانسان من ثقل معنوي في عدم الايمان بالقدر، وكم هو مخيف وموحش.

بينما الايمان بالقدر يحمل الانسان على أن يضع جميع تلك الاثقال في سفينة القدر، مما يمنحه راحة تامة، اذ ينفتح امام الروح والقلب ميدان تجوال واسع، فيسيران في طريق كمالاتهما بحرية تامة. بيد أن هذا الايمان يسلب من النفس الامارة بالسوء حريتها الجزئية ويكسر فرعونيتها ويحطم ربوبيتها ويحدّ من حركاتها السائبة»(٦٩).

(٦٨) الكلمات ٥٤٦.
(٦٩) الكلمات ٥٥٢.

الكون

يتحدث النورسي عن الكون والكائنات والطبيعة في رسائل النور كثيرا، ولكنه لا يتحدث عنه حديثا جامدا وكأنه يقوم وحده، مقطوعا عن خالقه.

وهو يعيب على الماديين منهجهم السقيم حين يتحدثون عن الكون وكأنه قائم وحده او خالق نفسه؛ اما قصدا او مصادفة. ويردّ ذلك بادلة علمية وعقلية، محسوسة او مجردة(٧٠).

يقول النورسي:

« يأتي ملحدٌ الى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع يعظّم فيه ذلك المعبود الازلي ويقدّس؛ يأتيه وهو يحمل فكرة « الطبيعة » الجاحدة ذلك الجهل المطبق..

فيتصور « القوانين المعنوية » التي يشاهد آثارها في ربط انظمة الكون البديع، والنابعة من « الحكمة » البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في ابحاثه كما يتعامل مع المواد، والاشياء الجامدة..

ويتخيل احكام قوانين الربوبية التي هي قوانين اعتبارية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية للمعبود الازلي، والتي هي بمجموعها معنوية بحتة، وليس لها وجود سوى وجود علمي، يتخيلها وكأنها موجودات خارجية ومواد مادية..

---

(٧٠) المكتوبات ٢٦٨، ٣١٢.

ويقيم تلك القوانين الصادرة من العلم الإلهي والكلام الرباني التي لها وجود علمي فقط مقام القدرة الإلهية، ويملّكها الخلق والايجاد، ويطلق عليها اسم «الطبيعة»، متصوراً القوة التي هي تجلٍ من تجليات القدرة الربانية، انها صاحب قدرة فاعلة، وقديراً مستقلاً بذاته:

أفبعد هذا جهالة وغباء؟ او ليس هذا جهلا باضعاف اضعاف ما في المثال؟!»(٧١).

إن النظام الدقيق الموجود في الكون في عالم الجماد وعالم الحيوان وعالم الانسان من الذرة الى المجرة لدليل قاطع على انه مخلوق لإله خالق عظيم يتصف باسماء وصفات تتجلى فيه تجليا رائعا(٧٢).

واذا قرأت رسالة «الآية الكبرى» التي يتجول فيها الباحث عن الحق في اسرار الكون، واردفتها بقراءة رسالة «الطبيعة» ظهر امامك جمال وجلال الحقيقة الكونية ظهورا مشرقا.

إن النتيجة الحتمية لتجليات الاسماء الحسنى في الكون هي انتظام الكون المادي، بشمولية قوانينه وحركته المستمرة وتجدده الدائم، وترابط اجزائه وكونه موضوعا للتأمل العميق والاستنباط الدقيق والانتفاع الأبدي(٧٣).

يقول النورسي:

«ان موجودات الكون، بانواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً، ويسعى كلٌّ جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل بمجموعها واجزائها

---

(٧١) اللمعات ٢٨٢.
(٧٢) الكلمات ١٦١، ٣٧٥، ٧٤٩ على سبيل المثال.
(٧٣) المكتوبات ٢٧٨.

تروس معمل بديع ودواليبه – الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح – فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في اسعاف كلٍ منها لطلب الآخر، وامداد كلٍ جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء، يجعل من اجزاء الكون كله وحدةً متحدة تتعصّى على الانقسام والانفكاك. يشبه في هذا وحدةَ أجزاء جسم الانسان الذي لا يمكن فكّ بعضها عن البعض الآخر.

نفهم من هذا ان الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، ان لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً.

اذاً فـ «التعاون» و«التساند» و«التجاوب» و«التعانق» الواضحة على وجه الكون، انما هي أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد»[٧٤].

ومن هنا فان كل ما في الكون مسخر للانسان متلائم مع وجوده وحركته والغاية من خلقه.

ويشير النورسي في اماكن كثيرة من رسائله الى ان المادة الكونية ليست شرا في ذاتها، لان خلق الشر عنده ليس شرا، وانما اكتسابه هو الشر[٧٥]. وكل ما في الكون خلق لغايات حكيمة تبعا لتجلي اسم «الحكيم» ومن هنا فان المطلوب من الانسان ان يتخذ الكون المسخر له مكانا للفاعلية، لانه هو بنفسه كون صغير، تجلت فيه الاسماء الحسنى، كما تجلت في كل ذرة من ذرات الكون العظيم[٧٦].

---

(٧٤) اللمعات ٥٤٠.
(٧٥) الكلمات ٥٤٢.
(٧٦) المكتوبات ٢٦٠.

والذي يقرأ رسائل النورسي بعمق، يدرك تماما انه يفهم الكون فهما عقلانيا، مبنيا على السريان الدقيق في مظاهره واسراره وقوانينه وحركته، ولذلك فانه يرفض العبثية في الكون، لأن النور الالهى حوّل الكون من العبثية والتفاهة ولعبة المصادفة الى مكاتيب ربانية وصحائف آيات تكوينية ومرآة اسماء الهية[77].

* * *

(٧٧) اللمعات ٥٢٩ وما بعدها.

الانسان

معالجة قضية الانسان معالجة معرفية عميقة من اهم الموضوعات التي اهتم بها النورسي في رسائله النورية، وذلك على ما اظن لسببين:

اولهما:

إن القرآن الكريم اعطى مساحة واسعة لمعالجة قضية الانسان وبيان حقيقته، وتحديد مركزه وعلاقته بخالقه ومهمته في الوجود. والنورسي كان ينطلق في رسائله كلها من الكتاب الكريم. إذ إنه دخل في هذه الموضوعات من أوسع ابوابها واعمق جوانبها.

ثانيهما:

لقد فتتت الحضارة المادية المعاصرة كيان الانسان ومزقت حقيقته وضيعت مركزه، وقضت على مهمته الحقيقية في الوجود. ولذلك تاه الانسان تيهانا مروعاً في ظلمات جاهليتها، وعبر هذا التيه الى الانسان المسلم فأفسده وجعله ريشة في مهب ريح القيم الحضارية المادية، ولذلك فان النورسي وجه معالجاته لقضية الانسان عامة والانسان المسلم خاصة.

إن حقيقة الانسان عند النورسي حقيقة كونية ضخمة لان الانسان هو الصنعة الالهية للخالق سبحانه وتعالى. وهو ارقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلقه البارئ مظهراً لتجليات اسمائه الحسنى، وجعله مدارا لجميع نقوشه البديعة جلت عظمته، فصيّره مثالا مصغرا ونموذجا للكائنات باسرها (٧٨).

---

(٧٨) الكلمات ٣٤٩.

ولذلك فان الانسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم ان الثمرة هي ابعد اجزاء الشجرة واجمعها والطفها(٧٩).

وللسبب ذاته، جعل الله تعالى الانسان مركزا للكون ومحورا. بل سخر له الكون، بتنظيم انواع النعم المبثوثة في الكائنات وربطها بأوامر المنافع التي تخص الانسان، من منطلق انه من غير المعقول ان يترك الصانع الحكيم الانسان سدى، وهو الذي خلقه، اعظم نتيجة للسموات والارض، واكمل ثمرة من ثمرات العالم، ومن غير المعقول ان يتركه للاسباب والمصادفات(٨٠).

ومن جهة اخرى فان الانسان مرآة صادقة لحقائق الكون، وكأنه وحدة قياس بما يملك من جامعية حياته، فمثلا قوته الحافظة دليل على وجود اللوح المحفوظ وقوة خياله دليل على وجود عالم المثال ولطائف الانسان وقواه دليل على العالم الروحاني(٨١).

وهو يملك اجهزة يتمكن بها تقدير وتثمين خزائن رحمته الواسعة. وهو مخلوق على صورة خليفة في الارض، يملك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات اسماء خالقه الحسنى (٨٢).

ويخطو النورسي في بحث عميق خطوة أبعد من ذلك، وهو يفسر الامانة في قوله تعالى ﴿ **انا عرضنا الامانة** ﴾ الآية فيقول: إن الانسان مرآة خيالية عاكسة، تعكس الحقائق الالهية.

« فمثلا يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة ملكه ربوبية خالقه المطلقة سبحانه وتعالى في دائرة الممكنات. ويدرك بمالكيته الظاهرية

---

(٧٩) الكلمات ٢٠٤.

(٨٠) المكتوبات ٣٠٧.

(٨١) اللمعات ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٧.

(٨٢) المكتوبات ٤٧٣.

مالكية خالقه الحقيقية، فيقول: كما انني مالك لهذا البيت فالخالق سبحانه كذلك مالك لهذا الكون، ويعلم بعلمه الجزئى علم الله المطلق، ويعرف بمهارته المكتسبة الجزئية بدائع الصانع الجميل. فيقول مثلا: كما انني شيدت هذه الدار ونظمتها، كذلك فلا بد من منشئ لدار الدنيا ومنظم لها...

اى ان «انا» لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره.

ولكن لـ «أنا» وجهان؛ وجه متوجه الى الخير والوجود، فهو في هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، اى يقبل الافاضة عليه فقط، إذ هو عاجز عن ايجاد شئ في هذا الوجه، اى ليس فاعلا فيه، لأن يده قصيرة، لا تملك قدرة الايجاد. والوجه الآخر متوجه الى الشر، ويفضي الى العدم، فهو في هذا الوجه، فاعل وصاحب فعل...

ثم ان ماهية «أنا» حرفيه، اي يدل على معنىً في غيره، فربوبيته خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل الى حد انه لا يطيق ان يحمل بذاته ايّ شئ» بل في وجوده يعتمد على اللطف الالهي، ويعكس تجليات اسمائه الحسنى. «فالذي يعرف ماهية «أنا» على هذا الوجه ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه يدخل ضمن بشارة قوله تعالى ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾(الشمس: ٩) ويكون قد ادى الامانة حقها».

يقول النورسي تعليقا على قوله تعالى:﴿**وقد خاب من دساها**﴾(الشمس: ١٠):

«وهكذا فان اشفاق السموات والارض والجبال من حمل الامانة، ورهبتهن من شرك موهوم مفترض، انما هومن هذا الوجه من «الانانية» التي تولد جميع انواع الشرك والشرور والضلالات.

اجل! إن «انا» مع أنه الف رقيق، خيط دقيق خط مفترض، إلا انه ان لم تعرف ماهيته ينمو في الخفاء – كنمو البذرة تحت التراب – ويكبر شيئا فشيئا، حتى ينتشر في جميع انحاء وجود الانسان، فيبتلعه ابتلاع الثعبان، فيكون ذلك الانسان بكامله وبجميع لطائفه ومشاعره عبارة عن «انا». ثم تمده «انانية» النوع نافخة فيه روح العصبية النوعية والقومية، فيستغلظ بالاستناد على هذه «الانانية» حتى يصير كالشيطان الرجيم يتحدى اوامر الله ويعارضها. ثم يبدأ بقياس كل الناس، بل كل الاشياء على نفسه ووفق هواه، فيقسم ملك الله سبحانه على تلك الاشياء، وعلى الاسباب فيتردى في شرك عظيم، يتبين فيه معنى، الآية الكريمة ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾(لقمان: ١٣) إذ كما ان الذي يسرق اربعين دينارا من اموال الدولة، لابد ان يرضى اصدقاءه الحاضرين معه، بأخذ كل منهم درهما منه، كي تسوّغ له السرقة. كذلك الذي يقول: إنني مالك لنفسي، لابد من ان يقول ويعتقد ان كل شئ مالك لنفسه!

وهكذا، فـ «انا» في وضعه هذا المتلبس بالخيانة للامانة، إنما هو في جهل مطبق، بل هو اجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة حتى لو علم آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن ما تتلقفه حواسُه وافكارُه من انوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون لا يجد في نفسه مادة تصدقه وتنوره وتديمه. لذا تنطفئ كل تلك المعارف. وتغدو ظلاما دامسا؛ إذ ينصبغ كل ما يرد اليه بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمة محضة باهره فانها تلبس في نفسه لبوس العبث المطلق. لأن لون «انا» في هذه الحالة هو الشرك وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة وانكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ

الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدى، فان النقطة المظلمة الموجودة في «انا» تكسف جميع تلك الانوار القادمة وتحجبها عن الظهور»[٨٣].

والنورسي يريد ان يقول هنا ان الانسان ليس له معنى مستقل بنفسه، وانما هو معنى موجود بخالقه، إذا استكبر وظن انه وحده في هذا الوجود، بتوهم انه اله، حينئذ يحرم نفسه من جانب الخير فيه الذي هو انعكاس الحقائق الالهية. فاذا فهم الأمر على هذا الوجه انتفت فيه النفحة الربانية، ولم تبق حينئذ إلا النفثة الشيطانية، فلم يبق إلا الجانب الثاني، وهو النفس الامارة بالسوء، او الوجه الآخر المتوجه الى الشر.

والحضارة الغربية عندما الّهت الانسان وانكرت الاله، قضت على «الانا» المرآة العاكسة للحقائق الرحمانية، فحرمته من جانب الخير. وهذه هي ازمة الانسان في الحضارة الغربية التي انكر الوحي الالهي، واعتمد على العقل الانساني وحده.

وفي سبيل اعادة التوازن الى جانبي «الانا» او في سبيل اعادة الاعتبار الى الجانب الاول من «الانا» الضعيف المعتمد على اللطف الالهى والمتجلي لاسمائه وأسراره وحقائقه، فلا بد للانسان من الايمان، كي يعيده الى فطرته الاولى[٨٤].

ولكن واسفاه لقد بدأ العصر المادي الجديد بمسح الجانب الاول من «انا» وتضخيم الجانب الثاني واعتبره هي الحقيقة الكبرى في حياة الانسان بقيادة دهاقين الحضارة الغربية من اليهود وتلامذتهم، والذين شنوا هجوما كاسحاً على الايمان في كل مكان، ودعوا الى حذف الخطاب الالهي من

---

(٨٣) الكلمات ٦٣٧- ٦٣٩

(٨٤) الكلمات ٦٣٥ – ٦٣٩.

حياة البشر واللجوء الى العقل والغرائز الحيوانية وحدها لحل مشكلات الانسان. ونتيجة لقنوات الاتصال والاحتكاك الطبيعية والمصطنعة، ضربت رشقة مخططة من ذلك الاتجاه الاوربي الجاهلي اليهودي، العالم الاسلامي، ولاسيما بلد الخلافة ومركز القيادة الاسلامية، فظهر الشك والتردد والاستهزاء والانسلاخ من دائرة الايمان.

وعدّ ذلك النورسي الكارثة الكبرى التي حلّت بالمسلمين، ولذلك فان قضية انقاذ الايمان شغلت كيانه وقلمه ولسانه ودعوته، ونزل الى ميدان الصراع هذا مقاتلا وهاديا، منطلقا من اسرار القرآن الكريم وتوجيهاته الربانية، مستعينا بعبقرية عقليته السريانيه في الغوص الى اعماق الاشياء، ليجلّي للمسلين حقيقة حياة الايمان وثمراته اليانعة، وظلمة حياة الكفر ونتائجها الهادمة، بادئا من أصل المشكلة، عندما فصل موجهو الحياة والحضارة في الغرب بين جانبي الانسان بانهاء الجانب الموهوم الضعيف المحتاج الى الوحي الالهي وتقوية الجانب الشيطاني الفاعل في النفس الامارة بالسوء.

وعلى ذلك فان الايمان ضروري للانسان، لانه يربطه بصانعه الجليل، وينتسب اليه بوثاق شديد. فالايمان انتماء وانتساب، اما الكفر فيقطع تلك النسبة، وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية، وتطمس على معالمها، فتنقص قيمة الانسان، حيث تنحصر في مادته فحسب، وقيمة المادة لا يعتد بها. فهي بحكم المعدوم بكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة.

وينور الايمان العلاقة بين الانسان والزمن، فلا الزمن الماضي إذ ذاك مقبرة عظمى كما يُتوهم. بل هى مستودع قيادات الانبياء والاولياء

والصالحين والعلماء والاخيار والعادلين والابرار، ولا المستقبل عدم بل مقدمة لحقيقة خالدة هي الدار الآخرة، ولهذا لا يأس مما وقع في الماضي، ولا تشاؤم وفناء مما يقع في المستقبل.

وكما ان الايمان نور، فهو قوة ايضا تدفع الانسان الى التحدي ومواجهة خطوب الحياة بالتوكل على الخالق العظيم، وهو ليس رفضا للاسباب، وانما هو عبارة عن العلم بان الاسباب هي حجب بيد القدرة الالهية، ينبغي رعايتها ومداراتها، لأنه وضع ملائم ومرضي لله تعالى، فنحن نتخذ الاسباب، لان الله تعالى امرنا بذلك ضمن تشريعه الاجتماعي[٨٥].

وبما ان الانسان يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به، فهو بحاجة الى تجديد ايمانه دائما[٨٦].

إذن إذا آمن الانسان بالله، واصبح عبداً له وحده، فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات. اما اذا استنكف من العبودية وتجاهلها فسوف يكون عبدا ذليلا امام مخلوقات اخرى ذليلة.

« وخلاصة القول: ان النفس الامارة بامكانها اقتراف جناية لا نهاية لها في جهة الشر والتخريب، اما في الخير والايجاد فان طاقتها محدودة وجزئية، إذ الانسان يستطيع هدم بيت في يوم واحد، إلا انه لا يستطيع ان يشيده في مائة يوم. اما اذا تخلى الانسان عن الانانية، وطلب الخير والوجود من التوفيق الالهي، وارجع الأمر اليه وابتعد عن الشر والتخريب،

---

(٨٥) الكلمات ٣٤٨ – ٣٦٠.
(٨٦) المكتوبات ٤٢٧.

وترك اتباع هوى النفس، فاكتمل عبداً لله تعالى تائبا مستغفرا، ذاكرا له سبحانه، فسيكون مظهرا للآية الكريمة ﴿**يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾(الفرقان: ٧٠). فتنقلب القابلية العظمى عنده للشر الى قابلية عظمى للخير، ويكتسب قيمة «أحسن تقويم» فيحلق عاليا الى أعلى عليين»[٨٧].

* * *

(٨٧) الكلمات ٣٦١.





الفصل السادس

النورسي والفلسفة والحضارة

النورسي والفلسفة:

تشكل الفلسفة جانبا مهما من مصادر ثقافة النورسي. فقد درسها دراسة وافية بمدارسها المتنوعة منذ عصر اليونان الى زمانه. ولكنه رفضها ورفض مناهجها المستقلة عن الدين الحق الذي هو الاسلام.

إنه يقبلها في حالة واحدة، وهي إذا رأى انها استجارت بالدين وانقادت اليه واصبحت في طاعته. فحينئذ تنتعش الانسانية بالسعادة وتعيش حياة اجتماعية هنيئة(١).

وكأن النورسي يريد ان يقول: إن الدين الحق هو الحقيقة الكبرى اليقينية في هذا الوجود فمتى ما طابقت معه الفلسفة، يعنى ان الفلسفة تمشي في خطها السليم من المنطقية الصارمة، فحينئذ تنطبق الحقيقتان الدينية والفلسفية، فتسعد النفس الانسانية. اما إذا اصطدمت الفلسفة مع حقائق الايمان، كان ذلك الاصطدام دليلا على ان تلك الفلسفة ليست حقائق وانما هي اقوال رجال. والحق ان كثرة المدارس الفلسفية المتضادة وتنوع آراء الرجال فيها، دليل على عدم عصمة الفلسفة، وانما هي اجتهادات العقول البشرية.

---

(١) الكلمات ٦٣٩.

وحينئذ يعود النورسي فيقول: «وأما اذا ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا احتشد النور والخير كله في سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة»(٢).

وسبب انحراف هؤلاء انهم لم يفهموا ماهية «انا» في الانسان، فحينئذ انكروا النظام الموجود في الكون وتجاهلوا الحكمة المبثوثة في اجزائه، فقابلوا بالكفر دلائل الوحدانية كلها، وبكفران الآلاء التي تسبغ عليهم، واتهموا الموجودات كلها بالتفاهة وحقروها بالعبثية ورفضوا تجليات الاسماء الالهية على الموجودات كلها.

فاذن الفلسفة الملحدة انما هي سفسطة لا حقيقة لها. وتحقير للكون، لانها تجاهل نظامه، واهانة له. فهي بهذا نظر الى ظواهر الحياة الدنيا ولا تعمق في اسرارها وعللها، ولا تجيب على اسئلة العقول النيرة وتتجاهلها(٣).

وهذا يأتي من ان الفلسفة الملحدة تقلب موهومية «انا» الى حقيقة قائمة بذاتها لا انها تقوم بعكس الحقائق الثابتة في الوجود، او يتلقى الفيض الالهي ويقبله فحسب.

فعندما ادّعى لنفسه انه هو معنى بذاته، انكر المعنى الذي يعكسه، ومنع بذلك نفسه من منبع الخير، وحينئذ لم يبق إلا الجانب الآخر من «انا» وهو جانب الشر الذي هو فيه فاعل وصاحب فعل.

وبذلك حصل الطغيان في «انا» الانسان عندما تحول الوهم الى الحقيقة في جانب الخير.

---

(٢) الكلمات ٦٣٩.

(٣) الكلمات ١٤٤.

فبدل ان يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة ملكه ربوبية خالقه سبحانه وتعالى في دائرة الممكنات، انكر ربوبية الخالق.

وبدل ان يعرف بمالكيته الظاهرية مالكية خالقه الحقيقية اعدمها.

وبدل ان يدرك بعلمه الجزئى علم الله المطلق لم يعترف بوجوده اصلا.

وهكذا نسي «انا» حكمة خالقه، ونظر الى نفسه بالمعنى الاسمى تاركا وظيفته الفطرية، معتقدا بنفسه انه المالك الحقيقي ولا مالك غيره(٤).

بينما النبوة اخذت بالوجه العاكس للحقائق الالهية، فعرف «انا» بذلك انه عبدالله ومطيع لمعبوده، وان ماهيته حرفية، اي دال على معنى في غيره، ووجوده تبعي اي قائم بوجود غيره وايجاده، وان مالكيته للاشياء ظلية(٥).

وهكذا نرى ان الفلسفة العاصية للدين قد ضلت ضلالا بعيدا، فالهّت «انا» في ذات نفسه، وسارع الى كل نوع من انواع الضلالة، فنسبت الخالقية الى ايجاد الطبيعة والمصادفة والاسباب.

ويدخل النورسي في مقارنة واقعية بين نتائج حكمة القرآن وحكمة الفلسفة وما يعطيه كل منهما من تربية للمجتمع الانساني فيقول:

«أما ما تعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الانساني فهي:

أن حكمة الفلسفة ترى «القوة» نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف الى «المنفعة» في كل شئ، وتتخذ «الصراع» دستوراً للحياة، وتلتزم بـ «العنصرية» والقومية السلبية رابطة للجماعات.

---

(٤) الكلمات ٦٣٦ – ٦٣٨.

(٥) الكلمات ٦٤٠ – ٦٤١.

اما ثمراتها في اشباع رغبات الاهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس واثارة الهوى.

ومن المعلوم ان شأن القوة هو «الاعتداء» وشأن المنفعة هو «التزاحم» إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم.. وشأن «الصراع» هو «النزاع والجدال» وشأن «العنصرية» هو «الاعتداء» إذ تكبر بابتلاع غيره وتتوسع على حساب العناصر الأخرى.

ومن هنا تلمس لِمَ سُلبت سعادة البشرية، من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.

أما حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل «الحق» نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلا من «القوة». وتجعل «رضى الله سبحانه» ونيل الفضائل هو الغاية بدلا من «المنفعة». وتتخذ دستور «التعاون» اساسا في الحياة، بدلا من دستور «الصراع». وتلتزم برابطة «الدين» والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية..

وتجعل غاياتها الحدّ من تجاوز النفس الامارة ودفع الروح الى معالى الامور، واشباع مشاعرها السامية لسوق الانسان نحو الكمال والمثل الانسانية.

إن شأن الحق هو «الاتفاق» وشأن الفضيلة هو «التساند» وشأن دستور «التعاون» هو «اغاثة كل للاخر».. وشأن «الدين» هو الاخوة والتكاتف.. وشأن إلجام النفس وكبح جماحها واطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو «سعادة الدارين»(٦).

---

(٦) الكلمات ١٤٦.

ومن الانصاف ان نذكر ان موقف النورسي من الفلسفة من حيث هي ليس موقفا عدائيا، وانما هو فقط يميز بين الفلسفة المؤمنة الخادمة والفلسفة الكافرة الجاحدة، التي ترفض مبادئ الدين الحق «الوحي الالهي» أى انه يؤمن بطريق العقل المنطقي مصدرا من مصادر المعرفة، ويرفض تحريف العقل من خلال مذاهب فلسفية معينة:

«فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية وتعين الاخلاق والمثل الانسانية وتمهد للرقي الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك. وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والالحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة فانها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية»[٧].

على ان النورسي لا يرفض الفلسفة المادية فحسب، وانما يرفض ايضا ما يسمى بالفلسفة الالهية القديمة التي تحولت الى ابواب من الشرك، ممثلة بروادها اليونانيين من امثال افلاطون وارسطو وتلامذتهم من المسلمين كالفارابي وابن سينا الذين زعموا ان الواحد لا يصدر عنه إلا «الواحد» اى لا يصدر عن ذات واحدة إلا شئ واحد.

يقول النورسي:

«من النتائج المثلى للنبوة ومن قواعدها السامية في التوحيد، أن «الواحد لا يصدر إلاّ عن الواحد»، أي ان كل ماله وحدةٌ لا يصدر إلاّ عن الواحد؛ اذ ما دامت في كل شئ، وفي الاشياء كلها، وحدة ظاهرة، فلابد انها من ايجاد ذات واحدة. بينما دستور الفلسفة القديمة وعقيدتها

(٧) اللاحق – ملحق اميرداغ.

هو «ان الواحد لا يصدر عنه إلاّ الواحد» أي لا يصدر عن ذات واحدة إلاّ شئ واحد، ثم الاشياء الاخرى تصدر بتوسط الوسائط. هذه القاعدة للفلسفة القديمة تعطي للاسباب القائمة والوسائط نوعاً من الشراكة في الربوبية، وتُظهر ان القدير على كل شئ والغني المطلق والمستغني عن كل شئ بحاجة الى وسائط عاجزة! بل ضلوا ضلالاً بعيداً فأطلقوا على الخالق جل وعلا اسم مخلوق وهو «العقل الاول»! وقسّموا سائر ملكه بين الوسائط، ففتحوا الطريق الى شرك عظيم.

فاين ذلك الدستور التوحيدي للنبوة من هذه القاعدة ـ للفلسفة القديمة السقيمة ـ الملوثة بالشرك والملطخة بالضلالة؟

فان كان الاشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهماً يتفوهون بهذا السخف من الكلام، فكيف يكون يا ترى كلام مَن هم دونهم في الفلسفة والحكمة من ماديين وطبيعيين؟»(٨).

ويزيد النورسي على ذلك فيقول:

«اطلقت طائفة من الفلاسفة على الله سبحانه وتعالى: اسم «الموجب بالذات» فنفوا الارادة والاختيار منه تعالى، مكذّبين شهادة جميع الكون على ارادته الطليقة.

فيا سبحان الله! ما اعجب هذا الانسان! ان الموجودات قاطبةً من الذرات الى الشموس لتدل دلالة واضحة على ارادة الخالق الحكيم؛ بتعيّناتها، وانتظامها، وحِكَمها، وموازينها، كيف لا تراها عينُ الفلسفة؟ أعمى الله أبصارهم!

---

(٨) الكلمات ٦٤٤، ٦٤٥.

وادّعت طائفة اخرى من الفلاسفة: « ان العلم الإلهي لا يتعلق بالجزئيات » نافين إحاطة علم الله سبحانه بكل شئ، رافضين شهادة الموجودات الصادقة على علمه المحيط بكل شئ »(٩).

ولكل ذلك يعتقد النورسي ان الفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا لتأثرهم بالفلسفة اليونانية لم ينالوا إلا ادنى درجات الايمان، لانهم اتخذوا لهم استاذا هو « الفلسفة اليونانية » هو أدنى بدرجات لا حد لها من استاذه الذي هو « القرآن الكريم ».

يقول النورسي وبتواضع جم:

« وان قلت: فما تكون انت حتى تنازل هؤلاء المشاهير؟ فهل اصبحت نظير ذبابة حتى تتدخل في طيران الصقور؟

وانا اقول: لما كان لى استاذ أزلى وهو القرآن العظيم، فلا ارانى مضطرا ان ابالى – ولو بقدر جناح ذبابة – في طريق الحقيقة والمعرفة باولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبتلي بالاوهام. فمهما كنت ادنى منهم درجة إلا ان استاذهم ادنى بدرجات لا حد لها من استاذى، بفضل استاذى وهمته لم تستطع المادة التي اغرقتهم ان تبلل قدمى »(١٠).

ويلفت النورسي النظر الى مدارس فلسفية اخرى كالمدرسة الاشراقية الصوفية الذين تأثروا بالفلسفة الافلاطونية الحديثة، وبحكمة حكماء الشرق من الغنوصيين، فيقول انهم خالفوا « القرآن الكريم الذي حافظ على التوازن في بيان التوحيد بجميع اقسامه مع جميع مراتب تلك الاقسام

---

(٩) الكلمات ٦٤٥ – ٦٤٦.
(١٠) الكلمات ٦٤٨.

لوازمه، ولم يخل باتزان اى كان منها، ثم انه قد حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الالهية السامية كلها، وجمع الاحكام التي تقتضيها الاسماء الالهية الحسنى جميعها، مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الاحكام. ثم انه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والالوهية»(١١).

يقول النورسى:

«فهذه «المحافظة والموازنة والجمع» خاصيةٌ لا توجد قطعاً في أي أثر كان من آثار البشر، ولا في نتاج افكار اعاظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الاولياء الصالحين النافذين الى عالم الملكوت، ولا في كتب الاشراقيين الموغلين في بواطن الامور، ولا في معارف الروحانيين الماضين الى عالم الغيب؛ بل كل قسم من اولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب من اغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه، دون أن يلتفت الى غيره من الاغصان؛ إما لجهله به أو لعدم التفاته اليه. وكأن هناك نوعاً من تقسيم الاعمال فيما بينهم.

نعم! ان الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أنظار محدودة مقيدة. اذ تلزم نظراً كلياً كنظر القرآن الكريم ليحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم ـ ولو يتلقى الدرس منه ـ لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلاّ طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخلّ بالموازنة التي بين الحقائق ويزيل تناسقها إما بالافراط أو بالتفريط»(١٢).

ومن جهة اخرى فان:

---

(١١) الكلمات ٥١٢.
(١٢) الكلمات ٥١٢.

« فلسفة البشر وحكمته تنظر الى الدنيا على انها: ثابتة دائمة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكراً مفصلاً مسهباً، بينما لو ذكرتْ وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فانها تذكرها ذكراً مجملاً مقتضباً. أي انها تفصّل في ذكر نقوش كتاب الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماماً كبيراً.

أما القرآن الكريم فانه ينظر الى الدنيا، على أنها: عابرة سيّالة، خدّاعة سيّارة، متقلبة لا قرار لها ولا ثبات، لذا يذكر خواص الموجودات وماهياتها المادية الظاهرة ذكراً مجملاً مقتضباً، بينما يفصل تفصيلاً كاملاً لدى بيانه وظائفها التي تنمّ عن عبوديتها التي اناطها بها الصانع الجليل، ولدى بيانه مدى انقياد الموجودات للاوامر التكوينية الإلهية، وكيف وبأي وجه من وجوهها تدل على أسماء صانعها الحسنى »(١٣).

* * *

---

(١٣) الكلمات ٥٠٨.

النورسي والحضارة الغربية

كل باحث منصف يقرأ رسائل النورسي بدقة وشمولية، ويجمع بين أصولها وافكارها الواردة هنا وهناك يتوصل الى انه كان مفكر اسلاميا يؤمن بتطور الحياة وتجددها في اطار السنن الكونية، وكان ينطلق دائما من القرآن الكريم الي الكون وينظر الى ذراته واجزائه المتفرقة نظرة موحدة، ويربط بينها رباطاً وثيقا، حتى كأنه وكل من فيه وما فيه وحدة واحدة.

ومن هنا فانه يرفض الاسس الثقافية الناتجة عن الفلسفات المادية الجاحدة، في الحضارة الغربية. وقد تبين لنا ذلك بوضوح، من خلال دراستنا لموقفه من الفلسفات الطبيعية في الحضارة الغربية.

يحصر النورسي الأسس المادية في الحضارة الغربية في خمسة أسس:

أولها :

إن هذه الحضارة تؤمن بالقوة ولا تؤمن بالحق، والقوة بدون الحق تؤدى الى الاعتداء والتجاوز على الامم الاخرى، والخيانة للموازين العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة.

وثانيها :

ايمانها بالمنفعة الخسيسة التي تستوجب الرذائل في الاخلاق والقضاء على الفضيلة، لأن الاخلاق في الحضارة الغربية نسبية تابعة لفلسفة المنفعة التي شأنها التزاحم والتخاصم الذي ينتهى الى الجناية بحق الافراد والجماعات.

وثالثها :

دستورها في الحياة التصادم بدل التعاون لأنها قائمة على الصراع الحيواني في المدافعة والمنافسة.

ورابعها:

لم تؤمن بغير رابطة القومية التي تنمو على حساب غيرها وتبتلع الآخرين. وهذا يؤدى الى العنصرية التي تؤدي بدورها الى التصادم، فينشأ منه الدمار والهلاك.

وخامسها:

أنها تحتوي على مغريات رهيبة جذابة، كتشجيع الاهواء والنزعات واشباع الشهوات والرغبات. وشأن الاهواء والنوازع دائما مسخ الانسان وتغيير فطرته وحياته. ولذلك فهي بدورها تمسخ انسانية الانسان وتحولها الى مجرد الحيوانية[١٤].

ويتحدث النورسي في هذا المجال عن أثر الاباحية الغربية في النساء، بحيث اطلقتهن من اعشاشهن وامتهنت كرامتهن وجعلتهن متاعا مبذولا، وجعلت تكشف النساء تكشف دون قيد، سبيلا الى تكشف اخلاق البشر للسيئة وتناميها[١٥]، واستباحت لهوى الشباب الطائش اعراض النساء والعذارى الفاتنات، ودفعتهم الى الاختلاط الماجن البذئ[١٦].

ويؤكد ان المسلمين لم يقبلوا هذه الحضارة باختيارهم وارادتهم، بل فرضت عليهم مبادؤها ونتائجها فرضا، لان الحضارة التي عاشوا فيها وانطلقوا منها الى بناء الحياة تختلف في أصولها ونتائجها عن هذه الحضارة

«فنقطة استنادها: الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

(١٤) الكلمات ٨٥٥.
(١٥) الكلمات ٨٧٤.
(١٦) الكلمات ١٦٤.

وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة.

دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الاهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالانسان ورفاهه الى ما يليق به مع تنوير الروح ومدّها بما يلزم.

رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة واخوة الايمان. وشأن هذه الرابطة: اخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية»(١٧).

ويحذر النورسي المسلمين ان يكونوا كتلك الاقوام التي ضحوا بكل مقدساتهم في سبيل الغرب، وذلك للاسباب الآتية:

– إن دينهم هو دين التوحيد الحق الذي يتساوى في ظله الناس جميعا، انبعث منه نظام حضارى متكامل، يستند الى الايمان والعلم والعقل، ومعالجة حياة الفقر والتأخر الاجتماعي.

– ان الاسلام لم يكن يوما من الايام اداة بيد الظالمين تسحق شعوبهم، كما حصل في تاريخ اوربا.

– من الخطأ قياس الاسلام على النصرانية، فاهل الغرب لم يتقدموا إلا عندما تركوا التعصب الدينى، بينما المسلمون لم يتأخروا إلا لما تركوا التمسك بحقائق الاسلام.

– من الخطأ الاعتقاد ان ساسة الغرب قد تركوا التعصب الدينى تجاه المسلمين، حتى يفكر الساسة المسلمون في تقليدهم في ذلك.

---

(١٧) الكلمات ٨٥٥.

– إن الفلسفة والدين لا بد ان يكونا في خدمة الدين الحق، الاسلام، حتى تكون الحياة متوازنة.

– إن وضع اللغة والوطن والعنصر بمواجهة الاسلام خطر عظيم على الامة، لانه يمزق وحدتها، بينما إذا اتحدت تلك العناصر معه، انتبهت الى صنع امة قوية.

– إن الاسلام عبر التاريخ هو الذي صاغ القيم العليا للامة، وبه استطاع ان تحافظ قرونا من الزمان امام الطامعين الاستعماريين.

«فهل نستصغر هذه القوة، الظهيرة القوية المعنوية والدائمة لهذه الدولة، وهل يمكن انكارها؟

«ترى أية قوة اخرى يمكن ان تحل محلها. فهذا ميدان التحدى، فليظهروا تلك القوة؟ لذا ينبغى الا نجعل تلك القوة، الظهيرة العظمى، تعرض عنا، لاجل التمسك بقومية سلبية وحمية مستغنية عن الدين»(١٨).

ويتوقع النورسي أن البشرية السليمة في هذه الحضارة، بعد ان أصابتها الانحرافات السلوكية والعقيدية، والحروب المدمرة، ستبحث عن حقائق القرآن الكريم لانقاذها من امراضها الفتاكة ومحنتها الحضارية المدمرة(١٩).

وأما موقف النورسي من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، فهو موقف المسلم الذي فرض عليه الاسلام، أن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لاقامة الحضارة وبناء التقدم.

ولذلك فانه دعا المسلمين للأخذ باسباب الحضارة الصناعية، لأنها من ضرورات اقامة الحياة القوية.

---

(١٨) المكتوبات ٤١٦ – ٤٢٠.
(١٩) الكلمات ١٧٢.

ويؤكد النورسي أن تجديد المجتمعات الاسلامية يحتاج الى تبنى « التقنية » الحديثة، مع المحافظة على الاصالة والقيم الذاتية، فينبغي اتخاذ اليابان مثلا في أخذهم الحضارة الغربية، مع احتفاظهم بمقوماتهم القومية(٢٠).

ويذهب الاستاذ الى أن مجئ الحضارة من الغرب، واهله غير مسلمين، لا يكون دليلا عل حرمة الآخذ بها:

« كما لا بد أن يكون الدليل قطعي المتن، يلزم ان يكون قطعي الدلالة ايضا، مع ان للاحتمال فيها مجالا، لأن النهي القرآني ﴿ **لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء** ﴾ ليس بعام بل مطلق. والمطلق قد يقيد. والزمان مفسّر عظيم. فاذا اظهر قيده فلا يعترض عليه مع ان الحكم على المشتق يفيد عليّة مأخذ الاشتقاق للحكم. فاذن المنهى عنه في الآية الكريمة هو محبتهم من حيث ديانتهم اليهودية والنصرانية. وايضا لا يكون المرء محبوبا لذاته بل لصفته وصنعته، لذا فكما لا يلزم ان تكون كل صفات المسلم مسلمة. كذلك لايلزم ان تكون كل صفات غير المسلم كافرة. فعلى هذا إذا استحسنا واقتبسنا صفة وصنعة مسلمتين في غير مسلم، أفلا يجوز؟ فان تزوج احد كتابية أفلا يحبها..؟ »(٢١).

* * *

---

(٢٠) صيقل الإسلام – المحكمة العسكرية.
(٢١) صيقل الإسلام – المناظرات .





الفصل السابع

النورسي والتصوف

كان النورسي زاهدا في حياته الشخصية، يدعو الى تطهير النفس والاخلاص لله تعالى وانقاذ الايمان من مخاطر الفلسفات المادية، ولم يكن صوفيا بأى معنى من معانيه الاصطلاحية، سواء أكان فيلسوفا يتكلم في الروحانيات من برج اشراقي عاج، ام شيخ طريقة يحيط نفسه بالادعاءات الضخمة، والهالات البراقة، والمظاهر البدعية الخرافية.

لا، لم يكن واحدا من هؤلاء، ولكنه كان مجددا عالما مفكرا اسلاميا وداعية الى الله ورسوله، يعتقد ان عصره هو عصر اظهار حقائق الاسلام، وتقوية الايمان، واثبات حكمة الشريعة، وتربية الأمة من جديد على الاخلاق الاسلامية، امام الغزو الثقافي المركز الذي شنته الدوائر الاستعمارية في ظل حراب جيوشها على الامة الاسلامية.

ويؤكد النورسي على نفي كونه صوفيا في مناسبات كثيرة منها:

« فهناك اصطلاحات تدور بين المتصوفة امثال: الفناء في الشيخ، الفناء في الرسول. وانا لست صوفيا » (١).

« وحيث ان مسلكنا حقيقة علمية وليست طريقة صوفية فلا نرى انفسنا مضطرين مثلهم الى مباشرة تلك الرابطة بالافتراض والخيال »(٢).

ويقول:

---

(١) اللمعات ٢٤٥.

(٢) اللمعات ٢٤٦.

«ايها السادة! اننى لست شيخاً صوفياً، وانما انا عالم دينى. والدليل على هذا، اننى لو كنت قد علّمت احداً من الناس الطريقة الصوفية، طوال هذه السنوات الاربع التى قضيتها هنا، لكان لكم الحق في الارتياب والوقوع في الشكوك. ولكنى لم اقل لمن اتانى الاّ ان الزمان ليس زمان الطريقة. الايمان ضروري، والاسلام ضرورى»(٣).

ويرد الاستاذ هذا المعنى كثيراً في رسائله: «ان هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقة وانما هو عصر انقاذ الايمان»

ويقول: «ثم ان ما في درس رسائل النور للحقائق من علم الحقيقة الذي يمنح فيض الولاية الكبرى النابعة من سر الوراثة النبوية، لا يدع حاجة الى الانتماء الى الطرق الصوفية خارج الدائرة»(٤).

«وان الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر واحتمال الحاقها الضرر بوضعنا الحالى ممكن»(٥).

لأن النورسي كان يريد ان يجمع على اصول الايمان، لا ان يكون طريقة صوفية معينة، تسلخ جماعة من المؤمنين من ميدان الصراع الاسلامي مع الجاهلية الغربية الحديثة التي خططت القضاء على الاسلام والأمة الاسلامية.

ولان الاستاذ كان يعتقد ان الطرق الصوفية في هذا العصر، لا تستطيع الوقوف امام الهجوم المشكك في الاسلام، لأنها تعتمد التجربة الذاتية ولا تعتمد في ادراك الحقائق على البراهين المنطقية الحجج العقلية والأدلة العلمية التي هي صفة هذا العصر، وما يموج فيه من تيارات وفلسفات.

---

(٣) المكتوبات ٧٩.
(٤) اللمعات ٤٢٨.
(٥) اللمعات ٤٣١.

ومن هنا فان الاستاذ ادرك هذه الحقيقة العصرية بوضوح، فشق الطريق الى الحقيقة من خلال العلم، وفتح طريق «الولاية الكبرى» ضمن علم الكلام الجديد القائم على الاستقراء والملاحظة في المنهج الاسلامي الجديد، والمنهج العلمي الحديث. لذلك فانه استطاع إنقاذ مئات الالوف من المثقفين المحدثين من أزمة الزيغ والانحراف والالحاد(٦).

«فما دامت الحقيقة هكذا: فانى أخال ان لو كان الشيخ عبد القادر الكيلانى والشاه النقشبند والامام الربانى وأمثالهم من اقطاب الايمان رضوان الله عليهم اجمعين في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الايمانية والعقائد الاسلامية، ذلك لانهما منشأ السعادة الابدية، وان اى تقصير فيهما يعني الشقاء الابدي.

نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون ايمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف. فالانسان لا يمكن ان يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة والحقائق الاسلامية خبز»(٧).

وفي رسالته حول «الولاية والتصوف» عالج موضوع التصوف وانتهى الى ان هذه الدنيا هي دار حركة وعمل وسعى وليست دار جزاء وثواب. لذا فلا تطلب فيها اللذائذ والاذواق ولا يقصد فيها الكرامات، وانما ينبغي فيها الالتزام بالشريعة، لان الحقيقة والطريقة وسيلتان لخدمة الشريعة.

ويقول:

«ان الولاية حجة الرسالة، وان الطريقة برهان الشريعة، ذلك لان ما بلّغته الرسالة من الحقائق الايمانية تراها «الولاية» بدرجة «عين اليقين»

---

(٦) الملاحق – ملحق اميرداغ.
(٧) المكتوبات ٢٧.

بشهود قلبي وتذوق روحاني فتصدّقها، وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة. وان ما جاءت به « الشريعة » من حقائق الاحكام، فان « الطريقة » برهان على أحقية تلك الاحكام، وعلى صدورها من الحق تبارك وتعالى بما استفاضت منها واستفادت بكشفياتها واذواقها »(٨).

ويقول :

« ان الشريعة هي نتيجة الخطاب الإلهي الصادر مباشرة ـ دون حاجز او ستار ـ من الربوبية المطلقة المتفردة بالاحدية.

لذا فان اعلى مراتب الطريقة واسمى درجات الحقيقة لا يعدوان كونهما اجزاء من كلية الشريعة. اما نتائجهما وما يؤولان اليه فهي الاوامر الشرعية المحكمة. فهما دائماً وابداً يظلان بحكم الخادم للشريعة ووسيلة اليها ومقدمة لها.

فالسالك في الطريقة يرتفع تدريجياً الى اعلى المراتب التي ينال فيها ما في الشريعة نفسها من معنى الحقيقة وسر الطريقة. وعندئذ تكون الطريقة والحقيقة اجزاء الشريعة الكبرى.

لذا فليس صحيحاً ما يتصوره قسم من المتصوفة من ان الشريعة قشر ظاهري، وحقيقتها هي لبها ونتيجتها وغايتها.

نعم، يتنوع انكشاف الاحكام الشرعية ويختلف بالنسبة لمستويات الناس وفهمهم وطبقات مداركهم، فما يظهر منها وينكشف للعوام هو غير ما يظهر وينكشف للخواص..

انه من الخطأ توهم ما يظهر من الشريعة للعوام هو حقيقة الشريعة، واطلاق اسم « الحقيقة » و« الطريقة » على مرتبة الشريعة المنكشفة للخواص.

---

(٨) المكتوبات ٥٧٣.

فالشريعة لها مراتب متوجهة الى جميع طبقات البشر.

وبناء على هذا السر، فان اهل الطريقة، واصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا انفسهم منجذبين اكثر الى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها. حتى انهم يتخذون ابسط انواع السنة النبوية الشريفة كأعظم مقصد وغاية، ويسعون الى اتباعها وتقليدها.

لانه بمقدار سمو الوحي وعلوه على الالهام، فالآداب الشرعية التي هي ثمرة الوحي هي اسمى واعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الالهام، لذا فان اهم اساس للطريقة هو اتباع السنة النبوية المطهرة»(٩).

ويعنى هذا ان النورسى يحذر من انفصال الطريقة عن الشريعة، لانه يعنى تمزيق المنهج الشمولى لفهم الاسلام الكامل الموحد الذي نحتاج اليه في عصرنا هذا، عصر انقاذ الايمان.

ويقول النورسى من جهة اخرى:

«ان سلوك طريق الولاية مع سهولته هو ذو مصاعب، ومع قصره فهو طويل جداً، ومع نفاسته وعلوه فهو محفوف بالمخاطر، ومع سعته فهو ضيق جداً. فلأجل هذه الاسرار الدقيقة قد يغرق السالكون في هذه السبيل وقد يتعثرون ويتأذون، بل قد ينكصون على اعقابهم ويضلون الآخرين»(١٠).

وبعد بيان بعض الامراض النفسية التي يمكن ان يقع فيها السالك، مثل الفخر والتردى والغرور والشطحات والادعاءات الفارغة والانانية والجنون والضلالة. يقول:

---

(٩) المكتوبات ٥٨٣.
(١٠) المكتوبات ٥٧٥.

«فيجب على هؤلاء المتلبسين ان يمسكوا ميزان الشريعة بايديهم ليزنوا اعمالهم، ويقفوا عند حدود ما حده علماء اصول الدين من دساتير، ويسترشدوا بتعليمات الامام الغزالى والامام الرباني وامثالهم من الاولياء المحققين العلماء، وان يضعوا انفسهم دائماً موضع التهمة، ويعرفوا ان القصور والعجز والفقر ملازم للنفوس مهما ارتقت وتسامت»(١١).

وأما موقف النورسي من نظرية وحدة الوجود، فيمكن ان نرتبه على الوجه الآتى:

يبدأ النورسى بتعريف وحدة الوجود كما عند الصوفية فيقول:

«يعتبر «وحدة الوجود» التي تضم «وحدة الشهود» من المشارب الصوفية المهمة وهي تعني: حصر النظر في وجود «واجب الوجود»، اي ان الموجود الحق هو: «واجب الوجود» سبحانه فحسب، وان سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لاتستحق اطلاق صفة الوجود عليها حيال «واجب الوجود» لذا فان اهل هذا المشرب يذهبون الى اعتبار الموجودات خيالاً ووهماً، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، اي: «ترك ما سوى الله تعالى» حتى انهم يتطرفون ويذهبون الى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الاسماء الحسنى»(١٢).

ويرفض النورسى نظرية وحدة الوجود رفضا قاطعا، لانها تعدم الكائنات، وتتبنى المقولة المعروفة «لا موجود إلا هو» وهذا مخالف لهدي القرآن الكريم الذى فرّق بجلاء بين الخالق والمخلوق، واثبت لله تعالى الاسماء الحسنى التي تتجلى في الوجود، تجليا حقيقيا لا تجليا خياليا...

---

(١١) المكتوبات ٥٧٧.
(١٢) المكتوبات ٥٧٩.

الى ان يقول: «وهكذا فإن سلطنة الالوهية تقتضى وجود اسماء حسنى حقيقية متعددة لها، امثال: الرحمن، الرزاق، الوهاب، الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم، وهذه الاسماء والصفات تقتضى كذلك وجود مرايا حقيقية لها»(١٣) وهي المخلوقات.

يقول النورسي:

«أما اهل الحقيقة فانهم يرون بسر الوراثة النبوية وبصراحة القرآن الكريم وآياته البينات:

ان النقوش التي توجد في مرايا الموجودات بقدرة الله وارادته انما هي من آثاره سبحانه وتعالى. فكل موجود انما هو منه تعالى وهو الذي يوجده، وليس كل موجود هو، حتى يقال: لاموجود إلا هو. اذ للاشياء وجود، وهو وجود ثابت الى حد ما، وان كان هذا الوجود وجودا ضعيفاً كأنه وهمي وخيالي بالنسبة الى وجوده تعالى، إلا انه موجود بايجاد القدير الأزلي وإرادته وقدرته.

ان للشمس المشهودة في المرآة وجودا مثالياً عدا وجودها الخارجي الحقيقي.

ولها وجود خارجي عرضي آخر يلون المرآة بزينته اذ تنبسط عليها صورته.

ولها وجود خارجي عرضي ايضاً، وهو وجود ثابت الى حد ما وهو الصورة المنتقشة على الورقة الحساسة خلف المرآة.

فكما ان للشمس وجودات هكذا في المثال كذلك الأمر في مرآة الكون ومرايا ماهية الاشياء. فان نقوش المصنوعات الظاهرة بتجليات الاسماء

(١٣) المكتوبات ١٠٧.

الإلهية الحسنى الحاصلة بالإرادة الإلهية واختيارها وقدرتها، لها وجود حادث غير وجود الواجب الوجود. وقد منح بالقدرة الالهية ثباتا لهذا الوجود ولكن لو انقطع الارتباط فنيت الاشياء وانعدمت مباشرة. فكل شئ محتاج لبقائه في كل آن الى ابقاء خالقه له، فان حقائق الاشياء وان كانت ثابتة ولكن ثابتة باثباته سبحانه لها وتثبيته اياها.

وهكذا فان قول الشيخ ابن عربي: «ان الروح ليست مخلوقة وانما هي حقيقة آتية من عالم الامر وصفة الارادة» مخالف لظاهر نصوص كثيرة، كما قد التبس عليه الامر في ضوء التحقيقات المذكورة آنفاً وانخدع اذ لم يشاهد الموجودات الضعيفة.

فلايمكن ان تكون مظاهر (الخلاق والرزاق) من الاسماء الإلهية الحسنى مظاهر وهمية خيالية. فما دامت تلك الاسماء ذات حقيقة، فان مظاهرها ايضاً لها حقائق خارجية»(١٤).

ويبين النورسي مخاطر وحدة الوجود عندما تتحول من مجرد شطحة وجدانية ذوقية الى اسس قولية وعقلية وعلمية. فحينئذ تصطدم مع الدساتير العقلية، والقوانين العلمية، واصول العقائد الاسلامية النابعة من الكتاب والسنة المطهرين، وتصطدم مع ما كان عليه أهل الصحوة الايمانية؛ من الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين والعلماء العاملين من اجيال السلف الصالح من هذه الأمة.

نعم! ان الصراط المستقيم لهو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن «حقائق الاشياء ثابتة» وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله

(١٤) اللمعات ٥٥ – ٥٦.

تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى:١١) أي انه منزّه عن الشبيه والتحيز والتجزؤ. وان علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الاشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

ويذهب النورسي الى أن هذه النظرية مخالفة لاركان الايمان عدا ركن الايمان بالله «لان تلك الأركان تستدعي وجود الممكنات، أى ان هذه الأركان المحكمة لا يمكن ان تقوم على اساس خيالى»(١٥).

ويحذر النورسي من المخاطر السلوكية التي يمكن ان تنتجها وحدة الوجود فيقول:

«ولكن اذا نزل هذا المشرب من علياء الاذواق والمواجيد، والاشواق القلبية الى دائرة المذاهب الفكرية والعلمية وعرض بشكله العلمي والعقلاني على انظار الذين استهوتهم الحياة الدنيا، وغرقوا في الفلسفات المادية والطبيعية، فانه سيكون اغراقاً في الطبيعة والمادة، وابعاداً عن حقيقة الاسلام.

فالشخص المادي المتعلق بالاسباب، والمغرم بالدنيا، يتشوق الى اضفاء صفة الخلود على هذه الدنيا الفانية، لانه يعز عليه ان يرى محبوبته وهي تتبخر بين يديه وتذوب، فيسبغ صفة البقاء والوجود الدائم على دنياه، انطلاقاً من فكرة «وحدة الوجود» فلا يتورع - عندئذ - من رفع محبوبته - الدنيا- الى درجة المعبود بعد ان اسبغ عليها صفات الدوام والخلود والبقاء الابدي، فينفتح المجال امامه الى انكار الله سبحانه والعياذ بالله.

ولما كان الفكر المادي قد ترسخت دعائمه في هذا العصر، واستولى على غالبية النشاطات العقلية والعلمية، حتى غدت المادة - عند اصحابه -

(١٥) المكتوبات ٥٧٩.

هي اصل كل شئ ومرجعه، لذا فان ترويج مذهب «وحدة الوجود» في هذا العصر ـ الذي يرى فيه اهل الايمان الخواص الماديات تافهة الى حد العدم ـ ربما يعطي للماديين حجة ليكونوا دعاة للمذهب نفسه فيخاطبوا اصحابه من اهل الايمان: «نحن وانتم سواء، نحن ايضاً نقول هكذا ونفكر هكذا» علما انه لا يوجد مشرب في العالم بعيد عن منهج الماديين وعبدة الطبيعة من مشرب «وحدة الوجود». ذلك لان اصحابه يؤمنون بالله ايماناً عميقاً الى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدوماً بجانب حقيقة الوجود الإلهي، بينما الماديون يولون الموجودات من الاهمية الى حد انهم ينكرون معها وجود الله سبحانه وتعالى...فأين هؤلاء من اولئك؟!»(١٦).

ثم يقول:

«ان تلقين مسألة «وحدة الوجود» في الوقت الحاضر للناس يضرهم ضرراً بالغاً، اذ كما ان التشبيهات والتمثيلات، اذا خرجت من ايدي الخواص ودخلت ايدي العوام وسرت من يد العلم الى يد الجهل تُتلقى حقائق كذلك وحدة الوجود وامثالها من الحقائق العالية، اذا ما دخلت بين العوام الغافلين السارحين في تأثير الاسباب، يتلقونها «طبيعة» وتولد ثلاث مضار مهمة(١٧). ثم يفصّل في تلك الأضرار.

ويناقش النورسى ابن عربى مناقشات عميقة في مسائل أتى فيها بالخيالات وظنها حقيقة(١٨). وعلى الرغم من ذلك فانه يعده من المقبولين، ولكن لا يجوز اتخاذه قدوة لغيره، اذ يقول:

(١٦) المكتوبات ٥٨٠.
(١٧) اللمعات ٤٤٣.
(١٨) اللمعات ـ اللمعة التاسعة وذيلها ٥٢ ـ ٦٥.

«نعم، ان محي الدين بن عربي مهتد ومقبول ولكنه ليس بمرشد ولاهاد وقدوة في جميع كتاباته، اذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله – ظاهراً – الضلالة غير انه برىء من الضلالة، اذ الكلام قد يبدو كفرا بظاهره، الا أن قائله لا يكون كافراً»(١٩).

ويصرح النورسي ان موقفه القوي في مناقشة ابن عربي صادر من اعتماده الدائم على نصوص القرآن الكريم فيقول:

«ولكن لما كنت سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم فسوف استطيع ان احلق اعلى من ذلك الصقر واسمى منه وإن كنت ذبابة»(٢٠).

وكما يرفض النورسي «وحدة الوجود»، فانه يرفض «وحدة الشهود» لان اصحابها على الرغم من انهم اثبتوا وجودا حقيقيا للكائنات، إلا انهم سجنوها في سجن النسيان المطلق، فقالوا: لا مشهود إلا هو. للوصول الى الاطمئنان القلبي.

إن النورسي لاتباعه الصارم لحقائق القرآن والسنة لا يقبل في هذا الجانب إلا بوضع واحد، وهو الوضع الاسلامي الحقيقي الصحيح. وهو اثبات الوجود لله تعالى واثبات وجود آخر لمخلوقات خلقها الله تعالى بهداية اسمائه الحسنى وتجليها عليها. فالمسلم في الوقت الذي يصل الى اعلى درجات العبودية لله تعالى، ويفنى فيها، لا ينسى مخلوقاته، وكيف ينساها وهي موضع تجليات اسماء الله الحسنى.

---

(١٩) اللمعات ٤٤٥.
(٢٠) اللمعات ٥٢.

يقول النورسي:

«ان اهل «وحدة الوجود» توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: «لا موجود الاّ هو» لأجل الوصول الى الاطمئنان والحضور القلبي، وكذا اهل «وحدة الشهود» حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان فقالوا: «لا مشهود الاّ هو» للوصول الى الاطمئنان القلبي.

بينما القرآن الكريم يعفو الكائنات بكل وضوح عن الاعدام ويطلق سراحها من السجن، فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر الى الكائنات انها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وانها مظاهر لتجليات الاسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. اي انه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من ان تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد الى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ»(٢١).

ويستنبط النورسي طريقا قرآنيا للسلوك الى الله تعالى عبارة عن خطوات اربع، يستعيض بها عن السلوك الطويل عند الصوفية المبنى في خطواته على الاجتهادات الذاتية، غير المنضبطة احيانا بضوابط الكتاب والسنة.

يقول:

«وقد استفدت من فيض القرآن الكريم - بالرغم من فهمي القاصر - طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو:

طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.

نعم! ان العجز كالعشق طريق موصل الى الله، بل اقرب واسلم، اذ هو يوصل الى المحبوبية بطريق العبودية.

---

(٢١) الكلمات ٥٦١.

والفقر مثله يوصل الى اسم الله« الرحمن ».

وكذلك الشفقة كالعشق موصل الى الله الا انه انفذ منه في السير واوسع منه مدى، اذ هو يوصل الى اسم الله « الرحيم ».

والتفكر ايضاً كالعشق الا انه اغنى منه واسطع نوراً وارحب سبيلاً، اذ هو يوصل السالك الى اسم الله « الحكيم ».

وهذا الطريق يختلف عما سلكه اهل السلوك في طرق الخفاء - ذات الخطوات العشر كاللطائف العشر - وفي طرق الجهر - ذات الخطوات السبع حسب النفوس السبعة - فهذا الطريق عبارة عن اربع خطوات فحسب، وهو حقيقة شرعية اكثر مما هو طريقة صوفية.

ولا يذهبن بكم سوء الفهم الى الخطأ. فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير انما هو اظهار ذلك كله امام الله سبحانه وليس اظهاره امام الناس.

اما اوراد هذا الطريق القصير واذكاره فتنحصر في اتباع السنة النبوية.. والعمل بالفرائض، ولا سيما اقامة الصلاة باعتدال الاركان والعمل بالاذكار عقبها.. وترك الكبائر.

اما منابع هذه الخطوات من القرآن الكريم فهي:

﴿ **فلا تُزكّوا انفُسَكم** ﴾(النجم:٣٢) تشير الى الخطوة الاولى.

﴿ **ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللهَ فأنساهُم أنفُسَهم** ﴾(الحشر:١٩) تشير الى الخطوة الثانية.

﴿ **ما اصابكَ مِن حسنةٍ فمن الله، ومَا اصابكَ مِن سيئةٍ فمِن نفسِك** ﴾(النساء:٧٩) تشير الى الخطوة الثالثة:

﴿ **كلُّ شيءٍ هالكٌ الاّ وجْهَه** ﴾(القصص:٨٨)، تشير الى الخطوة الرابعة».

وايضاح هذه الخطوات الاربع بايجاز شديد هو:

الخطوة الاولى:

كما تشير اليها الآية الكريمة ﴿ **فلا تزكوا انفسكم** ﴾ وهي عدم تزكية النفس. ذلك لان الانسان حسب جبلّته، وبمقتضى فطرته، محبٌّ لنفسه بالذات، بل لا يحب الا ذاته في المقدمة. ويضحي بكل شئ من اجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق الا بالمعبود وحده، وينزّه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه اصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من اجهزة لحمده سبحانه وتقديسه الى نفسه، فيصيبه وصف الآية الكريمة: ﴿ **من اتّخذ الهَه هَواه** ﴾ (الفرقان:٤٣) فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلابد اذن من تزكيتها. فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية:

كما تلقّنه الآية الكريمة من درس: ﴿ **ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهُم انفُسَهم** ﴾. وذلك: ان الانسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فاذا ما فكر في الموت صرفه الى غيره، واذا ما رأى الفناء والزوال دفعه الى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشئ، اذ مقتضى النفس الامارة انها تذكر ذاتها في مقام اخذ الاجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي:

العمل بعكس هذه الحالة، اي عدم النسيان في عين النسيان، اي نسيان النفس في الحظوظ والاجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

والخطوة الثالثة:

هي ما ترشد اليه الآية الكريمة: ﴿**ما اصابكَ من حَسَنةٍ فَمِنَ الله وما اصابكَ مِنْ سيئة فمن نفسك**﴾ وذلك: ان ما تقتضيه النفس دائماً انها تنسب الخَير الى ذاتها، مما يسوقها هذا الى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة ان لا يرى من نفسه الا القصور والنقص والعجز والفقر، وان يرى كل محاسنه وكمالاته احساناً من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: ﴿**قَد أفلَحَ مَنْ زَكّاها**﴾ (الشمس:٩).

وهي ان تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في فقرها، (اي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها امام الله، وغناها في فقرها اليه).

الخطوة الرابعة:

هي ما تعلمه الآية الكريمة: ﴿**كُلُّ شَيءٍ هالكٌ إلا وجْهَه**﴾. ذلك لان النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدّعي نوعاً من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق. فبادراك الحقيقة الاتية ينجو الانسان من ذلك وهي: كل شئ بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائل، مفقود، حادث، معدوم، الا انه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة ان عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، اي اذا رأت ذاتها واعطت لوجودها وجوداً، فانها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها. يعني اذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترة بوجودها الشخصي فانها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الانانية والغرور ترى نفسها حقاً انها لا شئ بالذات، وانما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي. فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شئ، فما الموجودات جميعها الا تجليات اسمائه الحسنى جل جلاله(٢٢).

ويثير النورسي موضوعا مهما في مجال حديثه عن التصوف والولاية، وهو هل يمكن ان يرقى مقام الاولياء مقام الصحابة الكرام؟.

يجيب:

«بانه لا يمكن ان يحصل هذا ابدا وهو مذهب اهل السنة والجماعة، الذين اجمعوا – واجماعهم حجة قاطعة – بان الصحابة الكرام هم افضل البشر بعد الانبياء عليهم السلام وذلك للاسباب الآتية:

– إن الصحبة النبوية اكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة، ينالون من انوار الحقيقة مالا يناله من يصرف سنين طويلة من عمره في السير والسلوك، ذلك لان في الصحبة النبوية انصباغ بصبغة الحقيقة وانعكاسا لانوارها، إذ يستطيع المرء بانعكاس

(٢٢) المكتوبات ٥٩٤ – ٥٩٦.

ذلك النور الاعظم ان يرقى الى مراتب سامية ودرجات رفيعة. ومن هنا فان اعظم ولي لا يستطيع ان يرقى الى مرتبة صحابي كريم(٢٣).

- الصحابة الكرام تسنموا قمة الكمال الانساني بما احدثه الاسلام في مجرى الحياة، وبما عاشوه ورأوه من تطبيق النبي ﷺ له، وادركوه بفطرهم السليمة، وتمثلوه بسجيتهم الطاهرة(٢٤).

- جهاد الصحابة الكرام عند ارساء دعائم الاسلام ونشر احكام القرآن، واعلانهم الحرب على جاهلية زمانهم وطغاتها باسم الاسلام، مرتبة عظيمة وخدمة، لا ترقى سنة كاملة من عمل غيرهم دقيقة واحدة من عملهم(٢٥).

- إن الصحابة الكرام إنما يمثلون اللبنة الأولى في تأسيس صرح الاسلام، وهم الصف الأول في نشر انوار القرآن، فلهم اذن قسط وافر من جميع حسنات الأمة الى يوم القيامة، حسب قاعدة «السبب كالفاعل»(٢٦).

وبعد استعراض هذه المواقف يتأكد لدينا ان الاستاذ النورسي كان منصفا غاية الانصاف في مباحثه عن التصوف. فهو يعده اساسا مهما من أسس ايصال الانسان المسلم الى الاستقامة والتقوى، ورافداً ثراً من روافد صياغة حياته العابدة لله، في الوقت الذي ينبه المسلمين الى الانحرافات والسلبيات التي دخلت في علم التصوف وواقعه، نتيجة لابتعاد بعض المتصوفة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومسلك الصحابة الكرام والسلف الصالح رضى الله تعالى عنهم.

---

(٢٣) الكلمات ٥٧٣.
(٢٤) الكلمات ٥٧٤.
(٢٥) الكلمات ٥٧٩.
(٢٦) الكلمات ٥٧٩.

ومناقشاته لبعض المتصوفة صدرت عن فهم عميق منه لكل ما كتبه المتصوفة الكبار واحترام كبير لمشايخهم، لاسيما الذين قرأ لهم، وتتلمذ عليهم في فترة من فترات حياته.

وكان هو نفسه في حياته زاهدا كبيرا، وورعا شديد الورع، يقظ القلب والوجدان، مستغرقا في حب الله تعالى ورسوله ﷺ. ولم يكن صوفيا بالمعنى الاصطلاحي. وكان اتجاهه جزء لا يتجزأ من شخصيته الاسلامية المتكاملة. ولذلك كانت رسائله التي كتبها تخطيطا اسلاميا ايمانيا جادا لصياغة بنية الانسان المسلم صياغة جديدة قائمة على المذهبية الاسلامية الشاملة في الوجود، ولم تكن حلا مرحليا يعالج قضية طاغية على الحياة من خلال ظروف زمانية ومكانية معينة.

لقد ابتعد المسلمون نتيجة لعوامل كثيرة عن الله سبحانه وتعالى في مجال عقيدتهم وفكرهم وسلوكهم، فاراد النورسي ان يجدد حب الله في النفوس الخامدة والقلوب الجامدة التي تلطخت بحب الشهوات وما تؤدى اليها من بهارج الحياة.

وهذا لا يعني قتل الحياة والمادة، ولكن يعني ان يستقيم كيان الانسان ويتوازن في صراع الحياة، حتى يحافظ على انسانيته ولا يسقط في حمأة الحيوانية الهابطة.

يقول:

«نحن لا نقول لك: لا تحمل وداً ولا حباً لكل ما ذكرتَه آنفاً. وانما نقول اجعل محبتك لما ذكرته في سبيل الله ولوجهه الكريم:

فالتلذذ بالاطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها احسانٌ من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لإسم «الرحمن»

واسم «المنعم» من الاسماء الحسنى، علاوة على انه شكر معنوي. والذي يدلنا على ان هذه المحبة لم تكن للنفس والهوى بل لإسم «الرحمن» هو كسب الرزق الحلال مع القناعة التامة ضمن الدائرة المشروعة، وتناوله بالتفكر في انه نعمة من الله مع الشكر له.

ثم ان محبتك للوالدين واحترامهما، انما يعودان الى محبتك للّه سبحانه؛ اذ هو الذي غرس فيهم الله الرحمة والشفقة حتى قاما برعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونهما محبة لوجه الله تعالى، هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغا الكبر، ولا يبقى لك فيهما من مطمع. فتكثر من الشفقة عليهما والرحمة لهما رغم ما يشغلانك بالمشاكل ويثقلان كاهلك بالمشقة. فالآية الكريمة: ﴿**إمّا يَبْلُغَنّ عندَكَ الكبَرَ أحدُهما أو كلاهُما فلا تَقُلْ لَهُما أُفّ ولاَ تَنْهَرهُما وَقُلْ لَهُما قَولاً كَريماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلّ مِن الرّحمَة وَقُلْ رَبّ ارحَمْهُما كَما رَبياني صَغيراً**﴾(الاسراء:٢٣ ـ٢٤). تدعو الأولاد الى رعاية حقوق الوالدين في خمس مراتب، وتبين مدى اهمية برّهما وشناعة عقوقهما..

وحيث ان الوالد لا يقبل ان يتقدمه احد سوى إبنه اذ لا يحمل في فطرته حسداً معه مما يسد على الولد طريق مطالبة حقه من الوالد؛ لأن الخصام إما ينشأ من الحسد والمنافسة بين أثنين او ينشأ من غمط الحق، فالوالد سليم معافى منهما فطرة، لذا لا يحق للولد إقامة الدعوى على والده، بل حتى لو رأى منه بغياً فليس له ان يعصيه ويعقّه. بمعنى ان من يعقّ والديه ويؤذيهما ما هو الاّ انسان ممسوخ حيواناً مفترساً.

أما محبة الاولاد فهي كذلك محبةٌ للّه تعالى وتعود اليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمال الشفقة والرحمة بكونهم هبة من الرحيم الكريم. أما

العلامة الدالة على كون تلك المحبة للّه وفي سبيله فهي الصبر مع الشكر عند البلاء، ولا سيّما عند الموت والترفع عن اليأس والقنوط وهدر الدعاء بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء. كأن يقول: ان هذا المخلوق محبوب لدى الخالق الكريم، ومملوك له، وقد أمنَّني عليه لفترة من الزمن، فالآن اقتضت حكمته سبحانه أن يأخذه مني الى مكان آمن وأفضل. فان تك لي حصة واحدة ظاهرية فيه، فله سبحانه الف حصة حقيقية فيه. فلا مناص اذن من التسليم بحكم الله.

أما محبة الاصدقاء وودّهم، فان كانوا من اصحاب الايمان والتقوى فان محبتهم هي في سبيل الله وتعود اليه سبحانه بمقتضى «الحب في الله».

ثم ان محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. واياك ان تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل اوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الاخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في انوثتها ورقّتها. وان احلى ما فيها من جمال واسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان الى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، والاّ تفقد حقوقها في وقت هي احوج ما تكون اليها، بزوال الجمال الظاهري.

أما محبة الانبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين فهي ايضاً لوجه الله وفي سبيله من حيث انهم عباد الله المخلصون المقبولون لديه جل وعلا. فمن هذه الزاوية تصبح تلك المحبة لله.

والحياة ايضاً التي وهبها الله سبحانه وتعالى لك وللأنسان، هي رأس مال عظيم تستطيع أن تكسب به الحياة الأُخروية الباقية. وهي كنز عظيم

يحوي اجهزة وكمالات خالدة.. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزواية، وتسخيرها في سبيل المولى عزوجل تعود الى الله سبحانه ايضاً.

ثم ان محبة الشباب وجماله ولطافته، وتقديره من حيث انه نعمة ربانية جميلة، ثم العمل على حسن استخدامه، هي محبة مشروعة، بل مشكورة.

ثم محبة الربيع والشوق اليه تكون في سبيل الله ومتوجهة الى اسمائه الحسنى، من حيث كونه اجمل صحيفة لظهور نقوش الاسماء الحسنى النورانية واعظم معرض لعرض دقائق الصنعة الربانية البديعة.. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة الى الاسماء الحسنى.

وحتى حب الدنيا والشغف بها ينقلب الى محبة لوجه الله تعالى فيما اذا كان النظر اليها من زواية كونها مزرعة الآخرة، ومرآة الاسماء الحسنى، ورسائل ربانية الى الوجود، ودار ضيافة موقتة (وعلى شرط عدم تدخل النفس الامارة في تلك المحبة). ومجمل القول:

اجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى (الحرفي) وليس بالمعنى (الاسمي) اي لمعنى ما فيها وليس لذاتها. ولا تقل لشئ: «ما اجمل هذا» بل قل: «ما اجمله خلقاً» أو «ما اجمل خلقه»! واياك ان تترك ثغرة يدخل منها حبٌّ لغير الله في باطن قلبك، فان باطنه مرآة الصمد، وخاص به سبحانه وتعالى. وقل:

اللّهم ارزقنا حبك وحب ما يقرّبنا اليك.

وهكذا فان جميع ما ذكرناه من انواع المحبة، إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفاً، اي عندما تكون للّه وفي سبيله، فانها تورث

لذة حقيقية بلا ألم. وتكون وصالاً حقاً بلا زوال، بل تزيد محبة الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن انها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها»[٢٧].

ويضع النورسي في مقالته الرائعة «الوسوسة وعلاجها»[٢٨] معالم واضحة يستطيع المسلم ان يستدل بها في محاربة الاوهام والخيالات، التي هي كالسياط بيد الشيطان، كي يلهب بها ظهور بني آدم، حتى تفسد فطرته ويحرف قلبه عن حقائق الحياة.

ويقول: إن العلم بحقائق الاسلام هو طريق القضاء على الوساوس، وأن الجهل بها هو الطريق السهل الذي يؤدى بالانسان الى جحيم الوساوس. والحق ان المسلم الذي لا يمش في طريق الايمان يسمع صدى الخيالات والاوهام الشيطانية، فيتردى ويضيع طريق الله سبحانه وتعالى وطريق الايمان منطلقة الحق هو الاخلاص الذي هو محور حركة المؤمن في اعماله كلها. ولذلك فان النورسي يؤكد على ذلك في رسائل كثيرة، لاسيما في رسالته «الاخلاص» التي أفردها للحديث المستفيض عنه.

ونستطيع ان نقول إن معالجات النورسي هذه جزء من منهجه في تصفية القلب وابعاده عن كل ما يحول بينه وبين العبودية الحقه لخالق السموات والأرض.

* * *

(٢٧) الكلمات ٧٦٤ – ٧٦٦.
(٢٨) الكلمات ٣٠٣ – ٣٠٩.





الفصل الثامن

النورسي والشريعة

النورسي كان رجلا قرآنيا. والقرآن عقيدة وشريعة وسلوك وتربية، في نظام شمولي متكامل، يعبر عن سنن الله في الوجود ودستوره في الأرض، وقوانينه التفصيلية في حياة الافراد والمجتمع. ولما كان رسائل النور تفسيرا شهوديا للقرآن الكريم، فانها قد شملت ذلك النظام الشمولي القرآن المقروء فيما بين الدفتين، والقرآن المنظور الذي هو الكون وما فيه. والقرآن الناطق المطبق الذي كان يمشي على الأرض الذي هو رسول الله ﷺ.

ولئن كان النورسي قد خصص رسائله لانقاذ الايمان وشرح أصول العقيدة وتجديد علم الكلام وتربية النشأ والدعوة الى تمثل الاخلاق الاسلامية الفاضلة، فانه لم ينس ان ينبه على كثيرمن مسائل الشريعة، ولكنه لم يكثر الحديث في تفاصيلها، لأن المجتمع الذي يفقد اسس الايمان وحرارة الانتماء، لا فائدة ان تحدثه عن تفاصيل الشريعة. فالقاعدة الايمانية إذا تكونت، فحينئذ يأتي تطبيق شرع الله خطوة طبيعية نحو الوصول الى المجتمع يحكمه نظام الاسلام. أى ان الاستاذ كان يريد أن يبدأ من الايمان الى التربية الى الشريعة. ولكن ليس معنى ذلك أنه طبق تلك الخطوات منفصلة دون ترابط جامع. ولذلك فانه – رحمه الله – يدل المسلمين بين الحين والآخر الى عظمة الشريعة الاسلامية في مصادرها وحكمتها وشمولها لحياة الانسان.

استمع اليه وهو يتحدث عن كمال الشريعة وانتظامها بقوله:

«فكمال انتظام هذه الشريعة الغراء وجمال توازنها الدقيق وحسن تناسب احكامها ورصانتها كل منها شاهدٌ عدلٍ لا يجرح وبرهان قاطع باهر لا يدنو منه الريب ابداً على أحقية القرآن الكريم بمعنى ان البيانات القرآنية لا يمكن ان تستند الى علم جزئي لبشر، ولا سيما إنسان اميّ، بل لابد ان تستند الى علم واسع محيط بكل شئ والبصير بجميع الاشياء معا»(١).

ويتحدث عن حجاب المرأة ليثبت انها شريعة ربانية فطرية، تصون النساء من المهانة والسقوط ومن الذلة والاسر المعنوي ومن الرذيلة والسفالة، وان التشريعات الغربية عندما اطلقت حرية المرأة اضرت بها ضررا كبيرا(٢)

وكان النورسي على علم دقيق بما كان يدبره اعداء الاسلام من الملاحدة والمتفرنجين والجمعيات الاباحية السرية والعلنية، لافساد المرأة واخراجها من الفضائل الفطرية الانسانية والاخلاق الاسلامية. فمن هنا دعا المرأة المسلمة الى التمسك بتلك الفضائل والاخلاق والقيام بتربية النشأ تربية اسلامية عالية من اجل سعادة الانسان المسلم واتزان المجتمع الاسلامي(٣).

ويصف النورسي رسول الله ﷺ بانه ذو الشريعة التي هي بوسعة دساتيرها وقوتها تشير الى انها نظام الكون ووضع خالق الكائنات. ويقول:

«نعم ان ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الاكمل هو ناظم هذا الدين بهذا النظام الأحسن الأجمل» (٤).

---

(١) الكلمات ١٥٤.
(٢) اللمعات ٣٠٠.
(٣) اللمعات ٣٠٥ – ٣١٤.
(٤) الكلمات ٣٤٤.

وعندما يتحدث عن الصراع بين اهل الحق واهل الباطل يقول:

«ولكن لاهل الحق قلعة منيعة ما ان يتحصنوا بها ويلوذوا بها..» ثم يقول: «وتلك القلعة الشامخة، وذلك الحصن المنيع هي الشريعة الالهية وسنة النبى ﷺ»(٥).

ويقول:

«لأن الشريعة التي تجلت من امي ﷺ وادارت خمس البشرية على اختلافها، منذ اربعة عشر قرنا ادارة قائمة على الحق والعدل بقوانينها الدقيقة الغزيرة، لا تقبل مثيلا ابدا»(٦).

ويدعو النورسي قومه الى تطبيق الشريعة الاسلامية، لانها افضل دواء وانفعه للامراض الروحية والعقلية والقلبية، ولاسيما الاجتماعية منها. ولا يمكن ان تقوم مقام حلول الشريعة اية فلسفة ولا اية مسألة حكيمة (٧).

ويتحدث عن مشكلة الصراع الطبقي بين الاغنياء والفقراء في الحضارة الغربية. والذي لم ينته الى التوازن القائم بين العوام والخواص. ولم تستطع المدنية بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الاخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عن ان تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن ان تضمد جرحى الحياة الغائرين. بينما شريعة القرآن الكريم قلعت تلك الادواء من جذورها، بوجوب الزكاة حلا لمشكلة الفقراء وتحريم الربا قطعا لدابر طمع اصحاب المال(٨).

---

(٥) اللمعات ١١٠.
(٦) المكتوبات ٢٨١.
(٧) اللمعات ٨٩.
(٨) الكلمات ٤٧٤.

ولا بد لنا ان نشير هنا الى موقفه من حركة الاجتهاد في العصر الذي عاش فيه، من حيث انه كان من الموضوعات التشريعية التي اشغلت بال العلماء في ذلك العصر.

والحق ان موقف النورسي من حركة الاجتهاد كان رد فعل واقعي على حركة التغريب التي ارادت ان تصبغ المجتمع الاسلامي التركي بصبغة الحياة الاوربية جملة وتفصيلا.

لقد رأى ان الدعوة الى الاجتهاد في مثل هذا الجو الذي لم يبق لضوابط الاسلام فيه أية قيمة أمر لا معنى له، لان اي نوع من انواع الاجتهاد سيجري في داخل ضوابط الحياة الغربية الحديثة. إن من المنطقي ان كل فلسفة لها اسسها وقواعدها، ومعالجة اية قضية تتفرع منها لا يمكن ان تتم إلا في اطارها.

لقد رأى النورسي ان بعض العلماء الذين لا يحملون اي شرط من شروط الاجتهاد يسوغون التطورات اللادينية كلها، التي جرت في تركيا باسم الاجتهاد.

إنه يؤمن ان باب الاجتهاد مفتوح، ولكنه يعتقد ان هنالك موانع تحول دون الدخول فيه في الوقت الحاضر:

أولها:

إن فتح ابواب جديدة في قصر الاسلام المنيف، او فتح الثغرات التي هي وسيلة لتسلل المخربين، وبالاخص في زمن المنكرات التي غلبت عليه العادات الاجنبية والبدع، وفي عصر تخريبات الضلالة الرهيبة فانه جناية في حق الاسلام.

ثانيها:

إن الانشغال بتقوية اصول الايمان وما هو قطعي ثابت بالنصوص التي تعرضت الى التشكيك والتخريب، افضل من الانشغال بامور نظرية جزئية، لان العقائد الاسلامية واصولها التشريعية غدت في خطر كبير. فما فائدة الحديث عن الفروع؟

ثالثها:

إن تحكم الفلسفة المادية ومظاهر الحضارة الغربية في حياة المسلمين اليوم اقحمتهم في هذه الحياة الدنيا، وانستهم رضى الله سبحانه وتعالى. ولذلك فان اي حديث عن الاجتهاد في مثل هذا الجو لا يكون مبنيا إلا على اسس بعيدة عن الورع والتقوى.

رابعها:

إن حركة الاجتهاد في هذا العصر ليست ناشئة عن رغبة داخلية او حاجة اجتماعية منسجمة مع التطور الطبيعي، وانما متأثرة بمشكلات الحضارة الغربية التي تضغط على مجتمعنا، ولذلك فهي لا تكون إلا وسيلة لتخريب المجتمع الاسلامي.

خامسها:

إن الاجتهاد لا بد ان يجرى في اطار اصول الشريعة، مهما تغيرت الحياة، اي ان تطور الحياة، لا بد ان ينضبط بضوابط الشريعة، ولكن تطور الحياة في عصرنا تطور مقلّد، يمشى بمعزل عن ضوابط الشريعة. ومن هنا فان الاجتهاد سوف لا يكون في اطار ضوابط الشريعة، بل في اطار غير منضبط بضوابط الشرع. ولذلك تكون هذه الاجتهادات ارضية وليست سماوية.

سادسها:

إن قرب المجتهدين العظام من عهد عصر الصحابة الكرام الذى هو عصر الحقيقة وعصر النور يسّر لهم ان يأخذوا النور الصافى من اقرب مصادره. فتمكنوا من القيام باجتهاداتهم الخاصة، في حين ان مجتهدى العصر الحديث ينظرون الى كتاب الحقيقة، من مسافة بعيدة جدا، ومن وراء كثير جدا من الاستار والحجب، حتى ليصعب عليهم رؤية اوضح حرف فيه[9].

* * *

(٩) الكلمات ٥٦٢ – ٥٦٨.




الفصل التاسع

النورسي وشبهات العصر

عاش النورسي كما مرّ بنا، في عصر مليء بالشبهات التي أثارتها الدوائر الثقافية والاعلامية المرتبطة بمراكز الدراسات والبحوث في وزارات المستعمرات والخارجية للدول الاستعمارية وعبرت عن طريق المؤسسات الثقافية والاعلامية والتربوية، الرسمية وغير الرسمية الى المجتمع الاسلامي، جزء من خطة شاملة لشن الغزو الفكري على الاسلام، قرآنا ونبيا ورجالات وتاريخا وحضارة.

ولم يبق جانب من جوانب العقيدة والشريعة وقواعد الأخلاق إلا أثاروا فيها الشبهات، لأجل زعزعة الايمان في نفوس المسلمين وتشكيكهم في مبادئ شريعتهم وقواعد اخلاقهم وسلوكهم واعرافهم المحمودة (١).

وفي حالة المجتمع الخاص الذي عاش فيه النورسي، تبنت الدولة اللادينية عبر مؤسساتها الرسمية المتنوعة كبر نشر هذه الشبهات والسخرية من عقائد وشرائع الامة الاسلامية، بكل ما اوتيت من قوة السلطة والثقافة والمال. بل وبدأت تدرس المادية الصرفة بدل درس الدين. وكان الاستاذ على علم تفصيلي بذلك، يوم ان كان مقتحما أتون الصراع السياسي

(١) راجع «الاستشراق» للدكتور ادورد سعيد، والتبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور عمر فروخ ومصطفى خالدى. «والغارة على العالم الاسلامى» لشاتليه.

والثقافي، لا سيما بعد مجئ الاتحاد والترقي الى الحكم. ولما أُبعد ونفي وسجن في زمن الأنقلابات، كانت اخبار هذا الغزو الفكري تصل اليه اولا باول؛ فما من شبهة الحادية او يهودية او صليبية او ثقافية إلاّ وصلت اليه، فناقشها وردّها ردوداً عقلانية وعلمية في غاية الرصانة والقوة. حتى إن تلك المناقشات والردود تستغرق حيزا كبيرا في رسائله النورية كلها. سواء تلك التي تتعلق بوجود الله أم بوحدانيته أم بالقدر ام بتفاصيل شرائع الاسلام وبمبادئه وحياته ورجالاته وجوانب من مظاهر حضارته. لا بل إنه كان يؤلف رسائل كاملة او اجزاء منها لمناقشة شبهات معينة.

فعلى سبيل المثال الّف رسالة الطبيعة لمناقشة الملاحدة وردّا على الزندقة التي لاحظها عندما دُعي الى انقرة عام ١٩٢٢م[٢].

والّف رسالة الحشر ردا على من انكروا اليوم الآخر أو أثاروا الشبهات الخبيثة حوله[٣].

والّف رسالة المعجزات الأحمدية عندما سمع أن البعض يشككون المسلمين في تلك المعجزات[٤].

وعندما رأى ان بعض ضعاف الايمان المغرورين بعقولهم يذهبون الى انكار كثير من الاحاديث النبوية، لاسيما المتشابهات منها، ردّ عليهم ووضع قواعد منهج سديد لتطبيقها عند مواجهة تلك النقولات وحصرها في اثنى عشر اصلا[٥].

(٢) اللمعات – اللمعة الثالثة والعشرون ٢٦٥ – ٢٩٨.
(٣) الكلمات ٤٧ – ١٢٨.
(٤) المكتوبات ١١١ – ٢٥٦.
(٥) الكلمات ٣٨٦ – ٤٠٢.

وعندما يثير الملحدون شبهة يقولون فيها إن وقت نزول الغيث ونوعية الجنين في الارحام لم تعد من المغيبات، وهذا يصطدم مع قوله تعالى ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام** ﴾ (لقمان: ٣٤). يوضح النورسي انزال الغيث بقوله:

«أما الاحساس بالاجهزة في المراصد عن مقدمات وقت نزوله، ومن ثم تعيين وقته فهذا ليس علماً بالغيب، بل هو علم بالاطلاع على بعض مقدمات نزوله حينما يقترب الى عالم الشهادة بعد صدوره من الغيب

اما معرفة نزول الغيث الذي لم يطأ قدمه عالمَ الشهادة، ولم يخرج بعدُ من الرحمة الإلهية الخاصة بمشيئتها الخاصة، فانما هو خاص بعلم علام الغيوب.

اما معرفة جنس الجنين في رحم الام باشعة رونتكن، هذه المعرفة لاتنافي قطعاً ما تفيده الآية الكريمة ﴿ **ويَعْلَمُ مَا في الأرحَام** ﴾(لقمان:٣٤) من معنى الغيب. لأن المراد من العلم المذكور فيها لاينحصر في ذكورة الجنين وانوثته وانما المراد منه معرفة الاستعدادات البديعة الخاصة بذلك الطفل والتي هي مبادئ المقدرات الحياتية، وهي مدار ما سيكسبه في المستقبل من اوضاع»[٦].

وعندما يطعن أهل الضلالة في زمانه في تعدد أزواج النبى ﷺ ولاسيما زواجه بزينب بنت جحش، انبرى النورسي للدفاع بمنطق استقرائى سليم فيقول:

«أما اسرار الدين واحكام الشريعة النابعة من احواله المخفية عنهم في نطاق اموره الشخصية الخاصة به، فان رواتها وحامليها هي زوجاته

---

(٦) اللمعات ١٦٩.

الطاهرات، فقد ادين هذه المهمة على وجهها حق الاداء، بل إن ما يقرب من نصف احكام الدين واسراره يأتى عن طريقهن، بمعنى ان هذه الوظيفة الجليلة يلزم لها زوجات كثيرات وذوات مشارب مختلفة كذلك.

اما زواجه ﷺ بزينب، فلأن زيدا رضى الله عنه الذي كان مولى رسول الله ﷺ ويحظى بخطاب له: يا بنى! لم يجد نفسه كفوا لزوجته العزيزة النفس، فطلقها لذلك،كما وردت الروايات الصحيحة، وبناء على اعترافه بنفسه. اي ان زينب رضى الله عنها، قد خلقت على مستوى آخر من الاخلاق العالية، فشعر بها زيد بفراسته بانها على فطرة سامية، تليق ان تكون زوجة لنبى، حيث وجد نفسه غير كفوء لها فطرة، مما سبب عدم الامتزاج النفسى والانسجام الروحى بينهما، فطلقها وتزوجها الرسول الكريم بأمر الهى».

ثم شرح الحكمة من ذلك الامر، لان الله تعالى اراد الغاء التبنى، وانقاد الرسول لذلك الحكم مضطرا، وما كان ذلك برغبة في نفسه[٧].

والنورسي لا يعالج شبهات الملاحدة والشاكين فحسب، وانما يجيب على اسئلة المؤمنين التي تعبر عن حب الاطلاع عندهم من معرفة المزيد، لاسيما تلك التي تتعلق بالغيبات وحكمة التشريع والقضايا الخلافية التي اثيرت على بساط البحث والصراع الفكري في التاريخ الاسلامي ويطبق منهجه العقلاني المقنع في كل ما يتصدى له، بحيث يكون شفاء لما في الصدور من الشبهات والوساوس.

* * *

---

(٧) المكتوبات ٣٣ – ٣٥.





الفصل العاشر

النورسي والتغير الاجتماعي

ينظر الاستاذ النورسي الى الكون في رسائله جميعا على أنه موضع تجليات اسماء الله الحسنى، فكل ظاهرة تحدث فيه، إنما هي تعبير واقعي عن معانيها السامية وفي هذا يسير على طريق مفكري الاسلام كالغزالي والرازي الذين بينوا معاني تلك الاسماء وارتباطها الوثيق بما يحدث في الوجود كله.

وبناء على ذلك فان كل تغير يحدث في الكون، فلا بد ان يخضع للسنن الكونية التي تتجلى فيها تلك الاسماء السامية. لاسيما اسم « الحكم » إذ في ضوء معناه واسراره نستطيع أن نفسر احداث الوجود من خلال العلية الدقيقة، والغائية المطردة، في انتظام الكون[١].

ومن هنا فانه يؤمن بـ « النظام » ويرفض « الفوضى » ويعتقد بـ « التدرج » ولا يقترب من « الطفرة ».

فالنظام والتدرج هو اساس الوجود كله، وأي خروج عليه يعني ادخال الفساد عليه. وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فالقرآن هو الكون المقروء، والسنة هي الكون المطبق في الحياة العملية.

---

(١) اللمعات – اللمعة الثلاثون ولاسيما النكتة الخاصة باسم «الحكم»

وفي ضوء ذلك فان النورسى يدعو الى تغير اجتماعي منظم يتمسك بقانون التطور الفطرى التدريجى، ويجب أن يبدأ من القاعدة ويصعد الى القمة، لا العكس، لان العكس سيؤدى الى زعزعة الحياة الاجتماعية، ويحصل منه شر مستطير وتخريب كبير.

اقرأ له ما يأتى.

«إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه، مالم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع اعماله لاجل التخريب والشر»(٢).

«لقد وضع الله سبحانه وتعالى في وجود الاشياء تدريجاً وترتيباً أشبه مايكون بدرجات السلم، وذلك بمقتضى اسمه الحكيم، فالذي لايتأنى في حركاته، إما انه يطفر الدرجات فيسقط او يتركها ناقصة فلايرقى الى المقصود.

ولهذا فالحرص سبب الحرمان، والصبر يحل المشاكل، حتى غدا من مضرب الامثال: «الحريص خائب خاسر» و «الصبر مفتاح الفرج». بمعنى: ان عنايته سبحانه وتوفيقه مع الصابرين»(٣).

ويقول:

«مثلما هو محال لجسم الانسان تجديد جميع ذراته دفعة واحدة، وانشاء ذرات جديدة بدلا منها كذلك تتعذر على الدولة – إن لم يكن محالا – تغيير جميع موظفيها دفعة واحدة، واقامة موظفين جدد بدلا عنهم»(٤).

---

(٢) اللمعات ١٦٠.
(٣) المكتوبات ٣٦٢.
(٤) صيقل الإسلام – المحكمة العسكرية.

«في العالم ميلٌ للاستكمال، وبه يتبعُ العالمُ قانون التكامل، ولأن الانسان من ثمرات العالم واجزائه، ففيه كذلك ميل الترقى المستمد من الميل والنزوع الى الاستكمال. وميل الترقى هذا ينمو ويترعرع مستمداً من تلاحق الافكار الذى ينبسط بتكّمل المبادئ، واستكمال الوسائل»(٥)

إذن فلا بد ان يكون قانون التغير في حياته هو التغير التدريجي، حتى لا يختل توازن الحياة فيؤدي الى نتائج عكسية.

ولا اشك انه انتهى الى هذا الرأى بعد ان استقرأ جميع الثورات الاجتماعية في العالم في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، ومن ضمنها انقلاب الاتحاد والترقي والانقلابات الكمالية في بلده.

ولإيمان الاستاذ بالتغير في اطار انتشار الوعي الاجتماعي والدعوة السلمية، فانه لا يبيح الجهاد المسلح الداخلي الموجه الى حكام المسلمين، لأن ذلك لا يخدم من وجهة نظره إلا العدو الخارجي المتربص بالمجتمع الاسلامي من حيث هو كل.

فهو يقول:

«إن الجهاد المسلح لا يحشد كليا إلا ضد العدو الخارجي، فالصراع المسلح داخل البلاد الاسلامية هو ما يصبو اليه العدو الخارجى، إذ ان سفك دماء المسلمين فيما بينهم، أمر يهمهم».

ويزيد:

«إن الجهاد في اي مجتمع مسلم انما هو جهاد معنوي يوصل اليه عن طريق تنوير الافكار واصلاح القلوب والارواح. ويكون جهادا ايجابيا بناء

(٥) صيقل الإسلام – المحاكمات ٢٧.

لصد التخريبات المعنوية، ويتصرف فيه وفق سر «الاخلاص» فهناك بون شاسع بين الجهاد في الخارج والجهاد في الداخل. فنحن نبذل قصارى جهودنا للحفاظ على استقرار البلاد وامنها وفق العمل الايجابي البناء. في هذا الوقت، الفرق عظيم جدا بين الجهاد الداخلي والخارجي»(٦).

وقد طبق النورسي رأيه هذا عمليا في اثناء ثورة الشيخ سعيد پيران، ضد سياسة مصطفى كمال الذي أثار نقمة الشعب باتجاهه المعادي للدين الاسلامي، فاجاب على رسالته في ذلك الشأن. وقد نقلنا نص جوابه عند كلامنا على حياته. وهنا ننقل نص الحوار الذي دار بينه وبين حسين باشا رئيس احدى العشائر الكردية كي يستطلع رأيه في تلك الثورة والاشتراك فيها.

حسين باشا: أريد ان استشيرك في امر. ان جنودي حاضرون والخيول موجودة، وكذلك الاسلحة والذخائر وانما انتظر امراً منكم.

سعيد النورسى: ماذا تقول؟ ما الذي تنوى فعله؟ ومع من ستحارب؟

حسين باشا: مع مصطفى كمال.

سعيد النورسى: ومن هم جنود مصطفى كمال؟!

حسين باشا: ماذا اقول: إنهم جنود!!

سعيد النورسي: إن جنوده هم ابناء هذا الوطن، هم اقرباؤك واقربائى. فمن تقتل؟ ومن سيقتلون؟ فكر وافهم انك تريد ان يقتل الاخ اخاه.

حسين باشا: إن الموت لأفضل من هذه الحياة.

سعيد النورسي: وما ذنب الحياة؟ إذا كنت قد مللت حياتك فما ذنب المسلمين المساكين؟

---

(٦) الملاحق – ملحق اميرداغ.

حسين باشا: «متحيرا»: لقد أفسدت علي عزيمتي ورغبتي ولا ادري كيف ساقابل عشيرتي التي هي بانتظار عودتي وسيظنون اني جبنت. لقد اضعت قيمتي بين العشيرة.

سعيد النورسي: وماذا لو كانت قيمتك صفرا بين الناس وكنت مقبولا عند الله تعالى؟.

حسين باشا: إنني اريد من ثورتي تطبيق الشريعة الاسلامية.

سعيد النورسي: اتريد تطبيق الشريعة الاسلامية؟ إن تطبيق الشريعة لا تكون بهذه الطريقة. فلو قلت لك يا حسين باشا تعال مع جنودك الثلثمائة لتطبيق الشريعة الاسلامية، فان جنودك وهم في طريقهم الى هنا سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليهم في الطريق. وهذا مخالف للشريعة(٧).

وكما توقع النورسي، فقد اخفقت حركة الشيخ سعيد، لأنها لم تنطلق من الوعي الاسلامي الشامل والاعداد الكامل. وكانت نتائجها وخيمة. فقد اشتدت الحملة على الاسلام واهله اكثر من ذي قبل. وانتهك اللادينيون فيها كرامة الشعب المسلم، تدميرا وقتلا وافسادا وابعادا له عن كل ما يمت الى الاسلام بصلة. بينما استمر النورسي في تطبيق نظريته التغييرية عن طريق نشر حقائق الاسلام بالأدلة والبرهان وتكوين الجيل المؤمن الصالح وبث الوعي الاسلامي بخطورة الحملة الشرسة على الاسلام والمسلمين، وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية ونقل التربية الاسلامية الى داخل البيوت.

(٧) Bilinmeyen taraflariyle B. S. Nursi 253 - 254.

وعلى الرغم من أنه لم ينج – كما بينا – من السجن والتشريد والنفي إلا ان اسلوبه قد نجح الى حد بعيد. ولو ان باحثا منصفا تابع تطور الحياة في تركيا في النصف الأخير من هذا القرن، وجد كيف ان خطة النورسي آتت ثمرتها اليانعة، فبنت على الرغم من العقبات الكؤود مدرسة اسلامية روحية ثقافية كبيرة، وارفة الظلال، انتهت الى احداث وعي اسلامي قوى وقف امام الكفر وأهوى بمعاول التوحيد الحق على مراكز الثقافة الفكرية والاجتماعية التي تفرعت من المدارس المادية التي سادت في القرن الأخير، الأمر الذي ظهرت نتائجه في انتخابات عام ١٩٥٠م المشهورة وما تبعها من الصحوة الاسلامية العامة، وبدء عودة المجتمع في كثير من مظاهر حياة افراده الى عقيدته وحضارته الاسلامية.

* * *

خاتمة

كتبت في مناسبات عدة، مقالات سريعة عن الاستاذ الكبير، الداعية الثبت، الامام المجدد، سعيد النورسي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، تعبيرا عن حبى العظيم، لهذا الرجل الربانى العظيم، الذى حمل آلام أمته وأحزانها الساحقة في قلبه الكبير، في أحلك فترة من فترات المصائب الكبرى التى حلت بامتنا الاسلامية، على ايدي اعدائها الحاقدين وابنائها المرتدين، منذ اوائل القرن الرابع عشر الهجرى.

وكان مقصدى من تلك الكتابات المتواضعة تعريف قراء العربية بالجهود الجبارة، لهذا العالم الكبير حتى يفهموا دعوته المباركة، فيضعوه في مكانه الحقيق ان يوضع فيه، بين الأئمة المجددين، والدعاة الصادقين، والعلماء العاملين في عصرنا هذا الكالح.

والحق ان حياة الاستاذ النورسى وعقيدته وفكره ودعوته وحركته تحتاج الى جهود الباحثين المكثفة لإماطة اللثام عنها، لضخامتها، وشموليتها وعمقها.

فحياته في حدّ ذاتها سلسلة من المآسى والأحزان، تحمّل ما لا يتحمله الجبال الراسيات، مما يقوم شاهد صدق على تربيته الربانية، وايمانه العميق، وشخصيته القوية، وذكائه الخارق، وعزيمته الصادقة، وتحدّيه الراسخ، وزهده الكريم، وأمله المتجدد، في تواضع جم.

ودعوته قامت على عقيدة صافية، يحدد إطارها الوحي الالهى القاطع في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، تظل متميزة في حصنها الحصين، ولا يشوه صورتها الاجتهاد البشرى القاصر في ظروف مرحلة من مراحل تطور الوضع الحضارى. كما حصل لغيره من علماء الكلام الذين فرضت ظروف الصراع مع أعداء الاسلام عليهم ان يخلطوا احيانا الفكر الفلسفى بالوحى الالهى.

ومن هنا فانه من تمام الانصاف ان نقول إنه متكلم العصر الحديث، بلا منازع. انطلق من قلب القرآن الى اعماق الانفس والآفاق في ترابط كوني رائع يريح العقل ويستولى على القلب، ويغرق الكيان في لذة عارمة عبر نشوة المعرفة الكونية الساطعة التي تشرق على الكائنات من خلال قول الله تعالى الحق ﴿**الله نور السمٰوات والأرض**﴾.

وأما فكره فهو كون قائم بذاته، في توازن عجيب، ومرونة فائقة، وشمولية متناسقة، يؤكد على البناء ويبتعد عن الهدم. يستمد اصوله من عقيدته، وضوابطه من شريعة ربه، وتفاريعه من اسس المعرفة الوجودية، ويمد فروعه الى اسباب الحياة كلها.

يوضح المذهبية الكونية الشاملة. ليميز بين الحضارات، ويشخص الاعداء. ويصوغ من اسماء الله الحسنى بناء كونيا واحدا متناسقا، يشكل نظرة الانسان المسلم الى الكون والحياة والمجتمع والانسان، وينقذ الانسان العصرى الحاضر من غربة قاتلة وفصام نكد، مع آثار رحمة الله التي تغمر الحياة، من خلال قيم مجموعة موحدة، لا متفرقة متناثرة، تتنكر لنظام الوحدة الكونية من الذرة الى المجرة. فتخلخل معها الحياة، لتحدث تغييراً

شيطانيا كبيرا مع فطرة الوجود، ليتحقق قول اللعين الرجيم التي عبّرت عنه الآية الكريمة ﴿ **ولآمرنهم فليغيرن خلق الله** ﴾.

وأما دعوته، فقد كانت دعوة كريمة جامعة، لا تعرف التعصب، ولا تؤمن بالفرقة. تمد الايدي الحانية الى المسلمين جميعا، تحرص على تحريك الايمان في قلوبهم، وبذر بذور المحبة في نفوسهم. ولا تتعرض باحد، ولا تقول إلا الخير، ولا تسفه الرأي المجتهد، ولا تؤمن بتجريح الهيئات والاشخاص، ولا تثير الخصومات، ولا تعود الى الصراعات الماضية، تعتز بالماضي وتحتضن الحاضر وتنشد للمستقبل، وتحفر الخندق الواحد للامة الواحدة، وتوجه اسلحتها المادية والمعنوية الى الكفر والالحاد، تؤمن بالعمل الدؤوب، وتتنكر للثرثرة الفارغة، تعشق التواضع والفصاحة، وتكره الكبرياء والحذلقة، والاستعلاء على الآخرين.

وأما حركته، فهى حركة عقل ذكي ، يحسن التدبير، ويعي المرحلة، ويدرك طبيعة العصر، ويخطط بدقة في حدود الممكن، لتغيير هادئ شامل، متدرج يعانق سنن الله في الحركة الاجتماعية. يرجع الامة الى اصالتها، ويرسم لها شخصيتها المستقبلة، ويعيد عبوديتها الى خالقها. ينتشلها من سكرة الرذائل الى صحوة الفضائل، وينفخ فيها روح الحياة، ويبدأ بها من منطلق العزة، ومبدأ البناء، واستاذية العالم.

نعم ستجدها حركة سعيد قديم، وسعيد جديد، وسعيد ثالث، حسب المراحل المتتابعة، ولكنك ستتلمس من وراء كل ذلك سعيداً واحداً لم يتغير قط، هو هو، في قامته الفارعة، وشموخ نفسه الأبية، ونظرته الشمولية الى الاسلام، ومعالجته امراض الحضارة العرجاء.

هو يستعيذ من سياسة الشيطان، ليدخل في سياسة الرحمن من اوسع ابوابها. يعتزل الناس لا للعزلة، بل ليهز كيانهم، ويحرك جموعهم، ويصوغهم صياغة جديدة، وينشئهم نشأة عزيزة، ينقل فيها عبادتهم من الأوثان الى الرحمن.

ترى لو قدر لسعيد القديم ان يستمر في هيجانه، فيخالط المنتديات، ويكتب في النشريات، ويحاضر في المجالس ويجتمع برجال الفكر والسياسة أكان يستطيع الوصول الى اكثر مما استطاع الوصول اليه. بل اننى أزعم ان ما وصل اليه كان اسرع وادق واعمق مما كان يمكن ان يصل اليه.

لو فهمنا سعيداً الجديد من خلال رسائل النور، لرأيناه في حقيقته، قائداً ميدانيا، ومناضلا ثائراً، وسياسياً بارعا، ومفكرا واعيا، ومخططا ذكيا، متصلا بحركة الحياة الصاخبة، كما كان ذائبا في حركة الطبيعة الآسرة.

كان هدوؤه حركة، وعزلته ثورة، وبناؤه هدما، وقيوده حركة، ومرضه صحة، وسجنه دعوة، ونفيه مدرسة.

كان يحمل «زنبيله» المتواضع بيده، ويحمل الحياة كلها في قلبه، كان كل ذلك، مكمن خوف الخائفين منه. لقد ادركوا تماما، ماذا كان ينوى، وماذا كان يفعل، ولِمَ يخطط. كانوا يشعرون انهم امام بركان عارم وانفجار كبير، سيدمر خططهم ويرد كيدهم، ويزيف دعايتهم، ويسفه احلامهم، ويحارب باطلهم فيصل الى مستقر اللؤم في نفوسهم.

فبقدر ما كان اعداؤه أذكياء في فهمه، كانوا أغبياء في عدم قتله. وهنا يكمن سر المشيئة الالهية، ورحمته الواسعة بامته المظلومة.

يحيا النورسى، فينبت العشب الاخضر عقب الحصيد الخامد، وتتفتح الورود من كل لون لتحتضن حياة الربيع النضرة، ويفوح شذاها على الاشجار اليابسة، والآكام البائسة، والوديان الحزينة، ودروب المدن الماجنة، كي تورق الاوراق في ربيع الاسلام من جديد.

واخيرا - وليس آخراً - من يدرس رسائل النور بعمق يدرك تماماً انه كان يجدد نفسه في كل يوم، لم يكن فكره ساكنا، بل كان كالليث في براثنه، ينتظر اللحظة المناسبة ليتقدم خطوة اخرى الى الامام.

ومن هذا المنطلق، فانه من الامانة والوفاء لهذا الامام الجليل ألا نضعه في متحف الماضى، نجمد على ظاهر اسلوبه في ما قال، وفي اطار زمان ومكان ما قال. وانما لا بد ان يكتشف ما كان يمكن ان يقول لو عاش بيننا، وقد تغيرت الدنيا وتفتحت ابواب الخير، إن شاء الله لصحوة اسلامية آتية لا ريب فيها، فلم تعد الحاجة ماسة الى الكنايات والمجاز واسلوب التعريض والاخفاء والترصد من بعيد.

ولك ان تسألنى وكيف بنا ان نكشف ما كان يمكن ان يقول؟ فاجيب نكتشف ذلك من ثنايا كلماته هو، شريطة ان ننظر اليها من خلال ايجازها اللماح، وفى ظلال باطنها المنضبط بظاهره المتجدد ابدا والمتطور الى الامام دائما في نماء خصب، كخصوبة مهرجان الربيع الذى كان يعشقه، ويحتضنه كل عام بروحه، فيقود - موازيا له - موكب كلماته الخالدة في رسائله النورانية الباهرة، في مهرجان شبيه آخر الى الله تعالى لينقذ ايمان امة غافلة منكوبة، خطط الاعداء في «لوازن» لسرقة ايمانها، وتغريب ثقافتها، وتغيير دستور حياتها، والحيلولة دون انفجار صحوتها من جديد، تمهيدا لاستلابها واغتصاب حب الحركة فيها.

واذا كان من كلمة مخلصة، احيى بها إخوتى النوريين، ان يجددوا منهج النورسى في حياتهم بكل ما يتحمله معنى التجدد والتطور والنماء، حتى يكونوا جديرين بوراثة شيخهم المبجل، تنظيماً دقيقاً وتدبيراً عميقاً، وفهما شاملاً، وانفتاحا ذكيا، وادراكا سليماً للتغيير الذي ظهر في العالم الاسلامى بعد وفاة بديع الزمان، لكي يجعلوه حيا بينهم، فيسألوه ابداً، ماذا ستقول الآن يا استاذنا الحبيب؟ فسرعان ما يأتيهم الجواب من جوانب الكلمات الواضحة في رسائله النورية الخالدة. ذلك لان هذا المفكر المبدع لم يكتب لمرحلة معينة، ولا كان اسير زمن ماض، بل عاش في قلب القرآن الخالد وحده، ووقف وراء موكب رسول الله وحده ﷺ وهل في غيرهما حجة لنا في يوم القيامة.

وختاماً فاننى لم ازد شيئاً جديداً على ما يعرفه تلامذة بديع الزمان، ولكن هي كلمات محبة وتقدير لهذا الداعية العملاق، الذي لم نكن نعرف عنه الكثير حتى وفق الله تعالى اخانا الحبيب، الاستاذ إحسان قاسم الصالحى، فترجم رسائل النور – عبر معاناة طويلة – وقدمها هبة عظيمة الى العالم العربى المسلم وفاء لرائد من اعظم رواد الفكر الاسلامى القديم والحديث. فجزاه الله تعالى خيراً كثيراً في الدارين.

رحم الله شيخنا النورسى رحمة واسعة، واجزل مثوبته، ورفع مقامه، وألحقه بموكب الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن اولئك رفيقاً.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

فهرس

رقم الإيداع ٢٠٤٨ / ٩٥

١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر - القاهرة - هاتف : ٢٦٣٦٦٨٤

